AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

ABU SUFYAN IBN HARB IN EARLY ISLAMIC SOURCES, A CRITICAL STUDY

by
HISHAM ALI SHIHAB

A thesis
submitted in partial fulfillment of the requirments
for the degree of Master of Arts
to the Department of History and Archaeology
of the Faculty of Arts and Sciences
at the American University of Beirut

Beirut , Lebanon
February 1997

الجامعة الاميركية في بيروت

ابو سفيان بن حرب في المصادر الاسلامية المبكرة، دراسة و نقد

اعداد

هشام علي شهاب

رسالة

مقدمة لاستكمال متطلبات نيل شهادة استاذ في الاداب

(الماجستير)

الى دائرة التاريخ وعلم الآثار

في كلية الآداب والعلوم

في الجامعة الأميركية في بيروت

بيروت ، لبنان

شباط ١٩٩٧

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

ABU SUFYAN IBN HARB IN EARLY ISLAMIC SOURCES, A CRITICAL STUDY

by

HISHAM ALI SHIHAB

Approved by :

Dr. Kamal Salibi , Professor History and Archaeology	Advisor
Dr. Abdul Rahim Abu Husayn , Associate Professor History and Archaeology	Member of Committee
Dr. Nadia - Maria el - Cheikh , Assistant Professor History and Archaeology	Member of Committee

Date of Thesis Presentation : February 6,1997

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

THESIS RELEASE FORM

I, Hisham Shihab

☐ authorize the American University of Beirut to supply copies of my thesis to libraries or individuals upon request.

☑ do not authorize the American Universtiy of Beirut to supply copies of my thesis to libraries or individuals for a period of two years starting with the date of the thesis defense.

Hisham [signature]
Signature

March 3, 97
Date

شكر

اتوجه بالشكر الى الاستاذ الدكتور طريف الخالدي الذي بدأ هذا البحث على يديه و قام بتوجيهي الى ما يفتح آفاق العلم امامي ويكسبني القدرة على النظر الى التاريخ من زوايا مختلفة.

كما اعترف بأني مدين بالكثير في تكوين نظرتي الى التاريخ الى الاستاذ الدكتور كمال الصليبي، الذي قرأت كتبه قبل ان التحق بدائرة التاريخ واعرفه عن كثب. واقول انه قد صحح نظرتي الى التاريخ فأصبحت حريصاً على الوقوف امام الاحداث التاريخية دون آراء مسبقة.

اما في ما يتصل بالتعامل اليومي مع البحث فلا يسعني الا ان انوه بجهود عضو اللجنة الدكتورة نادية شيخ التي كانت تمد لي يد المساعدة في استكناه تفاصيل البحث بالرغم من مشاغلها الكثيرة، كما اشكر الدكتور عبد الرحيم ابوحسين الذي كان لصبره علي وسعة صدره الاثر الكبير في اتمام هذا البحث على الصورة الماثلة. وكذلك اشكر السيدة سيدة نعمة التي تحيط جميع طلاب التاريخ بعطفها. وفي النهاية كم اعجز ايضا عن شكر زوجتي منى التي تحملت تبعات انشغالي عن الاهتمام بشؤون العائلة طوال سنوات.

ويبقى اناس لقوا ربهم كان لهم فضل كبير في تعليمي واعدادي لأفهم التاريخ واكتسب القدرة على البحث العلمي، اذكر منهم الدكتور جورج خير الله والشيخ واصف الخطيب، رحمهما الله.

مستخلص رسالة ماجستير

هشام شهاب لـ ماجستير في الآداب
التخصص: تاريخ العرب و الشرق الادنى

العنوان : ابو سفيان بن حرب في المصادر الاسلامية المبكرة، دراسة ونقد.

ابو سفيان بن حرب، والد الخليفة معاوية شخصية تاريخية مثيرة للجدل. تصوره المصادر قبل اعتناقه الإسلام بأنه كان رأس الكفر او المسيح الدجال (Anti - Christ) في مقابل النبي محمد. وبعد إسلامه دأب بعض المؤرخين على تصويره بانه اصبح كهف المنافقين. لكنني اعتقد ان صورة هذه الشخصية وصلت مشوهة بسبب ما تعرضت الروايات التاريخية من ضغوط سياسية واجتماعية وعقائدية خلال القرون الاولى من التاريخ الاسلامي. كما اعتقد ان شخصية ابي سفيان التاريخية كانت هدفا لمطاعن المؤرخين المعادين للأمويين او المتزلفين للعباسيين. وارى ان صورته باعتباره راسا للكفر تم رسمها او تركيبها في العصور الاسلامية المتاخرة لمقابلة صورة النبي محمد. وسأحاول في هذا البحث جمع ما تبقى من أجزاء الصورة التاريخية لهذه الشخصية الخلافية. وتكمن اهمية هذه الدراسة في ثلاث نقاط: اولا، انها تفتح نافذة على مرحلة مبكرة من التاريخ الاسلامي يصعب دراستها ويخوض فيها القليل من المؤرخين. ثانيا، انها تلقي بعض الضوء على العلاقات الانسانية بين بعض القرشيين والنبي محمد. ثالثا، انها تلقي الضوءعلى بعض الأنماط(topoi) التي استعملها بعض المؤرخين المسلمين لـ " أسلمة التاريخ " ووضع الاحداث في سياق التاريخ الاسلامي العام، كما فهموه وقتئذ.

اما ما سأستعين به في دراسة المصادر الاسلامية، فهو بعض النظريات الغربية الحديثة التي وضعت في هذا العلم. وسآخذ من كل نظرية ما أراه مساعدا على فهم الروايات التاريخية. لذلك سأعالج هذه النظريات الغربية بشكل واف في قسم خاص ليدرك القارئ ممنهجي في تناول هذا البحث. كما انني سأمهد لتاريخ هذه الفترة خلال فصل خاص يعرض اوضاع مكة السياسية و الاقتصادية عشية ظهور الاسلام. ثم سأعمد بعد ذلك الى دراسة الأحداث وفقا لترتيبها الزمني في المصادر الاسلامية.

AN ABSTRACT OF THE THESIS OF

Hisham Shihab for Master of Art
Major: History of the Arabs and the Near East

Title: Abu Sufyan ibn Harb in Early Islamic Sources, a Critical Study

Abu Sufyan ibn Harb , the father of the Caliph Mo'awia I, is a controvesial historical figure. He was depicted by Islamic sources, before embracing Islam, as an anti - Christ, in contrast to the Prophet Muhammad. And after joining the fold of Islam, he was pictured as the hypocrite par excellence by most of Muslim historians. But I believe that the image of Abu Sufyan was distorted by the biased historians who were subject to social and political pressures due to the coming into being of political theological factions in the first centuries of Islam. Hence, I will try in this dissertation to gleam the fragments of the historical picture of this controvsial personality.

The significance of this study lies in three points. First, it sheds light on an early and critical period of Islamic history that few historians tackle, inspite of its importance embodied in the appearence of Muhammad and his rise to power in Arabia. Second, it unravels some of the human relationships between Muhammad and a few Meccan leaders. Third, this study reveals some topoi used by Muslim historian in the islmization of history, and the replacement of events in the general Islamic frame work of history, as those historians understood it then.

On the other hand, I will employ in the study of those Islamic sources a few western modern theories that deal with this branch of history, and I will take from every theory what I deem helpful for the understanding of historical narratives pertinent to my subject of research.

For this reason. I will deal with some aspects of these western theories extensively, in a separate part of chapter one, to enable the reader to grasp what I have been doing through this research. Also I will approach the history of this period through a chapter that deals with the political and economic conditions in Mecca on the eve of Islam. Then I will scrutinize the different historical events pertaining to Abu Sufyan according to their chronological order in the Islamic Sources.

المحتويات

إلى الأستاذ الدكتور

محمد يوسف نجم

معلم الأجيال

الفصل الاول

دراسة المصادر

١ - جغرافية المصادر الاسلامية المبكرة

يعتمد فهمنا لتاريخ الجزيرة العربية عامة والحجاز خاصة في القرنين السادس والسابع للميلاد على كتب التاريخ والآثار الادبية. وبالرغم من ان الوثائق التاريخية المكتوبة، من معاهدات واتفاقات تجارية واقتصادية وغيرها، ليست معدومة الا انها ضئيلة جدا ولا يمكن الوثوق بها. ويبدو ا ان المؤرخين الذين جمعوا الروايات عن هذه الحقبة أخذوا هذه الوثائق من المصنفات التي كانت بين ايديهم او من افواه الرواة ولم ينقلوها عن الوثائق الأصلية نفسها. كما يبدو انهم لم يحاولوا البحث عنها، فبقيت حكرا على من عاصرها فقط .(١) اما المواقع الاثرية فهي قليلة جدا ايضا، وأي عمليات تنقيب تبدوغير ممكنة عندما يتعلق الامر بالحجاز، وبمكة والمدينة بالذات،لانهما منشأ الدعوة المحمدية وحرما مقدسا عند المسلمين.(٢) ك فان النتائج التي يتوخاها المؤرخ من أي بحث في تاريخ هذه المنطقة يتوقف على هذا النوع المتوفر من المصادر التي وان كانت غزيرة من حيث الحوليات وعلم الرجال والانساب، الا ان لها حدودا ومشكلات يتوقف عندها الباحث فلا يستطيع سوى الاستنباط والتحليل ومقارنة الروايات ليسد الثغرات التي كان من الممكن ان تملأها الكشوف الأثرية او الوثائق التاريخية لو وجدت.(٣)

لذلك فإن المعلومات التي يحتاجها الباحث لدراسة حياة ابي سفيان بن حرب يمكن ان يستخرجها من المواد التي جمعها هؤلاء الإخباريون القدامى. ولعل هذه المواد كانت متوفرة لهم في مصادرها الأصلية، كما ذكرت من قبل، فضموها الىمصنفاتهم. وابرزهؤلاء ابن اسحاق (توفي١٥٠هـ/٧٦٧م)،والواقدي (توفي٢٤٠هـ/٨٢٢م)، وابن هشام (توفي ٢١٣هـ/٨٢٨م)، و ابن سعد (توفي ٢٣٠هـ /٨٤٥م)، وابن الخياط (توفي ٢٤٠هـ/٨٥٤م). و البلاذري (توفي٢٧٩هـ/٨٩٢م) ، وابن قتيبة(توفي ٢٧٦ هـ/٨٨٩ م)

وابن حبيب (توفي٢٤٥هـ/٨٥٩م)،والطبري (توفي٣١٠هـ/٩٢٢م)،واليعقوبي (٢٨٤هـ/٨٩٧م)، والمسعودي (توفي٣٤٥هـ/ ٩٥٦م).

وبالإضافة الى ما سبق، هناك مؤرخون آخرون لهم مصنفات مفيدة لهذا البحث، وأعمال أدبية ضمت روايات تتعلق بابي سفيان، وقصص منقولة عن إخباريين مبكرين تحتوي اخبارا لم تصلنا من طرق اخرى.و مثال على هؤلاء الأصفهاني (توفي٣٥٦هـ/٩٦٧م)، وابن الأثير (توفي٦٣٠هـ/١٢٣٣م)، وابن كثير (توفي٧٧٤هـ/١٣٧٣م)، وابن حجر(توفي٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م)، والصفدي (توفي٧٦٤هـ/١٣٦٣م)، والسيوطي (توفي٩١١هـ/١٥٠٥م)، والمبرد (توفي٢٨٦هـ/٩٠٠م)، والمقريزي (توفي١٤٤٢هـ/٨٤٥م)، وفخر الدين الرازي (توفي١٢٠٩هـ/٦٠٦م)، والجاحظ (توفي٢٥٥هـ/٨٦٩م). وغيرهم من المؤرخين واصحاب دواوين الشعر الذين لامجال لذكرهم في هذا القسم .

ولا أنسى انه يبقى ان اقول ان اهم مصدرين لهذه الفترة التي عاش فيها ابو سفيان هما القرآن والحديث النبوي، اللذان لا يمكن تجاهلهما لما يقدمانه من معلومات متصلة اتصالا وثيقا بمرحلة صدر الاسلام، على الرغم من الصعوبات التي تفرضها الطبيعة الدينية للنص .

من ناحية ثانية ، يبدو ان عددا من هؤلاء المؤرخين الذين ذكرت كانوا يهتمون بجمع الروايات على مختلف انواعها بما فيها الروايات المتناقضة، ولو كانت متصلة بالحدث نفسه. وقد كان يُتوقع من الراوي ان ينقل الاخبار كما هي بامانة دون ابداء أي رأي شخصي او تعديل يوافق غيرها، وطبعا هذا لم يكن يحصل دائما، وسنحاول تناول هذا الامر لاحقا. وقد حاول هؤلاء الإخباريون توخي الدقة في نقل الخبر باستعمال الاسناد الذي يذكر كل الرواة. وجمعوا على هذا النهج الحديث والسيرة والمغازي والنوادر والفتوح وسير الصحابة والمشاهير والانساب وغيرها من الاخبار .

لا شك في ان الاعمال الادبية من دواوين شعر ومعلقات وخطب دينية لها أهميتها، لانها تضفي شيئا من الحيوية والحياة على تاريخ هذه الفترة، على الرغم مما تضمه من عناصر الاسطورة والخيال التي يبذل المؤرخ جهده دائما لتصفيتها ليحصل منها على صورة تاريخية واضحة. كما ان الحوليات وما تضمه من روايات وقصص

ونوادر تعطي صورا مبالغا فيها لشخصياتها التي تبدو في كثير من الاحيان بطولية ومثالية في سلوكها. ومع ان هذه الروايات مطولة ومفصلة، وكثيرا ما تسرد اقوال شهود عيان الا انها تبدو في كثير من الاحيان مختلقة او موضوعة لاهداف سياسية او عقائدية .[٤]

ويبدو ان مسألة المصداقية هذه كانت تقض مضاجع المؤرخين والمحدثين المسلمين الاوائل ايضا، مما جعلهم يروون الاخبار من مصادرها معتمدين على الاسناد الذي يذكر من نقل الخبر كما ذكرت، رجوعا الىالشاهد العيان او الشخص الذي سمعه من مصدره الاول، هذا بالإضافة الى دراسة سير الرواة وشخصياتهم للتأكد من تقوى كل راوٍ وصدقه ليطمأنوا في النهاية الى التعويل علىالرواية .[٥]

ان الاهتمام بسلسلة الرواة (الإسناد) ادى في النهاية الى نشوء علم الجرح والتعديل لدراسة سير الرجال والتدقيق فيها من اجل تصنيف الروايات الموضوعة التي كان الفرقاء المتخاصمون يستشهدون بها، والذين تحوّل نزاعهم عقب الخلاف بين علي ومعاوية الى صراع سياسي وديني[٦]. وتجدر الاشارة الى ان احدى الدراسات تشير الى ان حوالي نصف الاخباريين الذين نقلوا هذه الروايات كانت لهم ميول شيعية واضحة، ولا نتوقع منهم ان ينقلوا أي رواية تتحدث عن ابي سفيان والد معاوية بموضوعية .[٧]

فضلا عما ذكرت، يبدو ان الصراع العقائدي في الاسلام كان يخاض باسم الشخصيات وما ينسب اليها من فضائل او رذائل. لذلك فان علم السير اصبح موضوعا ضروريا للمؤرخين المسلمين،[٨] هذا الى جانب حاجة المحدثين اليه في علم الجرح و التعديل.لذلك من الخطأ ان ننظر الى التاريخ الاسلامي على انه امتداد لعلم الحديث، وان التاريخ قد اقتبس من الأخير مفاهيمه ومنهجيته في النقل. بل يمكن القول ان العلمين كانا توأمين غير متطابقين في صدر الاسلام، وجدا لمساعدة العلماء في تفسير القرآن و جمع السيرة النبوية و لم يكن بد في النهاية لمساريَ المؤرخ والمحدثَ ان يتقاطعا [٩]، لان المؤرخ الجاد اصبح يحتاج الى الاسناد الذي طوره المحدثون، بينما المحدث اصبح بدوره يحتاج الى المعلومات التي وصل اليها المؤرخ في التواريخ والسير وعلم الرجال والانساب ليحمي الاحاديث التي يجمعها من التلفيق.[١٠] ويعتقد بعض المؤرخين ان تدوين الروايات من قبل العلماء في المدينة والعراق وغيرهم، ممن

كان يهتم بانساب القبائل واخبار الاولين واشعارهم ، قد بدأ بتشجيع من الخليفة الأموي الاول معاوية. وتذكر نبيهة عبود نقلا عن المسعودي وغيره ان معاوية كان في آخر ايامه يجد لذة كبيرة في الاستماع الىعبيد بن شريَة يحدثه عن اخبار العرب واحداث الماضي في المساء، نزولا عند اقتراح عمرو بن العاص. وقد كان عبيد هذا رجلا يمنيا طاعنا في السن مشهورا بحفظه لأيام العرب وماضيهم . وقد اولع معاوية بهذا الرجل فاصبح ملازما له وطلب من كتبته تدوين ما يقول من اخبار واحداث .(١١) اما وضع الروايات في مصنفات فقد بدأ به عروة ابن الزبير (توفي٩٤هـ/٧٤١م)،(١٢) مع ان اول عمل شبه كامل يروي حياة النبي محمد يعود الى محمد بن اسحق ،(١٣) ويعالج الفترة التي تضم اكثر الاحداث التي تعنينا في دراستنا لحياة ابي سفيان ابن حرب وظهوره على مسرح الاحداث التاريخية .

من جهة ثانية، فان كتب الفتوح تعود نشأتها الى وقت متأخر عن روايات السيرة بكثير، ويرجح ان الواقدي كان من رواد جمع اخبار الفتوح وترتيبها على الرغم من سبق ابي مخنف (توفي١٥٧هـ/٧٧٤م) في روايتها .(١٤)

ولعل هؤلاء العلماء واجهوا مصاعب جمة في جمع هذه الروايات المطولة بأسانيدها ومتونها وتوفيقها بعضها مع البعض الآخرعلى الرغم من تناقض الكثير منها كما ذكرنا، مما يدخل الشك في صدق المؤرخ الذي عليه ان يحكم بنفسه في النهاية، فينتقي منها ما يراه مقنعا لبعده عن الأسطورة والمبالغة والخيال، ولا يبدو انه وضع للتضليل ضمن خطاب سياسي او عقائدي او ديني معين. وعلى الرغم من ان الكثير من هذه الروايات مكذوب، باعتراف علماء المسلمين، فان الكثير منها يعكس بصدق ما كان يعتقده هؤلاء العلماء الاوائل، والبعض منها قد يعكس بحق جزءا من الصورة التاريخية و قتئذ. ولا يمكن لاي مؤرخ ان يقول بموضوعية ان احدا من اولئك العلماء قد حاول عن سابق قصد وتصميم تلفيق او وضع كل هذه المادة التاريخية الهائلة، اواستطاع ذلك. اذ ان الكثير من الاحداث تروى بتفاصيل دقيقة جدا اكسبتها واقعية تاريخية، كما ان المجتمع الاسلامي وقتئذ لا يبدو انه كان من النوع المستبد القادر علىابتداع تاريخ مفصل و تمريره الى الاجيال اللاحقة، ولوحصل ذلك لظهر اثره في أي من الاعمال الادبية المعاصرة لهم.(١٥)

٢ – عرض لبعض النظريات الحديثة حول المصادر الاسلامية المبكرة

على الرغم مما ذكرنا فقد ظهر باحثون شككوا في هذه المواد التاريخية (ان صح التعبير) برمتها، وخاصة الحقبة التي ظهر فيها النبي محمد، ومن هؤلاء كان هنري لامنس الذي يقول ان الروايات التي تتكلم عن الفترة المذكورة قد لفقت لحاجة المجتمع الاسلامي الى سيرة متكاملة لمؤسسه (النبي محمد)، لتنافس صورة السيد المسيح في الانجيل. ويعتقد لامنس ان القرآن وبعض روايات التفسير اصيلة لكن المواد الباقية جميعها تقريبا موضوعة. ولعل الامر الذي يمكن قوله في هذا السياق ان شخصية النبي محمد، في السيرة التي بين ايدينا، تبدو انسانية وواقعية الى حد بعيد، ولا يمكن ان تقارن بصورة المسيح العجائبية في الانجيل، والتي لو اراد العلماء المتأخرون تقليدها لشددوا على معجزات النبي، ولما ظهرت صورته الانسانية في هذه السيرة.[١٦]

وبالإضافة الى لامنس، فان من ابرز الذين شكوا في صحة المصادر الاسلامية وجاؤوا بنظرية متكاملة عنها جون وانسبرو، الذي يعتقد ان المشكلات تنشأ في دراسة هكذا تاريخ لان التاريخ الاسلامي هو من" تاريخ الخلاص"(salvation history او heilsgeschichte) الذي يتميز بمفاهيم السببية (casuality) والحركة الخطية (linear movement) والموجهة نحو غاية (teleological) والمثلية (exemplification) والتاريخانية (historicization) ولان دافع تاريخ الخلاص هذا هو التأويل، فهو تاريخ خرافي وأسطوري، ومن الصعب جدا ان نفصل المادة التاريخية فيه عن تأويلها. وهو مليء بالانماط (topoi) المقتبسة من المصادر التوارتية والتلمودية التي تقوم على الجدل اللاهوتي(theological polemics) لذلك يبدو ان النموذج الاسلامي لتاريخ الخلاص هو توراتي الاصل وان انماطه تتمفصل وترتبط بالتراث العبري. ولا شك [كما يعتقد وانسبرو] ان قسما كبيرا من المعلومات مشترك ويسهل عملية التمفصل (articulation) هذه، سواء في السيرة او المغازي او الانساب – بشكل عام .

ويعتقد وانسبرو ايضا ان الروايات والاخبار وضعت لتشرح التغييرات الروحية والفكرية التي ادت اليها بعثة " نبي عربي " ، وان السيرة بكاملها واسلوبها البلاغي ينقلان الحركة والحبكة في الروايات من العامل البشري الى العامل الالهي. مثال على ذلك قصة معركة بدر التي تروى بكل تفاصيلها الحية لكن تنتهي بالاستشهاد بآيات

قرآنية تدل علىالتدخل الالهي في مسار المعركة، من اولها الىآخرها، حتى ان التفاصيل الدقيقة التي توضع لإضافة النكهة الواقعية او المحلية توظف لهذا الغرض. مثال على ذلك الرواية الخاصة بقص ابي سفيان للأثر قبل معركة بدر وعثوره على نوى بعر الجمال الذي يحوي نوى تمر المدينة، وهو بالتالي تنبه لمرور النبي واصحابه من هناك، فحول سير " العير " ليضطر المسلمون الى اختيار " النفير " (الذي كانوا له كارهين)، بدل " العير "، وبذلك يصبح وقوع معركة بدر حتميا لا مفر منه،{ ليهلك من هلك عن بيّنة و يحيى من حي عن بينة }،[١٧] فيحصل التجلي الالهي لخدمة تاريخ الخلاص، ولو عبر ادق التفاصيل. كما ان الاخبار التي تسرد احداثا سبقت ظهور النبي توظف ايضا لهذا الغرض وتستعمل لتعبيد الطريق امام الدعوة المحمدية. مثال على ذلك قصة سلمان الفارسي المطولة التي تنتهي بوصوله الى يثرب (المدينة المنورة) والعثور على النبي العربي الذي جمع سلمان اوصافه من معلميه السابقين من نصارى وغيرهم. وهكذا يهدف الراوي دائما الى جعل المفاهيم – على تنوعها من لاهوتية وأخروية (eschatological) وواقعية حية – تاريخانية. وهذا يجعل كل الأدلة ظرفية، على الرغم من الاسلوب الفعال لوصف الاحداث التي تتكلم عن نشوء "أمة " من مجموعات قبلية كانت متنافرة يجمعها التجلي الالهي (theophany)، وهذا دليل على الطبيعة الرمزية لتاريخ الخلاص ويخلص وانسبرو الىالقول ان هكذا تأريخ ليس استثنائيا بل هو الجد والنموذج البدئي(archetype) للكتابة التاريخية، وعلى المؤلف ان يستخلص المواد والمعلومات التاريخية من التأويلات الأسطورية والخرافية. ويعتقد وانسبرو ان التراث الاسلامي ظهر اول ما ظهر في بلاد ما بين النهرين في منتصف القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي .[١٨]

بالإضافة الى وانسبرو، فقد وضعت باتريشيا كرونه نظرية مشابهة لنظريته . وتعتقد كرونه ان المصادر الاسلامية التي نعتمد عليها قد كتبت برمتها في العصور العباسية المتأخرة " لإضفاء هوية تاريخية على دين الاسلام الذي تم ابتداعه في العراق في هذه العصور بعد ان كان حتى ذلك الوقت مجرد مذهب او فرقة من فرق اليهودية ".[١٩] وتدعو كرونه الى تجاهل معظم الروايات التاريخية – خاصة ما يتعلق بالنبي محمد – لان اتباع أي دين جديد يعيشون واقعا مختلفا عن واقع مؤسسه،

وبالتالي يواجهون مشكلات مختلفة كليا بطبيعتها، فيلجأون الىاعادة قولبة التراث الذي وصلهم، لذلك فان أي شيئ يكتب بعد وقت طويل من الفترة التي عاش فيها مؤسس هذا الدين، من الصعب ان يعكس حقيقة ما كان يواجهه في الواقع وما كان يفكر فيه. وتعتقد كرونه ان الاحاديث المروية عنه هي كطبقة من الردم والحجارة تراكمت في تلك العصور المتأخرة ، كما ان الطبقة التي تحتها تتألف ايضا من الركام الذي اعيد تنظيمه قليلا جدا. وما من عالم يستطيع ان يتخيل او يحلم باعادة بناء المدينة [المنورة] مثلا، من ركام الاخبار التي تتعلق بالإمام علي بن ابي طالب، مع ان العلماء لا بد يفعلون هذا عندما يحاولون اعادة بناء او تشكيل صورة تاريخية من ركام التراث الاسلامي. وان مواد التاريخ – في أي شكل كانت– سواء تواريخ او سير حياة او تراجم او اشعار او تاريخ اقليمي او محلي او شيعي او سني اوحديث او علم انساب، او في لغات اخرى كالفارسية ، سواء كانت متقدمة او متأخرة، هي اشكال مختلفة للمواد نفسها التي لا تزيد ولا تنقص عن بعضها البعض سوى النزر اليسير. وبالتالي فان ما يظنه المؤرخ فيضا و تنوعا في المصادر، ليس الا المواد نفسها مكررة باساليب مختلفة .[٢٠]

بالإضافة الى ذلك فان هذا التراث في مجمله يتميز الى حد بعيد باللاواقعية، ويهدف الى حملنا على تصديق ما لا يمكن ان يكون صحيحا، اذ ان الديانات الجديدة لا يمكن ان تنبع من رؤوس الانبياء تامة كاملة ولا يمكن للحضارات العتيقة العريقة ان تزهق هكذا. حتى ان اي ملحمة اواسطورة [في تراث آخر] تبدو اقرب منه الىالواقع، ولو كانت المعلومات فيها مغلوطة. بينما يبدو التراث الاسلامي غير مقنع ولو كانت معلوماته صحيحة، لأن أي ملحمة او اسطورة تبعث تجربة عيشت من قبل، اما التراث الاسلامي فقد مر بالكثير الكثير من الثورانات التي افقدته الكثير من الحيوية فاصبح كالغبار في عيون المؤرخين، سواء كان حقيقيا او مزيفا.[٢١]

بالإضافة الى كل هذا، تظن كرونه ان التراث الاسلامي يتميز بالأنتروبيا (entropy) وهو مليء – كما تتوقع – بالتناقضات والفوضى والغرائب التي ان استطعنا تنظيمها قد يظهر شيئ له معنى . لكن هذا الركام كله يقاوم كل نقد ذاتي لانه لا يمكن تنظيمه و لا يمكننا ان نثبت او ندحض أي شيئ فيه. ومهما فعلنا او اجتهدنا فاننا لا

نحقق شيئا سوى نقل هذا الركام من مكان الى مكان دون ان نصل الى شيئ، ونبقى نعلم القليل القليل ولا نفهم شيئا اكثر من ذي قبل .[٢٢]

ويبدو لكرونه ان السبب في هذه الظاهرة ان التراث الاسلامي لم يكن نتيجة تبلور بطيء بل انفجار، وان المؤلفين [المسلمين] كانوا يجمعون الركام، وان مصنفاتهم تخلو من الوحدة و الانسجام. لذلك مهما نقبنا وبحثنا نصل الى طبقات فوق طبقات من الركام. وليس من حل لهذه الانتروبيا سوى ان نخطو الى الخارج، الى مصادر معاصرة غير اسلامية .[٢٣]

يبدو ان الخلل الكبير في نظرية كرونه هو ان هذه المصادر الغير الاسلامية لم تذكر سوى بعض الشذرات عن الحقبة التي ظهر فيها النبي محمد، بالإضافة الى جهل اولئك المؤرخين المعاصرين – من غير المسلمين – بالاسلام، و قلة اطلاعهم عليه وتحيزهم الواضح، في كثير من الروايات التي يوردونها لتتلاءم مع نظرتهم للتاريخ . لذلك فان الاعتماد على تلك الروايات القليلة المغلوطة لفهم التاريخ الاسلامي وترك التراث العربي الهائل يبدو غير معقول، مع كل ما نلحظه من مشكلات النقل، والتناقضات في الروايات والاخبار والتحيز والتشويه المتعمد لبعض الاحداث اللذين يظهران في اكثر النصوص التي تروي اخبارالنزاعات السياسية، حيث يبحث الرواة والمؤرخون المتقدمون عن شواهد من ماضي الاسلام، لدعم نظرتهم الى الاحداث وتبريرها. فعلى المؤرخ ان يتنبه الى ان الكثير من التقارير التي تنقل– عقب احداث مثيرة – قلما تكون دقيقة ويدخل عليها عامل الشائعات وادعاء بعض الشهود انهم رأوا شيئا بعد ان كانوا في الحقيقة قد سمعوه من غيرهم. لذلك على المؤرخ تصفية الروايات التي لا توحي بالدقة، وان يعتبر ان الرواة ربما رأوا جزء من الحدث لا كله. كما عليه الا يترك فكرة التزوير المتعمد تسيطر على نظرته الموضوعية للأمور. اذ ان كل هذه الروايات والاخبار ليست مجرد دعاوة حزبية اوعقائدية (propaganda)، وان البعض او الكثير من الروايات التي تعكس التحيز لا يمكن ان تلغي مصداقية المادة الهائلة المتبقية .[٢٤]

ويلي ما ذكرنا من البحوث دراسة مختلفة في شكلها ومضمونها، قام بها ألبرخت نوت .[٢٥] يعتقد نوت ان السنوات الواحدة والثلاثين (٦٣٢–٦٦١)، بين وفاة النبي

محمد ووفاة خليفته علي بن ابي طالب، كانت حاسمة في التاريخ الاسلامي، وهي الفترة التي كان لها اعمق الاثر في كتابة التاريخ لما تضمنته من غزارة في المواد التي يقابلها حجم مماثل من العقبات التي تواجه المؤرخ الذي يحاول اعادة جمع اجزاء الصورة التاريخية. ويظن نوت ان المؤرخ يجب ان يركز في بحثه علىالمادة نفسها وليس فقط على سبب كتابتها وطريقة نقلها والاسلوب الذي كتبت به. لذلك عليه ان ينطلق من مضمون المادة التاريخية وقالبها، و ان لا يخلط بين نقد المصادر والوصف التاريخي، وهذا الاخير يضلل المؤرخ ويجعله رهينة لنوع محدد من الروايات التي ينتقيها ليرسم الصورة – التي يريد – متكاملة الاجزاء. ويفضل نوت لو يدرس المؤرخ جميع الروايات ويجعل المادة برمتها مألوفة لديه، قبل ان يحاول تكوين صورة تاريخية او يحاول الحكم في مسألة تاريخية .

اما ما يقوله المؤرخون الغربيون عن تزوير الروايات وتلفيق الاخبار، فيعتقد نوت انه لم يكن متعمدا بشكل عام. بل ربما كان نتيجة لطريقة خاطئة في جمع الروايات ونقلها، لا بسبب دوافع الرواة التي غالبا ما تكون نزيهة. ويعتقد ان معظم الروايات غير الصحيحة كانت نتيجة عملية طويلة بدأت مبكرة جدا لتصل الى المؤرخين المسلمين المتأخرين الذين اخذوها على علاتها. وهذه الروايات في معظمها لم يكن مصدرها مدارس تاريخية محددة، بل اتت من مصادر ومجتمعات ومدارس مختلفة. لذلك فان أي عمل ادبي اومؤلف قد يبدو لنا بعضه متكاملا وهو يحوي في صلبه متناقضات كثيرة . و يضرب نوت مثالا على ذلك الفصل الذي جمعه البلاذري عن عثمان بن عفان في كتابه انساب الاشراف ويتحدث فيه عن اسلام عثمان ومزاياه الفائقة كصحابي وفيَ معطاء، بينما يورد في فصل آخر روايات تتحدث عن اخطائه الفادحة. وهذا بالضبط ما يتوقعه الباحث من كاتب كالبلاذري كان دوره الرئيسي جمع الروايات ونقلها، لذلك لم يكن هناك دائما صلة فعلية بين مضمون الرواية وسياق الروايات في ترتيبها الزمني [كما يقول نوت].[٢٦]

على الرغم من ان نوت يعتقد في دراسته ان أية مجموعة من الروايات لا يمكن ان تمثل مدرسة واحدة من المدارس التاريخية التقليدية من عراقية اومدنية اوشامية، الا انه يظن ان هذه المدارس كانت موجودة، لكنها لا تخولنا الحكم على راوٍ اوعلى

الاخبار التي نقلها بسبب انتمائه الجغرافي. ويعتقد ان هذه المدارس والرواة على اختلاف مشاربهم، والاخبار التي نقلوها تشترك في المضمون والاسلوب بما يلي:

اولا: ان كل مجموعة من الروايات تتضمن هي نفسها افكارا تاريخية متناقضة، ولا يمكن اعتبار أية مجموعة وحدة متكاملة. لذلك علينا دراسة المواد المنقولة برمتها قبل الحكم على موضوع محدد. كما ان المؤلفات ليست اعمالا متماثلة لبعضها البعض، وهي تختلف في ترتيبها للموضوعات، على الرغم من وجوه الشبه بينها. لذلك فان مقارنة مواد موضوع معين في هذه المصادر تقتضي الاطلاع على مختلف اجزائها في اكثر الاحيان. اذ يمكن ان تجد رواية مندرجة تحت باب " الفتوح " في مصدر معين قد اندرجت في مصدر آخر تحت باب " الفتن" مثلا .

ثانيا : ان الافكار المسبقة والانحياز والمفاهيم والانماط (topoi) [٢٧] والانماط الجامدة (stereotypes) قد تسللت الىمختلف النصوص التاريخية. مثال على ذلك فكرة تفوق اوأعلوية الصحابة على غيرهم. لذلك فان أية رواية يجب ان توضع في سياقها التاريخي الصحيح ليجري تقييمها بصحة واعتدال .

ثالثا : ان الرواة المتقدمين لم يكونوا الا جامعين لمواد وروايات مختلفة. ومع انهم شذبوا هذه المواد بطرق متعددة ، الا انهم لم يستطيعوا صياغتها في قالب متماسك. بل قاموا بتخطيطها (schematization)، عن قصد او غير قصد. وقد تمت صياغة التخطيط عبر خمسة عوامل :

أ – وسائل الربط بين الروايات من أحرف وكلمات و جمل مثل "ثم " و " أتى" و " مضى الى " و " حتى انتهى الى " ... الخ وهذه الوسائل في الربط بين روايات متناقضة، او تصف احداثا وقعت في أزمان مختلفة، تؤدي الى ارباك الباحث، وتضفي الغموض على الوقائع التاريخية .

ب – الأسباب الوهمية، اذ ان استعمال وسائل الربط بهذا الشكل اعطى الروايات تسلسلا مغلوطا يؤدي الىاسباب وهمية، لا علاقة لها بالحدث التاريخي .

ج – البحث عن اسباب تسمية الاماكن (etiology) من خلال الروايات واضافة التفسيرات المختلفة عليها. مثال على ذلك البحث عن معنى لاسم " جالولاء " في العراق عند الطبري، اذ اعاد الى جذري " جلَل " و "مجال " اللتان تعنيان " غطى " و " مكان "

على التوالي، مما جعله يستنتج ان المسلمين _ " بعون الله " – قد غطوا المكان بالجثث التي تراكمت بعضها فوق البعض الآخر .

رابعا : تنظيم المواد (systematization)، فقد حاول المؤرخون المسلمون تنظيم الروايات والاخبار، ولهذه العملية ثلاثة وجوه .

أ – تجميع روايات عن احداث مختلفة في وحدة منظمة مما يجعلها تفقد خصوصيتها التاريخية وبعدها الزمني .

ب – استعمال الصيغة نفسها للتعبير عن حدث مختلف كليا لإضفاء التطابق والموازات (parallelism) بين الموضوعات التاريخية .

ج – اضفاء صيغ وانماط على الروايات والتقارير التي لها خصوصية مميزة .

ويعتقد نوت ان هذه العوامل الثلاثة [" أ " و " ب " و " ج "] يتداخل بعضها مع البعض الآخر في كثير من الاحيان .مثال علىذلك الرسائل التي نسبها الرواة الى الخلفاء لإضفاء السلطةالمركزية عليهم ، وتصويرهم بأنهم يضعون الخطة العامة للأحداث التاريخية، كتقسيم ابي بكر – الخليفة الاول – لسوريا الى قطاعات وهي ما زالت تحت الحكم البيزنطي، وقبل أن ينطلق القادة المسلمون لفتحها. ولا حاجة للقول ان ذاك التقسيم لا بد حصل بعد السيطرة على سوريا فعليا في وقت لاحق، وان مفهوم حكم الخلافة كسلطة مركزية يعتبر مفارقة تاريخية(anachronism)، وقد حاول معظم الرواة تصوير الخليفة بانه يدير مملكة مترامية الاطراف من مقعد الخلافة في المدينة . مثال علىذلك رسالة ابي بكر الى خالد بن الوليد – قائد الجيش في معركة اليرموك – يأمره بالزحف على العراق، واخرى من الخليفة عمر الى سعد بن ابي وقاص، حاكم الكوفة وقتئذ. كذلك المراسلات بين الخليفة عمر وعمرو بن العاص –حاكم مصر– التي تصور الأخير بانه غير قادر على التصرف دون الرجوع الى المدينة، مركز الخلافة.[٢٨]

لذلك يبدو مما سلف ان التخطيط والتنظيم كانا يطغيان على الوصف الهادف للأحداث الفعلية. فنجد الأنماط تغلب على كثير من الروايات كتلك التي تتحدث عن معارك اليرموك والقادسية ونهاوند، والتي تبدو كسلسلة حكايات نسجت مع بعضها. كما نجد ايضا الانماط تغلب على الروايات التي تتحدث عن عودة المصريين أعداء الخليفة

عثمان الى المدينة واسباب تآمرهم لاغتياله، وهي تبدو"حدوتة " تتكلم عن اكتشافهم لرسالة موتورة. وكل هذا يغطي الاسباب الفعلية للتآمر والتمرد وتتدرج ضمن هذا النمط الحكاية المشهورة التي تتحدث عن عبورخالد بن الوليد الصحراء [وعقره النوق للحصول على الماء. وهذا يتعارض فعليا مع طبيعة الجمل الفيزيولوجية والبيولوجية.][٢٩]

خامسا : الروايات الناقصة، اذ يعتقد نوت ان التراث الاسلامي يتضمن روايات غير مكتملة جمعها الرواة. ويرى نوت ان هذه الروايات الناقصة لايمكن الاستفادة منها لانها مبتورة ومستقاة من اخبار تمثل احداثا كبيرة. وهي غالبا ما نجدها ضمن روايات الفتوح، مع العلم انه لا يوجد بينها عوامل مشتركة سوى نقصانها.[٣٠]

ويلحظ نوت في دراسته ظاهرة ربما تناولها غيره من المؤرخين باقتضاب، خاصة جوزف شاخت ،[٣١] وهي ما سُمي باسلمة التاريخ (Islamization of history). اذ يرى نوت ان المؤرخين الاوائل حاولوا اضفاء طابع اسلامي على الاخبار التي نقلوها، خاصة الفتوحات الاولى للمسلمين. ولحظ نوت في هذا الاطار رواية عن معركة اجنادين تتحدث عن قائد بيزنطي ارسل جاسوسا لاستكشاف مخيم المسلمين فافاده بأنهم "رهبان في الليل فرسان في النهار "، مما جعله ييأس من النصر. كما تتكرر هذه الرواية في سياق آخر . كذلك الروايات التي تتحدث عن معركة القادسية تفيد ان المسلمين كانوا يدعون الفرس الىاعتناق الاسلام. اما النعمان بن مقرّن فقد الح بشدة لنقله من جباية الضرائب الى صفوف المقاتلين ضد الكفار. وهذه الرغبة هي وحدها (كما يقول نوت نقلا عن الطبري) كانت سبب ترقيته الى منصب قائد المسلمين في معركة نهاوند. مثل ذلك جحافل المسلمين في مصر، فقد اصرت المصادر على أنهم شغلوا انفسهم بتبشير ودعوة سجنائهم المسيحيين لذلك فان الروايات التي صبغت بالدعوة لا تعتبر مصدرا اصيلا لمعرفة سلوك الفاتحين المسلمين الاوائل، خاصة انها لا تعطي تفاصيل عن ذلك. وبهذا لا يقصد نوت ان يقول ان الدعوة لم تنتشر بين غير المسلمين وقتئذ، بل ما يعنيه انه اذا اردنا معرفة معلومات اكثر واقعية علينا النظر الىعدة مصادر [اسلامية و غير اسلامية] اذ لا يظن نوت ان الاسلام كان في عهد النبوة دينا متطورا كما عرفه المتأخرون، لكنه يؤكد انه لا بد كان ذا هوية تاريخية

مستقلة ربما رغبت الآخرين في اعتناقه وقتئذ، وان جذور الدعوة لا شك كانت موجودة في ذلك العهد. لكن الروايات التي وصلتنا عن هذا الموضوع تبدو سطحية، وكأنها معالجات للنص قام بها رواة متأخرون لاعطاء التراث هذه الصبغة الدعاوية لجعل النبي مثالا يحتذى به من قبل الفاتحين المتأخرين. ويعتقد نوت ان المسلمين في عهد النبوة واجهوا خصوما يختلفون عن الذين واجهوهم في العصور المتأخرة، اذ ان المسلمين الاوائل واجهوا مجتمعات قبلية بسيطة سهلة الاندماج في دين جديد. على عكس المتأخرين الذين واجهوا مجتمعات لها مؤسسات راسخة ومتجذرة لقرون خلت، كالنسطوريين في العراق والأقباط في مصر والفرس والبيزنطيين. لذلك فان التخلي عن هذه الاديان من اول يوم يرون فيه المسلمين [كما يصوره التراث الاسلامي] لا بد كان صعبا جدا، لما يعنيه من ترك عادات وتقاليد متأصلة في الحياة اليومية، ولا شك انه كان من المنطقي الاقرار بسلطة الفاتحين ودفع جزية قد تعادل الضرائب التي كانوا يدفعونها للحكام السابقين. اما هؤلاء الحكام انفسهم [الغير المسلمين] فلا بد انه لم يكن امامهم سوى القتال للدفاع عن دولتهم.[٣٢]

لا شك ان نوت في عمله هذا قد ساهم بتقديم دراسة مفيدة جدا لكل باحث في علم التأريخ الاسلامي. ولعل من ابرز اسهاماته التي تناولها بالتفصيل في هذا العمل مفاهيم التخطيط (schematization) والتنظيم (systematization) واسلمة التاريخ (Islamization of history)، وهذا يتيح للباحث النظر الىالروايات من زاوية جديدة. كما قام بحصر الانماط التي تتكرر في التراث الاسلامي وتنظيمها بشكل مفيد للباحث في هذا المجال. ولكن علىالمؤرخ دائما توخي الحذر وعدم التعميم (generalization) والمبالغة باستعمال هذه الانماط والمفاهيم لتقييم الروايات التي قد تطمس بدورها بعض الوقائع التاريخية. مثال على ذلك نمط تحدث عنه نوت هو التكبير قبل الهجوم في المعركة واستبعد حصوله في الواقع،[٣٣] ثم اكتشفت بعد ذلك باتريشيا كرونه وجوده في مصدر سرياني معاصر للفتوحات، فأكدت [برأيها] انه يعبر عن وقائع تاريخية، على الرغم من القالب المثير الذي يتصف به هذا النمط وتكراره في المصادر الاسلامية .[٣٤]

ان الانقياد وراء هذه النماذج التي تحدث عنها نوت دون حذر قد يؤدي – بدل التخلص من العناصر الاسطورية التي نتجنبها – الى ميثولوجيا فكرية تفسد نظرتنا

الموضوعية الى الوقائع التاريخية برمتها. وهذه الميثولوجيا تتكون عندما ينطلق أي مؤرخ من توقعاته وافتراضاته بان كل كاتب او راو او ناقل كلاسيكي وتقليدي (في التاريخ اوالافكار السياسية) ينطق بشيئ من عقيدته في كل موضوع من موضوعاته. لذلك من الخطأ ان نخضع لتأثير نموذج كهذا ونتوقع وجوده في مختلف الموضوعات، فتكون النتيجة نوعا من الخطاب الذي يمكن ان يوصف بميثولوجيا العقائد، التي تتخذ اشكالا مختلفة، اولها يتم بتحويل بعض الملاحظات المبعثرة والعرضية لكاتب كلاسيكي الى مفهوم محدد، او ربما عقيدة لتنطبق على واحد من موضوعاته. وثانيها ان يصنف الباحث النصوص ضمن نماذج معينة ليفهمها، مما يجعله يصنف غير المألوف مع المألوف ليفهمه. وهنا ربما يكمن الخطأ، اذ يحاول توسيع فهمه للتاريخ فيضع الكلام في فم النص ويعطيه المعنى الذي يتوقعه مع انه لا يعبر في خصوصيته عن المعنى العام. وقد ينتج عن هذا مزايا تاريخية لا تعكس الواقع او فهم لمعنى لم يرد الكاتب نقله ولا يحتمله النص، فيقرأ هذا المعنى بين السطور ويقول ان الراوي ربما لم يرد الافصاح عنه. وقد ينتج عن هذا معلومات مغلوطة عن تطور مفهوم او فكرة تاريخية معينة قد تؤدي الى مفارقات تاريخية لا معنى لها.(٣٥)

ولعله من الخطأ ان يظن المؤرخ ان واجبه يقتصر فقط على العثور على ترابط منطقي تفتقده النصوص. اذ ان التركيز على فكرة واحدة – كوحدة للبحث التاريخي – قد يؤدي الى ارتباك المفاهيم(conceptual confusion)، اذ لا وجود لمفهوم واحد يمكن ان يشرح جميع الجوانب في أي بحث تاريخي. ولنخرج من هكذا ارباك يمكننا ان نقول : ليس هناك اسئلة ابدية في فلسفة التاريخ، بل هناك اجوبة معينة لأسئلة معينة، كما ان عدد الاسئلة هو بعدد السائلين.(٣٦)

لذلك فان النصوص التراثية، خاصة في الفكر السياسي والاجتماعي والاخلاقي قد تساعدنا على كشف المبادئ الاخلاقية والالتزامات السياسية المهمة المختلفة – لا المتماثلة – ان تركناها . تعبر عن نفسها، وحاولنا فهم العالم الفكري للكاتب ومعتقداته التجريبية المستمدة من واقعه.(٣٧)

٣ - خصائص التراث الاسلامي والقصص الديني والاسطوري

في هذا المجال، اعتقد ان التراث الاسلامي له خصائص مميزة، خاصة ما كتب عن الفترة التي تمتد من عشية ظهور الاسلام حتى وفاة علي بن ابي طالب الخليفة الرابع للنبي محمد. وأعزو برأيي هذه الخصوصية المميزة لعوامل عديدة، ثلاثة منها رئيسة : اولا، انها الحقبة التي عاش فيها مؤسس الدين الاسلامي وخلفاؤه " الراشدون " الذين اعتبر سلوكهم نبراسا للأمة من بعدهم. ثانيا، تحول الصراع علىالسلطة في نهاية هذه الفترة من سياسي الى عقائدي . ثالثا، عدم وجود حدود واضحة بين الامور الدينية والزمنية في الاسلام الذي يعكسه هذه التراث، مما يجعل الروايات التي تتناول الامور السياسية والاجتماعية تكتسب بعدا دينيا في معظم الاحيان. لذلك علىالباحث معاملة معظم النصوص بطريقة تختلف عن غيرها من النصوص التاريخية- في مصادر اخرى غير اسلامية - او القصص الاسطورية والادبية. كما ان القصص الديني عامة يخلق تاثيرات حسية مفعمة بالحياة ويركز على الظواهر الاخلاقية والنفسية التي تتجسد في الحياة الملموسة، كما ان مغزاه الديني يستعمل كشاهد على " الحقيقة التاريخية المطلقة ".

ولعل القصة الدينية تشترك مع الاسطورة في عدة عوامل، لكن الفرق بينهما يكمن في اعتقاد الراوي بالحقيقة الموضوعية للقصة الدينية، لان كيان التعاليم " القدسية " يعتمد على هذه الحقيقة. ليس هذا فحسب بل ان عليه ان يؤمن بها بكل جوارحه اويكون كاذبا متعمدا، يكذب من اجل هدف سياسي او من اجل الاستئثار بالسلطة او المرجعية المطلقة (دينية كانت او زمنية). وهذا غير معقول اذا اخذنا العوامل النفسية للراوي بعين الاعتبار، بل يمكن ان نقول ان الراوي قد كتب ما تمليه عليه معتقداته التقليدية التي لم تترك له حيزا كبيرا من حرية الابداع والخيال التمثيلي فيكون عمله مجتزءا وأداؤه منصبا على خلق رواية تعكس الايمان التقليدي. ويكون بذلك نتاجه نحو الحقيقة (التي يعتقدها) في المكان الاول، لا نحوالواقعية. والويل والثبور بعد ذلك لمن لا يصدقها. وقد يجرؤ المرء على الشك في الرواية الاسطورية كقصص هوميروس في الاوديسة مثلا ولكنه لا يجرؤ(كمؤمن تقليدي) على التشكيك في الرواية الدينية لأن ادعاءها للحقيقة مطلق ويلغي ما عداها. لذلك فان الروايات الدينية لا تكتفي بالادعاء

بانها وقائع تاريخية حقيقة، بل تصر على انها العالم الواقعي الوحيد الذي يقوم بذاته، مما يلزم كل القضايا الاخرى والمشاهد والصور التاريخية، حتى تاريخ الانسانية برمته، بالظهور ضمن اطارها وحده. اذا ان هذه الروايات " المقدسة " لا تعمل على تسليتنا والترفيه عنا بل تعمل على اخضاعنا (لسلطتها) واذا رفضنا تسمنا بالردة.[٣٨]

انا لا اعني بهذا ان القصص والروايات بذاتها تدعي السلطة والمرجعية المطلقة بل التعاليم الدينية الكامنة وراءها. لان هذه الروايات ليست كقصص هوميروس التي تعبر ربما عن جزء من الواقع، بل ان التعاليم الدينية والوعود(بالهداية اوالسعادة الابدية او الخلاص وغيره) تتجسد في قصصها ولا تنفصل عنها. لهذا السبب تكون مشحونة بهذه الخلفية ويكتنفها الغموض (في كثير من الاحيان) الذي يتضمن معنى ثانيا خفيا. لذلك فان العقيدة والبحث عن الهداية لا ينفصلان عن الجانب الحسي للرواية. كما ان هذا الجانب الحسي هو اقوى من الواقع البسيط المعروف ويبقى معرضا لاحتمال فقدان اتصاله بالواقع اكثر فاكثر، خاصة انه عندما يدخل عامل التأويل اوالتفسير يتلاشى عامل الواقعية من الرواية.

ويبدو ان هذا العامل لا يمكن تلافيه لان نص الرواية الدينية بحاجة ماسة الىالتأويل او التفسير بسبب مضمونه (الديني)، كما ان ادعاءه للمرجعية المطلقة يدفعه في هذا الاتجاه. على عكس نص القصص الادبي اوالاسطوري الذي يهدف الى تسليتنا، ربما لنسيان واقعنا لبعض الوقت، فان القصص الديني يهدف الىتخطي واقعنا ليجعلنا نطابق حياتنا على عالمه ولنشعر اننا اجزاء من هيكلية تاريخه العالمي، وان كل ما يحصل في العالم يمكن فهمه ضمن هذا السياق كجزء من المخطط الإلهي. لذلك يمكن ان يفسر تاريخ أي جزء من العالم ضمن هذا السياق المحدد ويصبح نهجا عاما لفهم الواقع. لكن هذه العملية دائما تتفاعل مع هذا الاطار الذي يحتاج الىتوسيع وتعديل ليستوعب الاحداث التي تستجد في الواقع. ونعني بهذا ان اي جزء من الروايات لا يتطابق مع المفهوم العام يقوم عامل التأويل بتعديله ليتناسب مع المنظور التاريخي - الديني الشامل.[٣٩] اما شخصيات القصص الديني فانها تقولب وفقا للمفهوم العام للعقيدة، فلا يفاجأ القارئ اذا رأى شخصية تتطور الى منحى لم يتوقعه من قبل ولم تظهره المعطيات في المراحل السابقة، فيجدهم في مرحلة الشيخوخة مثلا اشخاصا مختلفين كليا

عنهم في مرحلة الشباب. بل ان خلق الامور من اضدادها؛ كالمجد من الذل والغنى من الفقر والقوة من الضعف في هذه الشخصيات ما هي الا دلائل على عظمة الخالق وحكمته، وتعطي القارئ انطباعا بان هذه الشخصيات " التاريخية" هي نتاج لكيان غني ومتطور مع انها قد تكون شخصيات اسطورية او تقليدية.[٤٠]

لا شك ان الفرق بين التاريخ والاسطورة (في القصص الديني) يستطيع الباحث اليقظ ان يلمسه في معظم الحالات. فالأسطورة تظهر نفسها من خلال عناصرها العجائبية وتكرار دوافع اعتيادية تقليدية وانماط ومغاز نموذجية وتجاهل تفاصيل المكان والزمان بوضوح، وهي تنساب عادة بسلاسة فائقة. كما ان الأسطورة تنظم موضوعاتها بطريقة بسيطة مستقيمة وتفصلها عن البيئة التاريخية المعاصرة لها للتخلص من أي ارباك قد يسببه الواقع التاريخي لشخصياتها التي تتصرف وفقا لدوافع محددة بسيطة، تتحلى بمشاعر وتصرفات متلازمة ومستمرة. اما الظاهرة التاريخية، فهي تشكل عددا كبيرا من الدوافع المتناقضة في كل شخصية، بالإضافة الى التردد والتحركات التي يمكن ان يكون لها اكثر من تفسير واحد. وقليلة هي الحالات التاريخية التي يمكن ان يشرحها الباحث ببساطة وسهولة. بل ان العناصر التاريخية تعطي انطباعا ملموسا يتميز بالإرباك و التناقض والتعددية في الاحداث، بالإضافة الى الدوافع النفسية العديدة والاهداف الواقعية. لذلك يضطر المؤرخ الكلاسيكي – في كثير من الاحيان – الى الانحدار الى مستوى الأسطورة ليستطيع كتابة شيئ اكثر جاذبية للقارئ في حبكته وأسلوبه ومغزاه، ويجعله من " التاريخ ". لذلك فان عناصر الاسطورة، في الروايات التي بين ايدينا،غالبا ما تتخلل الوقائع التاريخية بخفاء، فتعمل على شرح وتصنيف التاريخ الانساني بعاطفة جياشة ظاهرة، مما يقضي على الهيكلية التاريخية الموضوعية لتحل محلها التنبؤات (مثلا). كما تنعدم صور الاحداث اليومية الواقعية التي قد تتناقض مع سياق الاعمال الاسطورية والمبادئ السامية، وتقل عناصر التطور التاريخي والمنظور النفسي للأمور.[٤١]

وفي هذا البحث سأحاول استخراج العناصر الأسطورية من الروايات التراثية لعلي انجح في رسم صورة تاريخية للحقبة والشخصية التي يتناولها هذا البحث.
وسأعتمد في هذا على رأيي الشخصي في الحكم على الروايات التي قد أرى انها تأثرت

بالظروف السياسية والدينية والاجتماعية الضاغطة في تلك الحقبة الحاسمة من تاريخ الاسلام. ولن اتردد في استعمال او تطبيق بعض الاساليب التي جاء بها بعض المؤرخين الغربيين في نقد الرواية التاريخية، خاصة نوت وكرونه وغيرهما. مع التأكيد على أن هذه الأساليب والتقنيات ليست كلها صائبة او خاطئة. كما يجب ان ناخذ بعين الاعتبار أمرين: اولا، ان ابا سفيان ابن حرب هو والد معاوية، لذلك فان صورته يجب تصفيتها من خلال حُجُب شيعية وعباسية واموية ايضا. ثانيا: لا بد من نظرة سريعة شاملة على الاوضاع العامة في مكة والحجاز عشية ظهورالاسلام، لفهم الظروف التي عاش فيها ابوسفيان .

الفصل الثاني

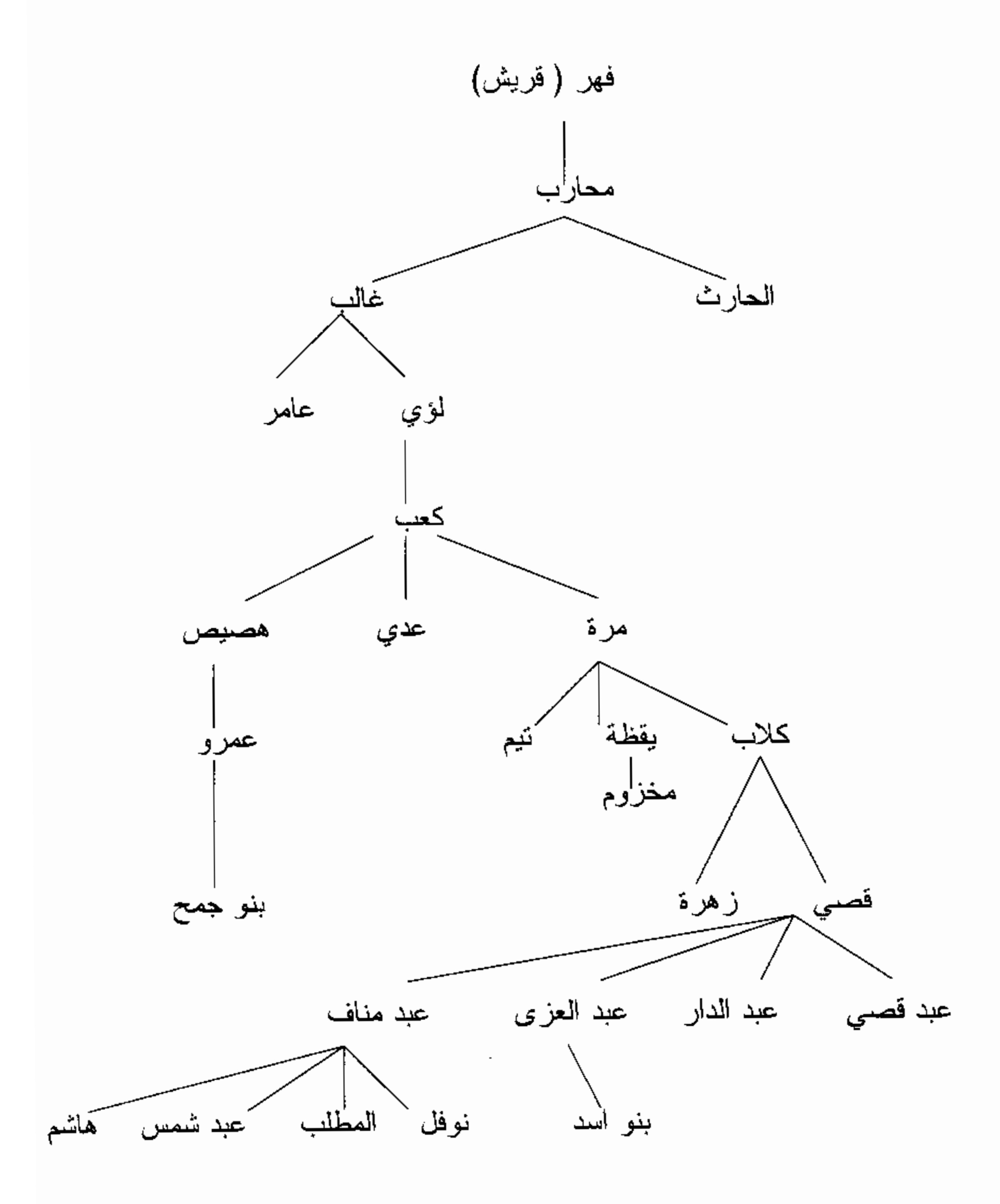
مكة عشية ظهور الاسلام

١- الوضع السياسي

اعتقد انه لا يوجد بديل حقيقي عن المصادر العربية، اذا اردت كتابة تاريخ مكة عشية ظهور الاسلام، لان المصادر الاخرى تبدو ضئيلة جدا اذا ما قورنت بالمصنفات العربية . لذلك يضطر أي مؤرخ يعالج هذه الحقبة ان يتعامل مع هذه المصادر كمنطلق اساسي لجمع ما تبقى من اجزاء الصورة التاريخية. واذا اراد ان يتوخى الموضوعية ويغربل الروايات المكذوبة سيبدو كمن يسير بين الالغام .

تذكر المصادر العربية الاولية ان تاريخ قريش في مكة بدأ بقصي من كلاب، وهو الجد الرابع لأبي سفيان، الذي سيطر على مكة في القرن الخامس الميلادي وينتهي نسب قصي الى فهر الملقب بقريش ثم يرفعه النسابون الى عدنان الذي هو جد عرب الشمال.[١] ويجب ان أذكر في هذا السياق ان العرب كانوا ، كبعض الشعوب ، يفاخرون بالآباء و الأجداد بل ربما كانوا يقدسونهم. و اذا وضعت سورة " التكاثر ".[٢] في سياق تاريخي يمكن ان استدل بها على ذلك . و تروي المصادر ان قصي كان تاجرا و انه استولى على ثروة طائلة من الجلود كانت " لعظيم الحبشة ".[٣]

و مهما يكن من امر فان المصادر تفيد انه عشية ظهور الاسلام كانت كلمة قريش تطلق علىمجموعة من القبائل التي تنتسب الى فهر الذي ذكرناه سابقا. و عندما نزلت هذه القبائل مكة وسيطرت عليها اصبح اسم "قريش " يميزها عن قبائل العرب الاخرى ، و الرسم التالي يبين انسابهم و صلة بعضهم بالبعض الآخر .


فهر (قريش)
محارب
الحارث
غالب
لؤي
عامر
كعب
مرة
عدي
هصيص
كلاب
يقظة
تيم
مخزوم
عمرو
قصي
زهرة
بنو جمح
عبد قصي
عبد الدار
عبد العزى
عبد مناف
بنو اسد
نوفل
المطلب
عبد شمس
هاشم

و يبدو ان هذه العشائر كانت تعيش في مكة دون سلطة مركزية فعلية بل سلطة معنوية فاعلة يمارسها الملأ – الذين كانوا عبارة عن مجلس شيوخ يمثل هذه القبائل المختلفة – دون وجود اداة تنفيذية لردع المخالفين. و بما ان كل قبيلة كانت نظريا مستقلة وتستطيع التصرف حسب مصالحها فان القرارات التي كانت تصدر عن الملأ لم تكن ملزمة للجميع في غياب سلطة مركزية قوية. وكان سلاح المقاطعة هو الاكثر فاعلية في حال تمرد قبيلة ما على قرارات الملأ. ومثال على ذلك مقاطعة عشيرتي هاشم والمطلب في شعب من شعاب مكة عقب وفاة ابي طالب عم النبي محمد. وهذا يعني ان قوة مكة الحقيقية كانت تتمثل في قدرة مشايخها على الاتفاق سوية من اجل المصلحة المشتركة للقبائل المختلفة . [٤]

وكانت القبائل النافذة تسكن في بطاح مكة، أي في داخلها ووسطها، بينما كانت تسكن في ضواحيها القبائل الأقل اهمية وهي قريش الظواهر. ويقال ان قصي بن كلاب كان اول من تزعم قريشا من بني كعب بن لؤي ، وكان قد نشأ عند اخواله بقضاعة التي كانت تسكن على تخوم الشام ، ثم جاء في شبابه فتزوج من ابنة حليل الخزاعي الذي كان من اسياد مكة و ينتمي الى بني حارثة بن عمرو الملقب بخزاعة الذين جاؤوا من اليمن بعد انهيار سد مأرب فسكنوا مكة و سادوا فيها، وكان شيخهم عمرو بن لحى الذي يذكر ابن الكلبي انه جاء بالأصنام من الشام .[٥] اما قصي فقد تزعم مكة على ما يبدو في النصف الاول من القرن الخامس الميلادي بمساعدة اخواله من قضاعة. ويرى كيستر ان قيصر الروم ربما قد ساعد قصي في استيلائه علىمكة .[٦] بينما يعتقد مونتغمري واط ان قصي قد تلقى المساعدة من الغساسنة وحلفاء الروم الآخرين،[٧] مما يجعل النتيجة واحدة ؛ اذ يعني ان مساعدة الروم كانت غير مباشرة. وهذا غير مستغرب اذا سلمنا ان طرق التجارة البرية كانت ناشطة وان محطاتها كانت تهم الروم. لكننا يجب ان نستبعد هذا الأمر ان صحت رواية الازرقي بان تجار البيزنطيين كانوا يدفعون اتاوة لدخولهم مكة.[٨] مما قد يعني انهم لم يساعدوا قصي في السيطرة على مكة، وانه لا فضل لهم في ذلك ، ولو بطريق غير مباشرة .

كما تقول المصادر الاسلامية ان قصيا قد انجب، اربعة ابناء هم عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى وعبد قصي. وكان عبد مناف وعبد العزى وعبد قصي تجارا

قديرين. اما عبد الدار – اكبرهم – فكان يقوم بالحجابة والسقاية والرفادة وغيرها من وظائف الاشراف في مكة. وورث عبد الدار هذه الوظائف ابناءه فقام بنو عبد مناف – اولاد عمهم ينازعونهم عليها واحتدم الصراع بين العشيرتين مما أدى الى تحالف كل فريق مع عشائر قرشية اخرى، مما جعل قريش تنقسم الى فريقين: بني عبد مناف، وقد حالفهم بنو اسد وبنو زهرة وبنو تيم وبنو الحارث من ناحية ، و بني عبد الدار، يحالفهم بنو مخزوم و بنوجمح و بنو عدي من ناحية اخرى ، بينما بقي بنو عامر وبنو محارب على الحياد. و سميت الكتلة الاولى بالمطيبيين لانهم غمسوا ايديهم في جفنة من الطيب عند عقد الحلف بينهم، بينما سميت الثانية بلعقة الدم لانهم غمسوا ايديهم في الدم، ويطلق عليهم اسم الاحلاف. لكن الفريقين مالا في النهاية الىالمصالحة فتقاسما الوظائف بينهما : الحجابة واللواء والندوة لبني عبدالدار، و السقاية والرفادة لبني عبد مناف .[٩]

لكن هذه التحالفات القبلية لم تكن لتدوم طويلا، كما لم تكن لتلغي اسباب النزاع بين ابناء العم حتى في الحلف الواحد وسرعان ما اشتد الصراع بين بني عبد مناف بعضهم مع بعض الآخر وانقسموا الى فريقين: بني امية من ناحية وبني هاشم من ناحية اخرى. وقد ذكرت ان عبد مناف ترك اربعة ابناء هم هاشم والمطلب ونوفل وعبد شمس. وبعد ان حصل شجار بين نوفل وابن اخيه عبد المطلب بن هاشم من اجل قطعة ارض استنجد الاخير باخواله بني النجار في يثرب بعد ان خذله قومه، وكانت زوجته منهم، فهبوا لنجدته وقدموا الى مكة وساعدوه على استعادة حقه من عمه نوفل مما دفع الاخير الى ان يستغيث ببني عبد شمس ضد بني هاشم. ثم انضمت خزاعة الى هاشم في حلف سنرى اثره لاحقا في النزاع الذي دار بين النبي محمد واسياد قريش، اذ تحالفت خزاعة مع النبي ضد قريش، كما سأذكر لاحقا .[١٠]

وفي هذا الاطار حصلت منافرة[١١] بين هاشم – الذي كانت اليه الرفادة والسقاية– و امية بن عبد شمس. وادعى كل منهما انه اعز نفرا وارفع مكانة وتراهنا على خمسين ناقة تنحر بمكة يؤديها المنهزم ويترك البلدة عشر سنين، واحتكما في منافرتهما الى كاهن خزاعة فكان النصر لهاشم فأخذ الابل من امية ونحرها واطعم

الناس، بينما ترك امية مكة وذهب الىالشام ومكث فيها عشر سنين، فكانت هذه اول عداوة بين بني هاشم.

ثم تبع هذه الحادثة منافرة بين حرب بن امية (والد ابي سفيان) وعبد المطلب بن هاشم (جد النبي محمد)، فاحتكما الى نفيل بن عبد العزى فكان الحكم لصالح عبد المطلب .(١٢)

وفي مناسبة اخرى جاء احد التجار اليمنيين من بني زبيد ببضاعة الى مكة فاشتراها منه العاصي بن وائل سيد بني سهم، فلم يدفع له ثمن البضاعة وماطله كثيرا ، فذهب التاجر اليمني الى دار الندوة وعرض ظلامته على مشايخ قريش، فوقف الى جانبه بنو هاشم وبنو المطلب وبنوزهرة وبنو تيم وبنو الحارث الذين عقدوا اثر ذلك حلفا بينهم في دار عبد الله بن جدعان واتفقوا على رد المظالم بمكة وان لا يظلم احد الا منعوه، واخذوا للتاجر اليمني حقه. وسمت قريش هذا الحلف حلف الفضول . (١٣)

من جهة ثانية يذكر ابن الاثير ان سبب النزاع بين عبد المطلب بن هاشم وحرب ابن امية كان بسبب جار عبد المطلب اليهودي الذي كان تاجرا وله مال كثير ، فاغتاظ حرب وارسل من قتله و اخذ ماله. وعندما تحرى عبد المطلب عن القتلة وعرفهم استجاروا بحرب بن امية ، فجاءه عبد المطلب يريدهم فأخفاهم حرب فحصلت مشادة كلامية بينهما وتنافرا الى نفيل بن عبد العزى ففاز عبد المطلب، وأخذ مائة ناقة من حرب وأعطاها لابن عم اليهودي .(١٤)

ويبدو ان هذه الروايات التي تعود بنا الى ازمنة غابرة ؛ الى اجيال عاشت قبل الاسلام، كان يتناقلها العرب شفهيا على غرار الشعوب البدائية التي تحفظ ملاحمها في الذاكرة الشعبية . لكن اللافت في هذه الروايات ان بني هاشم كان يكتب لهم الفوز في أية منافرة تحصل بينهم وبين بني امية، و لعل هذا راجع الى تحيز المؤرخين المتأخرين في العصر العباسي لاجداد النبي و بني العباس.

كمل يبدو ان بني عبد شمس كانوا قد تمكنوا بعد منتصف القرن السادس الميلادي من منافسة بني هاشم على التجارة والتفوق عليهم وجمع ثروة طائلة مكنتهم من السيطرة على قيادة مكة .(١٥) وعند ظهور الاسلام لم يكن ولد عبد المطلب من رجال مكة الاغنياء اذ كانوا يقومون غالبا باعمال السقاية والرفادة التي ورثوها عن عبد

المطلب، فاصبحوا من اواسط تجار مكة ، يقومون بخدمة الحجاج و مقايضتهم وغيرها من الاعمال التجارية المحدودة. واذا راجعت الاخبار التي وردت عن اعمالهم التجارية تجد انهم لم يوفقوا كثيرا فهاشم مات باكرا في غزة، فأخذ بنو عبد شمس بعده تجارة الشام . وعبد الله بن عبد المطلب والد النبي توفي شابا ولم يخلف شيئا يذكر. وابو طالب عم النبي وزعيم عشيرته كان فقيرا كثير العيال، مما جعل النبي يأخذ منه عليا، بينما اخذ العباس جعفر ليخففوا عنه الانفاق .(١٦)

لذلك يبدو ان هذه الحالة المادية الصعبة التي كان يعيشها بنو عبد المطلب اثرت على موقعهم في مكة وتحالفاتهم مع القبائل الاخرى، كحلف الفضول الذي يظهر انه امتداد لحلف المطيبين الذي لم يبق خارجه سوى بني عبد شمس وبني نوفل بسبب الصراع الذي كان مستمرا بين بني عبد شمس وبني هاشم. وكانت هذه التحالفات غالبا ما تظهر في الصراع بين النبي محمد وقريش، ثم تغيب ردحا من الزمن لتعود وتظهر في مفاصل تاريخية مهمة كالصراع بين الامويين والعلويين وفي كل قضية يتنازع عليها بنو هاشم وبنو عبد شمس. وفي هذا السياق نذكر ما رواه ابن اسحاق عن موقف من مواقف الحسين بن علي يذكر فيه حلف الفضول ويدل على عمق الخلاف بين الفريقين:

" كان بين الحسين بن علي بن ابي طالب رضي الله عنهم، وبين الوليد بن عتبة ابن ابي سفيان–والوليد يومئذ امير على المدينة امرَه عليها عمه معاوية بن ابي سفيان – منازعة في مال كان بينهما بذي المروة (قرية بوادي القرى). فكأن الوليد تحامل على الحسين رضي الله عنه في حقه لسلطانه، فقال له الحسين : أحلف بالله لتنصفني من حقي او آخذن سيفي، ثم لأقومن في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم لأدعون بحلف الفضول، فقال: عبد الله بن الزبير، وكان عند الوليد حين قال الحسين ما قال : وانا احلف بالله لئن دعا به لآخذن سيفي، ثم لأقومن معه حتى ينصف من حقه او نموت جميعا ، قال : فبلغت الموسر بن مخرمة بن نوفل الزهري، فقال مثل ذلك، وبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي فقال مثل ذلك، فلما بلغ ذلك الوليد بن عتبة أنصف الحسين من حقه حتى رضي ."(١٧)

أضف الى ما سبق ما قاله معاوية بن ابي سفيان لابنه يزيد، بعد ان قرأ رسالة بعثها اليه الحسين بن علي، و هو يدل على الحزازات التي كانت في صدورهم :" انها ألسنة بني هاشم الحادة التي تقطع الصخر وتغرف الماء من البحر ."[١٨]

٢- الوضع الاقتصادي

يختلف الباحثون في اسباب ازدهار مكة في القرن السادس الميلادي.منهم من يعزو ذلك الى وجود الحرم الآمن فيها ويعتبره العامل الاهم، ومنهم من لا يعتبره عاملا رئيسيا ويضيف عوامل اخرى سياسية واقتصادية وجغرافية. ولعل النظرة التي اصبحت تقليدية هي ما كتبه هنري لامنس ومونتغمري واط عن هذا الموضوع، وقد تقبلا معظم الروايات التي تذكرها المصادر الاسلامية، بعد تصفية الامور العجائبية من بعضها. وقد لاقت هذه النظرة رواجا عند الكثير من المؤرخين. ويعتقد لامنس وواط ان مكة عشية ظهور الاسلام كانت مدينة تجارية تقع في واد غير ذي زرع . ويعود نموها كمركز تجاري لوجود الكعبة فيها والتي كان يعتبرها العرب حرما آمنا يأتون اليه لتبادل السلع من كل حدب وصوب باطمئنان، بالإضافة الى وقوعها على طريق التجارة بين الشام واليمن والعراق والحبشة.[١٩] ويعتقد لامنس ان المكيين كانوا في بادئ الأمر يقومون بدور الوسيط بين مصادر السلع التجارية والاسواق المختلفة ثم اصبحوا في نهاية القرن السادس الميلادي يأخذون على عاتقهم الاستيراد وتنظيم القوافل التجارية فسيطروا على الطريق التجاري بين اليمن والشام، الذي كان مهما جدا لجلب السلع النفيسة من توابل وبهارات وعطورات من الهند. وكانت قوافلهم تصل الى غزة وبصرى وحمص، فتصل بهذه الطريقة الشرق بالغرب. كما يعتقد لامنس ان قريش كانت تُسير قوافل رسمية يمولها المجتمع المكي و" نقاباته المصرفية "[٢٠] التي كانت تقرر بعد مفاوضات ومباحثات طويلة تدور في النادي الذي كان يُعقد حول الكعبة. وكان رحيل هذه القوافل او وصولها يعتبر حدثا شعبيا يشارك فيه السكان و يخرجون للقائه وهم يقرعون الطبول وعلى الطريق كانت القوافل تبقى على اتصال دائم مع مكة من خلال المراسلين الخاصين والوسطاء من البدو الذين كانوا ينقلون التقارير عن المراحل اليومية للرحلة. وفي طريق العودة كان المراسلون و السعاة يسبقون القافلة ليبشروا بوصولها. وكان للمكيين وكلاء في البلدان يبيعون لهم ويشترون كما كانت كل عشيرة في مكة مختصة

بسوق محدد في البلدان التي ذكرناها. لكن القرشيين لم يكونوا يملكون سفنا لنقل بضائعهم الى المرافئ الافريقية او لنقل ما يشترونه منها لتسويقه في الشام والعراق ، بل كانوا يستأجرون سفنا حبشية لانجاز اعمالهم.[٢١]

وجذب هذا الازدهار التجاري الى مكة تجارا من امصار مختلفة فسكنوا فيها وتحالفوا مع اسيادها واقاموا مستودعات فيها لتخزين بضائعهم. ويظن لامنس ان مكة تطورت اقتصاديا لتصبح مركزا ماليا وليس فقط تجاريا. ويعطي تفاصيل كثيرة عن العمليات المالية المعقدة التي كانت تجري في مكة من مضاربات وتوظيف للأموال في بلدان مختلفة. ويقول انهم اقاموا لهذا الغرض شبكة مالية واسعة لم تشمل فقط اثرياء قريش بل وصلت الى شيوخ القبائل الاخرى في مضارب البدو . ويعتقد لامنس ان تاريخ مكة قبل الاسلام يشبه الىحد بعيد تاريخ قرطاجة والبندقية و" الجمهوريات او الدويلات التجارية الاخرى "[٢٢] – على حد تعبيره، ويقول ان زعماء الفرس والبيزنطيين لا بد كانوا على علاقة طيبة بامراء التجارة والمال في ذلك الزمن كأبي سفيان بن حرب وعبد الله بن جدعان الذين كان يمتد نفوذهم الى الصعاليك والخلعاء في الصحراء الذين كانوا " قراصنة بحر الرمال ".[٢٣] و بدون هذه التحالفات لم يكن الفرس والبيزنطيون قادرين على تأمين طرق التجارة. لذلك من اجل تنسيق هذه العلاقات المعقدة كانت السلطات البيزنطية والفارسية تعيَن ممثلين لها على تخوم دولها او في أقرب بلدة لحدودها في الجزيرة العربية، كممثل الدولة البيزنطية في تبوك .[٢٤]

ويعتقد لامنس وواط ان ازدهار هذا الكيان المكي وعلاقات القرشيين بالخارج قد صحبه وعي سياسي لما يجري من حولهم من احداث دولية، لان مايجري في البلدان المجاورة كان له علاقة وثيقة بتجارتهم وعملياتهم المالية، لذلك حاولوا جهدهم اقامة علاقات جيدة مع حكام هذه البلدان، خاصة الشام واليمن، فكانوا يتوددون اليهم بمختلف الوسائل ليحظوا بعطفهم دون سائر العرب، ليتمكنوا بالنتيجة من التحكم في شؤون القبائل من حولهم. اما على الصعيد الداخلي (أي الحجاز والمناطق المجاورة)،فان طبيعة التجارة كانت تفرض على المكيين الابتعاد عن المنازعات والحروب وحل المشكلات بالحلم والتفاوض. وقد ساعدها على ذلك كثيرا وجود الكعبة التي كانت تعتبر

وما حولها حرما آمنا يقدسه العرب.[٢٥] وقد أدت هذه السياسة الحكيمة الى زعامة قريش على قبائل الحجاز والقسم الغربي من شبه الجزيرة.[٢٦]

بالرغم من ان نظرية لامنس وواط ومن تأثر بهما من المؤرخين تبدو متكاملة الا انها تزخر بالمبالغات والاستنتاجات التي لا تقترن بادلة كافية. وقد صوروا بهذا مكة وكأنها امبرطورية تجارية يمكن ان تقارن بالدول الحديثة، خاصة لامنس الذي كان يستعمل في تحاليله واستنتاجاته عبارات ذات مدلولات حديثة مثل كلمة " نقابة مصرفية" و"مضاربات مالية " و" جمهورية تجارية " ..... الخ. بالإضافة الى ذلك فاننا نلمس في كتاباته مسحة، يمكن ان نسميها رومنطيقية، يضفيها لامنس على اولئك القوم الذين عاشوا في تلك العصور الغابرة وسلكوا طرق التجارة في العالم القديم، حاملين اللبان والتوابل والافاوية والحرير وغيرها من البضائع التي تعطي الشرق اجواء سحرية في مخيلة الغربيين.و اعتقد ان واط كان اكثر موضوعية من لامنس في كثير من الامور، كما تجنب استعمال التعابير ذات المدلولات الحديثة، الا انه اخذ الكثير من الامور التي ذكرها لامنس على ظاهرها، كما انه تقبل بعض الروايات التقليدية على علاتها وبنى الاستنتاجات عليها، مثال على ذلك قصة ابناء عبد مناف الاربعة الذين اختص كل واحد منهم في تجارته ببلد محدد. لا ننكر ان لامنس وواط قاما بجهود مضنية لجمع اجزاء الصورة التاريخية لنشوء مكة وازدهار التجارة فيها. لكنهما ساعدا على انتشار النظرة التقليدية لتاريخ مكة التجاري ودخلت الانماط التي استعملوها في شرح نظريتهم صلب مفهومنا لتاريخ تلك الحقبة .

وقد أدرك بعض الباحثين هذا الامر وحاولوا تصفية عناصر الاخطاء التي وقع فيها لامنس وواط .كما حاول بعضهم قلب طاولة التاريخ – ان صح التعبير – و نسف نظرية لامنس وواط و من تأثر بهما. ومن رواد هذه النظرة باتريشيا كرونه التي خصصت كتابا كاملا عن هذا الموضوع.[٢٧] نلخص اهم النقاط التي وردت فيه بما يلي:

تستبعد كرونه ان تكون مكة قد لعبت دورا تجاريا مهما قبل الاسلام في العالم القديم، وهي تخالف بهذا النظرة التقليدية التي ترى ان مكة كانت مركزا لأمبراطورية

تجارية واسعة. وتذكر كرونه امورا عدة تمنع مكة من امتلاك هذه المكانة، تعتبرها منطقية، وهي التالية :

اولا : لا تقع مكة على الساحل كغيرها من مدن الجزيرة العربية التي ازدهرت في ذلك الزمان كعدن وغيرها، ولا تملك مكة سوى ميناء شعيبة الصغير على البحر الاحمر. كما انها لا تملك أي مصدر للأخشاب لبناء السفن.

ثانيا : تقع مكة بعيدا عن الطريق بين الشام واليمن، كما انها قاحلة ويوجد واحة قبلها هي الطائف. فعلى المسافر تحويل طريقه، ان كان يريد الذهاب الىمكة، وعبور مناطق قاحلة لاماء فيها ولا كلأ .

ثالثا : لم تكن مكة تنتج بضائع محلية كافية للقيام بتجارة واسعة. ومع انها كانت تنتج الجلود بكمية وافرة الا ان هذا لا يكفي لتأسيس امبراطورية تجارية كما تصورها بعض المصادر. كما انه من المستبعد ان يكون الزبيب والخمر مصدر ثراء المكيين، وهذا شيئ ذكره لامنس، كما ادعى بان مكة كانت تصدر زبيب الطائف الى العراق والشام (التي هي ارض الكرمة) .

كما تعتقد كرونه ان المكيين لم ينتجوا أي ذهب بل كانوا يستعملونه كنقد، مثل غيرهم من الامم في ذلك العصر. وتعتقد ان ما يذكره الواقدي وغيره من سبائك ذهب وفضة في قوافل قريش لا بد كان ثمنا لبضائع بيعت لغيرهم، او لا بد كان ثمنا لما يشترون هم انفسهم من بضائع. وتذكر كرونه مثالا على ذلك ان ابا بكر اشترى بلال الحبشي برطل من الذهب وان العباس اخذ معه الى بدر عشرين بدرة من الذهب لينفقها على قومه .

لذلك تعتقد كرونه ان مكة لم تكن مركزا لامبراطورية تجارية عند ظهور الاسلام، وتعتبر ان لامنس وواط هما المسؤولان عن هذه الصورة المغلوطة للتجارة المكية. وتضيف دليلا على ذلك ان المصادر الاسلامية لا توحي بهذه الصورة ولا تذكر المنتوجات المتنوعة التي كان لامنس وواط يستفيضون في ذكرها. اما قصة الاخوة الاربعة (بنو عبد مناف)، الذين اتجه كل منهم الى بلد، فهي تعتبرها من نسج الخيال. وعلى كل حال، فإنها تعتبر معظم الروايات في المصادر الاسلامية متناقضة ولا يمكن الاعتماد عليها كما تقول كرونه.(٢٨)

ولعله من المفيد ان نذكر في هذا السياق ما كتبه فكتور سحاب ردا على نظرية كرونه، خاصة الامور التي تستدل بها لدعم نظريتها. اذ يقول سحاب ان مكة لم تكن بحاجة الى بناء السفن للابحار الى الحبشة وغيرها لانها كانت تستأجر ملاحين محترفين لذلك. كما يشير الى ان شمال البحر الاحمر لم يكن آمنا للملاحة بسبب القرصنة وبسبب الشعاب المرجانية الكثيرة، لذلك كانت الطرق البرية هي الأفضل لنقل البضائع وقتئذ . اما بالنسبة للمنتوجات التجارية، فلا احد يمكن ان يدعي ان مكة كانت تنتج كل البضائع التي تنقلها وان مصادرها كانت لا شك من مختلف مناطق الجزيرة. فاللبان من حضرموت مثلا، والفضة من نجد واليمن. بالإضافة الى الجلود والتمور والزبد التي كان يمكن ان تحصل عليها مكة في ديارها او ضواحيها. اما بالنسبة لتجارة المنتوجات الاخرى من خمور وملابس وذهب فلا بد ان المكيين كانوا يلعبون دور الوسطاء فيها ويبيعونها في انحاء الجزيرة التي كانت تفتقر الى هذه المواد، مثلما انهم لا بد كانوا ينقلون تمورهم وجلودهم ولبانهم الى خارج الجزيرة العربية.[٢٩] ويضيف سحاب قائلا ان كرونه لم تستطع اعطاء بديل واحد عن التجارة المكية للربط بين الشرق والغرب في ذلك الزمن الذي دارت فيه رحى الحروب بين الفرس والبيزنطيين وانقطعت طرق التجارة الاخرى. كما انها لم تستطع اعطاء سبب منطقي لازدهار مكة وعلو مكانتها عشية ظهور الاسلام[٣٠] ويضيف سحاب قائلا ان كرونه وقعت في الأخطاء نفسها التي اتهمت بها لامنس وواط، لكن بالطريقة المعكوسة. اذ بينما تتهمهما باخذ المصادر الاسلامية العربية على علاتها نجدها تنكر كل الروايات التي في هذه المصادر بحجة انها متناقضة، مع ان هذا لا يعني انها جميعها خاطئة ومكذوبة. فإذا كان التناقض في أي نصين حجة عليهما معا فانه يمكن لأي راو ان يفسد كل الروايات.

ثم يقول سحاب ان كرونه حاولت في كل الكتاب تفنيد الاسباب التي عزاها المؤرخون لنهوض مكة وقالت ان ازدهار مكة لا يعود لتجارتها الدولية لانها لم تكن موجودة اصلا، ولا يعود الى مكانتها الدينية والسياسية عند العرب لوجود امكنة اخرى – كالطائف مثلا – تتمتع بصفات مماثلة من وجود حرم وغير ذلك. وينتظر القارئ تفسيرا يكون بديلا للنظرة التقليدية. لكن كرونه تخلص الىالقول انه لم يكن لمكة تجارة،

وليس من حرم يحج اليه العرب، بل ان مكة ليست في الحجاز، وهي كانت قبل الاسلام قريبة من خليج العقبة .[٣١]

ويعتقد سحاب ان كرونه ارتكبت خطأ منطقيا اذ حللت بعض الحقب لتثبت ان مكة لم تكن لها تجارة دولية، وهذا صحيح في بعض الفترات وخطأ في بعضها الآخر. فاذا كانت قوافل التجارة تمر بسلام عبر الشام في زمن ما لتنقل بضاعة الفرات الآتية بالسفن من الهند الى تدمر ليتسلمها التجار البيزنطيون، فلا حاجة لقوافل مكية في هذه الظروف. واذا كانت سفن بيزنطة تستطيع الابحار عبر البحر الاحمر بسلام لنقل البضائع الآتية من المحيط الهندي فلا حاجة ايضا الى التجارة المكية. لكن هذا لم يكن ممكنا في كل الحقبات. فثورة تدمر على رومه والحروب البيزنطية الساسانية والقتال اللخمي الغساني كلها عوامل عطلت طرق التجارة الاخرى و سهلت ازدهار مكة ، بالإضافة الى ظروف الملاحة الصعبة في البحر الاحمر التي كانت تهددها الرياح والقرصنة والشعاب المرجانية في شماله. كل هذه العوامل ادت الى ظهور قيادة اقتصادية نظمت قوافل التجارة لتسد الفراغ الذي خلفته الظروف التي ذكرت سابقا – كما يعتقد سحاب .[٣٢]

لا شك ان كرونه بالغت كثيرا في رفضها للمصادر الاسلامية والعربية وما ورد فيها حول قيام مكة وتجارتها. كما انها أخطأت حين انكرت معظم منتوجات الجزيرة العربية، اذ ان هناك بضائع يرجح ان الحجاز وغيرها من مناطق الجزيرة كانت تنتجها. ولا اريد ان اخوض في التفاصيل هنا لكن اود ان اذكر ان اهم سلعة نكرتها كرونه – وهي الذهب – كان يمكن التنقيب عنها في شمال غرب الجزيرة. اذ تؤكد الدورية السعودية الاثرية " اطلال " وجود مناجم قديمة للذهب في المنطقة المذكورة وتقول انها لا بد كانت " ذات معدلات مرتفعة في الانتاجية " .[٣٣]

لكن لا انكر ان كرونه اثارت في كتابها الكثير من الاسئلة المهمة حول قيام مكة وتجارتها، وشككت بأمور كانت تؤخذ على ظاهرها. مثال على ذلك ما يعتقده الكثير من المؤرخين ان وجود الكعبة وكونها حرما آمنا كان من الاسباب الرئيسية لقيام تجارة مكة وازدهارها. اذ تثير كرونه في كتابها مسألة وجود مزارات اخرى في الحجاز والجزيرة تعتقد انها كانت على قدر كبير من الأهمية. ومن الامثلة المهمة التي ذكرتها كرونه

مزار اللات في الطائف لثقيف، وكان على صخرة ،" وكانوا يسترون ذلك البيت ويضاهون به الكعبة. وكان له حجبة وكسوة. وكانوا يحرمون واديه ".[٣٤] بالإضافة لذلك فقد دلت الحفريات على وجود بقايا منشآت في الطائف والهضاب والسفوح حولها تؤكد وجود محطات تتساوى فيما بينها تقريبا وتعود الى العصر الاسلامي الاول .[٣٥] وهذا برأيي قد يعزز نظرية كرونه عن وجود مزارات اخرى كان يرتادها العرب على غرار الكعبة في مكة. خاصة ان الطائف هي اقرب بكثير من مكة الى طريق التجارة ومناخها وطبيعتها الجميلة قد تغري المسافر في ارتيادها، بالرغم من طبيعتها الجبلية الوعرة التي قد تجعل القوافل تتهيب سلوكها. فضلا عن ان الجيش الذي وجهه محمد الى الطائف – بعد ان فرغ من فتح مكة – لدليل على اهمية المزار الذي كان قائما هناك. وقد عبأ النبي وقتئذ جيشا كبيرا قوامه عشرة آلاف رجل لقتال اهل الطائف،كما تقول المصادر.[٣٦] على الرغم من ان هذا الرقم قد يكون مبالغا فيه، لكنه يدل على عظم امر الطائف ومكانتها التي كانت ربما تنافس مكة او تفوقها في بعض النواحي. وبعد ان كاد النبي يمنى بهزيمة نكراء في حنين وجه فرقة بقيادة ابي سفيان والمغيرة بن شعبة لهدم مزار اللات هناك[٣٧] وهذا دليل على خطورة حرم الطائف وقدرته على منافسة مكة .

وأستنتج مما سلف ان كلام كرونه عن وجود مزارات آمنة على غرار مكة يبدو معقولا. وأن هذه المزارات كان يمكن ان تحقق الازدهار نفسه لو سنحت لها الظروف التي توفرت لمكة وقتئذ. ومن ثم قد أخلص الى القول ان وجود الحرم لم يكن العامل الرئيسي لنجاح التجارة المكية و ازدهارها.

ومن الباحثين المميزين ايضا الذين عالجوا موضوع نشوء مكة وتجارتها واستعملوا في ذلك المصادر العربية بموضوعية، مع ما وجدوه من المصادر الغربية، يجب ان نذكر سايمون وكيستر وشهيد .

وقد وضع روبرت سايمون كتابا شرح فيه نظرته الشاملة عن هذا الموضوع.[٣٨] وهو يعتقد اننا لا يمكن لنا تحديد التاريخ الذي نشأت فيه مكة من خلال القصص التقليدي كقصة قصي لكنه يعتقد ان مكة لم تصبح مدينة او بلدة الا عندما اصبحت محطة مهمة على طريق التجارة. كما ذكرت ان قصة قصي تتحدث فقط عن

السيطرة على الحرم وانتزاعه من خزاعة، ولا تتحدث عن انماط العيش في مكة وقتئذ. واذا اردنا التكهن – كما يقول سايمون – نقول ان المكيين كانوا يعيشون في غير مواسم الحج على تربية المواشي. ويعتقد سايمون ان الحج كان منفصلا عن التجارة ثم اخذ يقترن بها شيئا فشيئا اذ تفيد الآية القرآنية ان التجارة في الحج فيها منافع للناس وهي بالتالي ليست خطيئة .[٣٩] كما يشير كيستر الى ما ذكره الازرقي من ان مقايضات كانت تجري بين القبائل في موسم الحج .[٤٠]

ومع ان كيستر يتفق مع سايمون بأن سبب وجود مكة كان التجارة، الا انه يعتقد ان شعائر الحج لا تنفصل عنها. ويعتبر ان حرما آمنا محايدا بعيدا عن النزاعات القبلية كالكعبة سمح لمكة ببسط علاقاتها التجارية بين القبائل. ويستدل كيستر على صحة هذا الاستنتاج بالرواية التي تذكر لقاء ابرهة و هشام بن المغيرة مع بعض تجار قريش في اليمن عشية الحملة العسكرية على مكة. وعندما عاتب ابرهة هشام على تدنيس القليس، (المعبد) بعد ان سمح للقرشيين بالاتجار بحرية في اليمن، رد هشام قائلا ان مكة هي حرم آمن لكل الناس [لذلك لا يجوز لابرهة اتهام القرشيين وحدهم]، على عكس القليس التي كانت حصريا لاتباع دين معين. ويستبعد كيستر ان تكون هذه الرواية موضوعة لعدم وجود الدوافع الكافية لذلك .[٤١]

ومن المفيد ان اذكر في هذا السياق ما قاله عرفان شهيد عن عوامل ازدهارمكة. وهو يعتقد ان هزيمة ابرهة وانحسار نفوذ الحبشة في اليمن هي من اهم العوامل التي ادت الى ازدهار مكة. ويستدل على ذلك بسورتي الفيل وقريش من القرآن. ويعتقد شهيد ان السورتين لا بد كانتا سورة واحدة وان كلمة " ايلاف " لم تكن عبارة تقنية تستعمل في الجاهلية لتعبر عن المعاهدات التجارية بين القبائل، بل هي في الاصل الفعل " تآلف "، وهي الكلمة التي يجب وضعها اذا وصلنا السورتين ببعضهما البعض. وهذا يؤدي الى معنى واضح : ان قريش اصبحت قادرة على السيطرة على طرق التجارة بعد انهيار سلطة الجيش في الجزيرة العربية اثر فشل حملة ابرهة على مكة.[٤٢]

من ناحية ثانية، يعتقد سايمون انه بالإضافة الىانحسار نفوذ الحبشة فان نفوذ بيزنطة وغيرها اخذ يتلاشى ايضا حوالي عام ٥٧٠ م (عام الفيل). ويستدل سايمون على ذلك بان كسرى انو شروان عندما اراد شن حملة عسكرية على اليمن اشار عليه

معاونوه ان شمال الجزيرة ليس تحت سيطرتهم، وبذلك عليه استعمال الطرق البحرية ، ان اراد المضي في خطته العسكرية. ويقول سايمون ان التجار المكيين استفادوا كثيرا من الوضع السياسي وقتئذ لينطلقوا في تجارتهم الخاصة، ومن ثم سيطرت مكة على التجارة التي اصبحت النشاط الاقتصادي الرئيسي في شبه الجزيرة وقتئذ.[٤٣] ويحاول سايمون رسم الخارطة السياسية للعرب في منتصف القرن السادس الميلادي، ويقول ان قسما كبيرا من القبائل العربية في شبه الجزيرة اصبح حليفا للخميين الذين كانوا يلقبون بملوك العرب. وقد نشط اللخميون حينئذ – والى حد كبير الغساسنة – في الاعمال التجارية والحربية لدرجة حتى اضطر البيزنطيون والفرس الى ذكرهم في فقرات معاهدة السلام التي أُبرمت عام ٥٦١م بينهما و التي تتعلق بالدول الحاجزة buffer) (states وقد حاولت القوتان العظميان السيطرة على هذه الدويلات ولجم نشاطاتها الحربية والتجارية. وتذكر هذه المعاهدة – في الفقرةالثانية منها – انه يمنع على هذه الدويلات الحليفة شن الهجمات والحروب الجانبية. ثم تذكر الفقرة الخامسة انه " ممنوع على العرب والتجار البرابرة الآخرين الدخول الى اراضي الامبراطوريتين (فارس وبيزنطة) عبر طرق فرعية غير معروفة وغير معتمدة من قبل السلطات. كما يحظر عليهم السفر في الاراضي المذكورة دون اذن من السلطات العليا. وان أي تاجر يضبط على الحدود مخالفا لشروط المبينة اعلاه سوف يعاقب وفقا للقانون ".[٤٤] وفي هذا السياق يقول سايمون ان بيزنطة بدأت في القرن السادس الميلادي تتبع سياسة جلب الوسطاء التجاريين وتجعلهم اقتصاديين وسياسيين. وهذا الامر زاد من اهمية الجزيرة العربية. ولا بد ان فارس حذت حذو بيزنطة، اذ ان سياسة اقامة التحالفات اصبحت سمة القرن السادس. ومع استمرار العمليات االحربية بين القوتين العظميين اصبحت الجزيرة ارضا خصبة لاقامة التحالفات بالإضافة الى موقعها الجغرافي الذي يفرض وجوده في المعادلة التجارية بين الشرق والغرب. ويؤكد سايمون ان الصراع على التجارة كان عاملا مهما من عوامل النزاع بين الامبراطوريتين اللتين حاولتا ابقاء التجارة تحت سيطرتهما المباشرة، كما رأينا في انضمام نص معاهدة عام٥٦١. لذلك فان انضمام مكة كحلقة هذه التجارة كان عاملا رئيسيا في نموها في ظل الصراع بين فارس وبيزنطة .[٤٥] و يضيف سايمون قائلا اننا اذا اردنا ان نضع تاريخا لبداية

التجارة المكية كحلقة مهمة في تجارة بيزنطة ، و بالتحديد في الشام، بمعزل عن قصص التراث نقول انها بدأت مع انحسار نفوذ الغساسنة وزوال ملكهم. اذ من الواضح ان الغساسنة كانوا اقوى الدويلات الحاجزة في الامبراطورية البيزنطية، وانهم سيطروا على اراض واسعة. وتذكر معاهدة ٥٦١م انهم كانوا في اوج مجدهم، لكن نشاطاتهم العسكرية والتجارية المتزايدة جعلت البيزانطيين يحذرونهم وينتظرون الفرصة المناسبة لاضعافهم. وفي زمن طيبيريوس (٥٨٢-٥٧٨ م) نشب صراع حاسم بينهما فاعتقل الامبراطور المنذر ثم ابنه النعمان ونفاهما. وبذلك قضى طيبيريوس فعليا على نفوذ الغساسنة في المنطقة، مما يحدوبنا الى القول ان التجارة المكية مع سوريا و"الايلاف" مع قيصر لم يحصل قبل زوال ملك الغساسنة-كما يقول سايمون[٤٦] ويبدو ان هذا التاريخ للإيلاف مع طيبيريوس - ان صح - يتعارض مع ما تذكره المصادر الاسلامية بان هاشم هو الذي عقد الإيلاف مع قيصر. وهاشم هو جد والد النبي محمد الذي يستبعد ان يكون قد ادرك طيبيريوس في جميع الاحوال خاصة ان المصادر العربية تذكر موته المبكر في غزة .[٤٧]

اما التجارة مع اليمن، فتذكر المصادر العربية ان قيصر، بعد ايلافه مع هاشم، كتب الىالنجاشي يطلب منه السماح لهم بدخول اراضيه.[٤٨] واذا استعملت المنطق نفسه اجد ان الرواية موضوعة لتمجيد جد والد النبي. ويقول سايمون انه لم يكن ممكنا التجارة بين مكة واليمن ان تنتظم الا في العقود المتأخرة من القرن السادس بعد هزيمة ابرهة وانحسار نفوذ الحبشة .[٤٩]

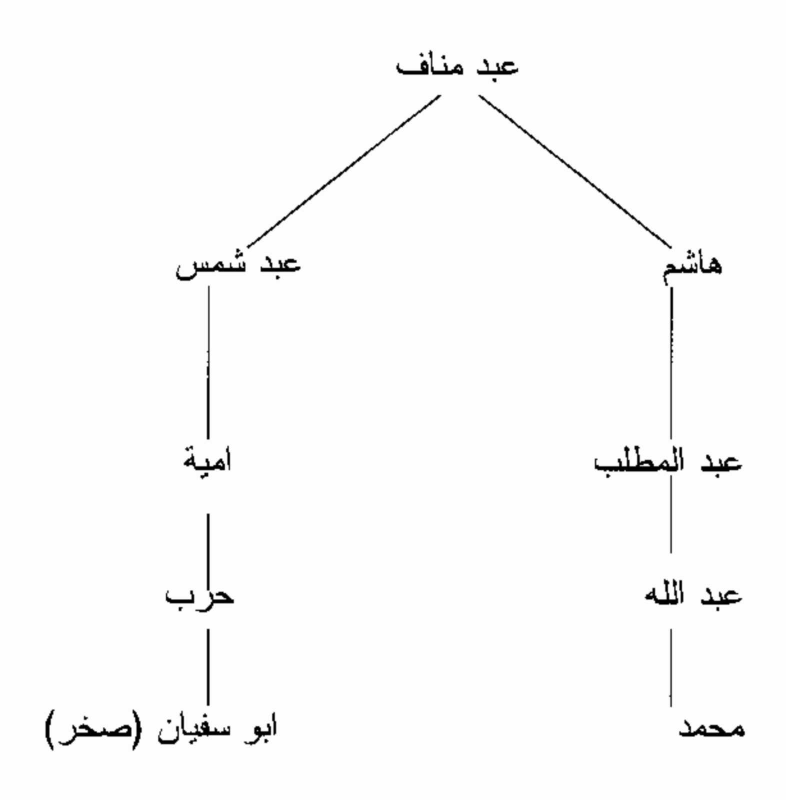
ويبدو لي مما سلف ان الصورة التاريخية للتجارة المكية اكثر وضوحا لدى سايمون، وأظن انه كان على قدر كبير من الاعتدال والموضوعية في انتقاء الروايات من مختلف المصادر العربية والغربية. كما اجد تحاليله في العلاقات بين فارس وبيزنطة وتأثيرها على ازدهار مكة مقبولة ومفيدة لرسم صورة المهنة الرئيسية التي زاولها معظم اسياد مكة في القرن السادس الميلادي ، ومنهم ابو سفيان بن حرب .

الفصل الثالث

ابو سفيان بن حرب

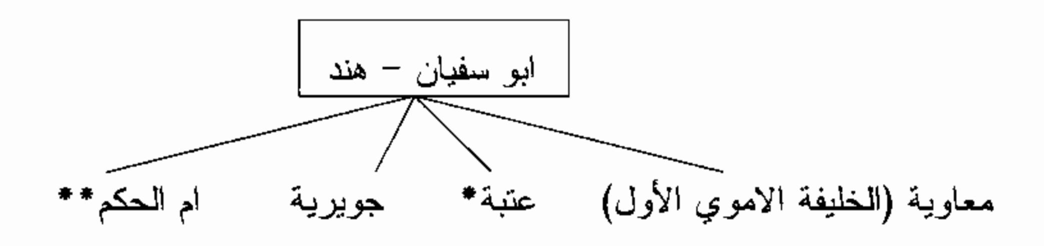
١ – <u>نسبه</u>

هو صخر بن حرب بن امية بن عبد شمس بن عبد مناف ويكنى بأبي حنظلة[١].
امه صفية بنت حزن.[٢] وتقول بعض المصادر انه ولد قبل عام الفيل بعشر سنين.[٣]
(٥٦٠ م تقريبا) بينما تجعلها اخرى بضع سنين،[٤] وبما ان كلمة بضع تدل على العدد من ثلاثة الى تسعة[٥] فإن هذا يعني ان عمره كان يقارب عمر النبي، او انهما كانا ينتميان الىالجيل نفسه كما ستظهر شجرة النسب التالية:



٢ - ازواجه و أولاده

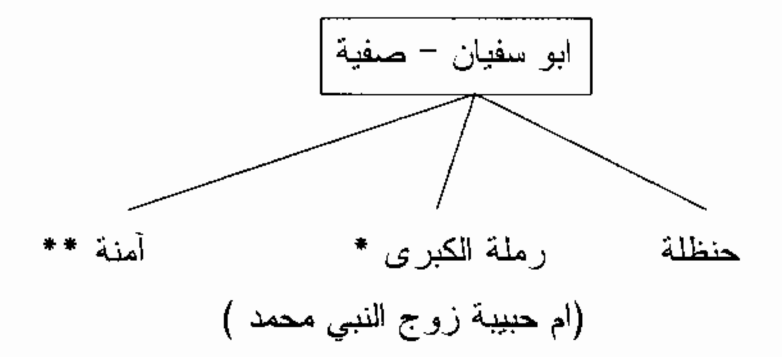
و كان لابي سفيان سبعة ازواج هن: هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وصفية بنت ابي العاصي بن أمية(٦) وام عمرو بنت ابي عمرو بن امية وعاتكة بنت ابي أزيهر الدوسي وأميمة بنت ألأشيم الكنانية(٧) وشمسة الهلالية(٨) وزينب بنت نوفل بن قوالة من بني كنانة.(٩) وقد ولدن له خمسة عشر ولدا، وما يلي رسوم تظهرهم جميعا:



---

* عتبة بن ابي سفيان استعمله عمر على كنانة (الطبري، تاريخ ٧: ص٢٧٦٦) ثم ولاه معاوية مكة ثم عزله وولاه مصر. وكان من كبار معاونيه في صراعه مع علي بن ابي طالب (البلاذري، انساب، ١: ص٥، ٣٩، ١٥٩، ١١٧) .

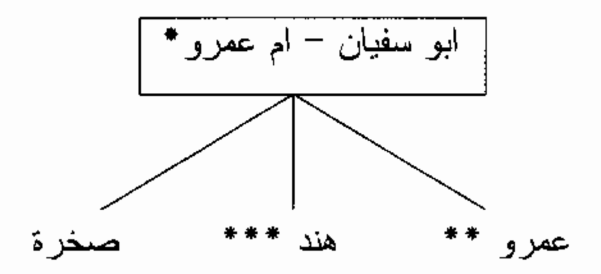
** تزوجها بعده عبد الله بن عثمان بن عفان فولدت له عبد الرحمن بن ام الحكم الذي ولاه معاوية الكوفة والجزيرة والموصل (البلاذري، انساب ١: ص٥) .



---

* تزوجها قبل النبي محمد عبد الله بن جحش فولدت له حبيبة فكنيت بها. وكان عبد الله بن جحش قد هاجر بأم حبيبة الى الحبشة في الهجرة الثانية فتنصر وارتد عن الاسلام وتوفي هناك وثبتت هي على دينها. فبعث النبي محمد عمرو بن امية الصخري الىالنجاشي يخطبها له فزوجها اياه واصدقها النجاشي من عنده عن النبي اربعمئة دينار ثم جهزها وبعثها مع شرحبيل بن حسنة. ولما بلغ ابا سفيان بن حرب نكاح النبي لابنته قال: " ذلك الفحل لا يقرع انفه ". وتوفيت ام حبيبة في سنة اربع واربعين هجرية في خلافة معاوية بن ابي سفيان. (ابن سعد، الطبقات الكبير، ٣: ص٦٨ – ٧١) .

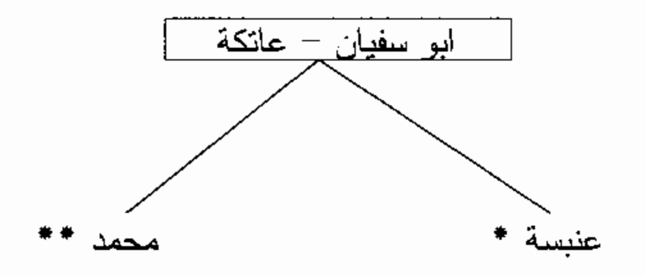
** كذا في البلاذري، انساب ١: ص٦. اما في مصادر اخرى فهي اميمة (الزبيري، نسب قريش ص١٢٦/ شهاب الدين ابو الفضل احمد بن علي بن حجر العسقلاني، كتاب الاصابة في تمييز الصحابة (كلكتا، ١٩٠٧) ٨: ص٣٠٨ .

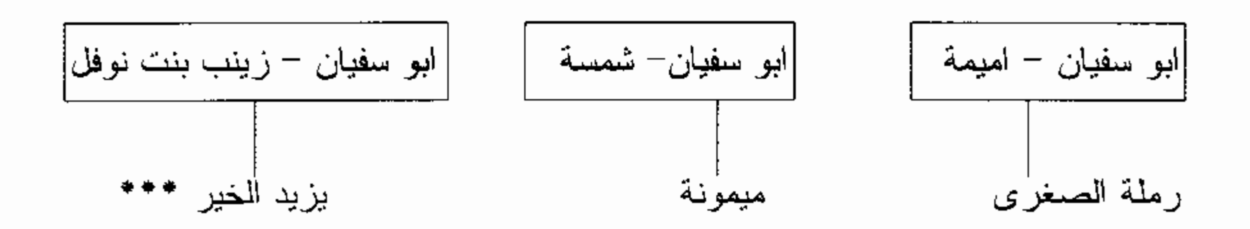


* هي صفية بنت ابي عمرو بن امية بن عبد شمس (الزبيري، نسب قريش، ص١٢٦) ربما تُذكر في معظم المصادر بكنيتها لتمييزها عن صفية بنت ابي العاصي زوجة ابي سفيان الاخرى.

** أُسر يوم بدر فرفض ابو سفيان فديته بالمال (الزبيري، نسب قريش، ص١٢٦-١٢٧)، وسأتحدث عنه لاحقا .

*** لعل تسميته لابنته هندا ام عمرو هو دليل على افضلية زوجته هند وحبه لها الذي سأتحدث عنه لاحقا .





---

*ولاه اخوه معاوية الطائف (البلاذري، انساب، ١: ص١٥٩) وعنبسة هو اسم لابي سفيان بن امية عم ابي سفيان بن حرب بن امية. مما قد يؤدي الى الإلتباس بين الشخصيتين. وولد اميه بن عبد شمس قسمان: العاصي، وابو العاص، وابو سفيان (عنبسة، وعمرو، وابو عمرو، وهم العنابس (جمع عنبسة). سموا كذلك لانهم ابلوا بلاء حسنا في حرب، الفجار (البلاذري، انساب، ١: ص٣٠٢ /ابو عبد الله يعقوب بن دريد، كتاب الاشتقاق، تحقيق عبد السلام هارون، (القاهرة، الخانجي، ١٩٥٨): ص٧٣ /ابو عبد الله يعقوب بن عبد الله ياقوت الحموي، المقتضب من كتاب جمهرة النسب، (بيروت، الدار العربية للموسوعات، ١٩٨٧): ص٢٧ . واشتقاق عنبسة من اسماء الأسد، وهو من العبوس، والنون زائدة(ابن دريد، الاشتقاق، ص٧٩).

** لعل تسميته لابنه محمدا قد تدل على امر من اثنين: حُسن اسلامه اومحاباته للنبي محمد لبلوغ اهداف سياسية.

***أسلم يوم فتح مكة وشهد مع النبي معركة حنين فأعطاه من الغنائم مائة من الابل واربعين اوقية من الفضة عقد له ابو بكر الصديق مع امراء الجيوش الى الشام وشيعه

وتجدر الاشارة الى ان زوجه هند كانت ابنة عتبة بن ربيعة الذي كان كبير قريش وسيدها المطاع وقائدها الاعلى في معركة بدر الكبرى.(١٠) وتوحي الروايات انها كانت احب الازواج الى ابي سفيان. وقد ذكر معاوية ابنها هذا الامر عندما خاطبه احدهم قائلا:" يا أمير المؤمنين ما اشبه عينيك بعيني امك، قال [معاوية] تانك عينان طال ما اعجبتا ابا سفيان ..." .(١١)

وعندما تزوجها ابو سفيان أولم لقريش ثلاثة ايام متواصلة، على الرغم مما تذكره بعض المصادرعن بخله. ويذكر البلاذري خبر تلك الوليمة قائلا:

" قال معاوية لرجل: هل تذكر ابا سفيان ؟ فقال نعم اذكره وقد تزوج هندا، فاطعمنا في اول يوم لحم جزور وسقانا خمرا، وفي اليوم الثاني لحم غنم وسقانا نبيذ زبيب، وفي اليوم الثالث لحم طير وسقانا نبيذ عسل، وان كان لذات ازواج،...".(١٢)

من ناحية ثانية، تذكر المصادر ان هند كانت شاعرة (١٣) وكانت قد اختارت ابا سفيان بين خطبين طلبا الزواج منها، ويذكر البلاذري الرواية التالية:

" كانت هند بنت عتبة قبل ابي سفيان عند حفص بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم ثم خلف عليها الفاكه بن المغيرة فقتلته بنوكنانة بالغميضاء في الجاهلية، ويقال بل تزوجها الفاكه بن حفص ثم خطبها ابو سفيان وسهيل بن عمرو فأخبرها ابوها بذلك وقال: خطبك من قومك كفؤان كريمان، فقالت: صفهما لي فقال: احدهما سهيل بن عمرو وهو موسر سخي سيد مفوض يحكم في ماله، والآخر ابو سفيان بن حرب وهو شريف سيد حازم، قالت الحازم احبهما الي، فتزوجها ابوسفيان فولدت له معاوية، وعتبة، وام الحكم، ويقال انه قال لها: قد خطبك رجلان، اما احدهما فخضم تخالين به

راجلا (حتى خرج من المددينة)، ثم ولاه دمشق و ثبته بعد الصديق عمر بن الخطاب في منصبه حتى مات في طاعون عمواس سنة ثماني عشرة للهجرة ولم ينجب (البلاذري، انساب١: ص٦). (ابو عبد الله محمد بن سعد، الطبقات الكبرى (بيروت، دار صادر، د.ت.) ٢ : ص١٥٢،٣/٣٥٧: ص٣١١/ ٤: ص٩٨/ ٧ : ص٢٣٨، ٤٠٦، ٤٣٧).

غفلة للينه، ليس بالغضبة الغلق ولا المغيار النزق، واما الآخر ففي الحسب والنسب والرأي الاريب، شديد الغيرة سريع الطيرة، مكرم للكريمة حسن الصحبة وكيد العهد، فاختارته ".[١٤]

وفي رواية اخرى، يذكر ابن حبيب كيف انتقلت هند من الفاكه الى ابي سفيان، وكيف تنبأت بمجيء معاوية خليفة :

" كانت هند بنت عتبة بن ربيعة عند الفاكه بالمغيرة وكان من فتيان قريش وكان له بيت للضيافة يغشاه الناس من غير اذن فخلا البيت ذات يوم فقام الفاكه وهند فيه ثم خرج لبعض حاجاته. واقبل رجل ممن كان يغشى البيت فولجه فلما رأى المرأة ولى هاربا فأبصره الفاكه فانتهى اليها فضربها برجله وقال: من هذا الذي كان عندك؟ قالت: ما رأيت احدا ولا انتبهت حتى انبهتني فقال لها: الحقي بأهلك وتكلم فيها الناس فخلا بها ابوها فقال لها: يا بنية ان الناس قد اكثروا فيك فأنبئيني بذاك فان يكن الرجل صادقا دسست اليه من يقتله فتنقطع عنا المقالة وان يكن كاذبا حاكمته الى بعض كهان اليمن. فحلفت له بما كانوا يحلفون به في الجاهلية انه كاذب عليها فقال عتبة للفاكه: انك قد رميت ابنتي بامر عظيم فحاكمني الى بعض كهان اليمن فخرج الفاكه في جماعة من بني مخزوم وخرج عتبة في جماعة من بني عبد مناف ومعهم هند ونسوة معها تأنس بهن فلما شارفوا البلاد تنكرت حال هند وتغير وجهها فقال لها ابوها: يا بنية اني قد أرى ما بك من تغير الحال وما ذاك الا لمكروه عندك. قالت: لا والله يا ابتاه وما ذاك لمكروه ولكني اعرف انكم تأتون بشرا يخطيء ويصيب فلا آمنه ان يسمني بسيماء تكون علي سبة في العرب فقال لها: اني سوف اختبره لك قبل ان ينظروا في امرك فصفر بفرسه حتىادلى ثم ادخل في احليله حبة من الحنطة وأوكأ عليها بسير وصبحوا الكاهن فنحر لهم وأكرمهم فلما تغدوا قال له عتبة: انا قد جئناك في أمر وقد خبأت لك خبيئا أختبرك به فانظر ما هو؟ قال: برة في كمرة قال: اريد ابين من هذا قال: حبة في بر في احليل مهر فقال عتبة: صدقت انظر في امر هؤلاء النسوة فجعل يدنو من احداهن ويضرب كتفها ويقول: انهضي حتى دنا من هند فضرب كتفها وقال انهضي غير وسخاء ولا زانية ولتلدن ملكا يقال له معاوية. فنظر اليها الفاكه فأخذ بيدها فنثرت

يدها من يده وقالت: اليك والله لأحرصن ان يكون ذلك من غيرك فتزوجها ابوسفيان ".(١٥)

اما البلاذري المشهور باعتداله وروايته عن مختلف الاطراف المتنازعة سواء اموية اوعلوية اوعباسية، فنجد عنده رواية واحدة تندرج في هذا السياق :

" كان رأس معاوية كبيرا فقال ابو سفيان: والله ليسودن ابني هذا قريشا. فقالت هند: اني لأرجو ان يسود العرب قاطبة ".(١٦)

وتجدر الاشارة الى ان هناك روايات كثيرة تذكر مواقف هند العنيفة في أحداث مهمة اشهرها يوم أُحُد عندما اصرت علىالذهاب مع جيش قريش للمشاركة في المعركة، وعندما قتل حمزة يومئذ " اخذت هند كبده فلاكتها فلم تستطع ان تأكلها ".(١٧) ويوم فتح مكة تصدت لابي سفيان بعنف كما تذكر الرواية التالية:

" ... قال : فخرج (ابو سفيان) حتى جاءهم صرخ بأعلى صوت: يا قريش ،هذا محمد قد جاءكم بما لاقبل لكم به، فمن دخل دار ابي سفيان فهو آمن. فقامت اليه امرأته هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الدسم الاحمش [الاسود الدنيء] فبئس طليعة قوم حارسهم. قال: ويحكم، لا تغرنكم هذه من انفسكم فانه قد جاء بما لا قبل لكم به".(١٨)

من ناحية ثانية، يذكر الطبري ان ابا سفيان طلقها لاحقا، وانها جاءت الى الشام تاجرة في ولاية معاوية ايام عمر.(١٩)

بالإضافة الىالازواج السبعة التي ذكرنا فقد كان لابي سفيان خليلة معروفة هي سمية و لدت زياد بن ابيه ثم ادّعاه معاوية لأبي سفيان بعد توليه الخلافة بعد ان اعجب بحزمه وسداد رأيه في الحكم فولاه البصرة، كما تقول المصادر.(٢٠) وكانت سمية قد تزوجت من ابي بكرة (وكان سيدا في ثقيف) قبل ذلك ثم تزوجت من بعده عبدا روميا اسمه عبيد. ويذكر البلاذري تفاصيل لقاء ابي سفيان بسمية في الرواية التالية:

"... فلما قدم زياد على معاوية في مرته الثانية صعد المنبر، وامر زيادا فصعد معه فحمد معاوية الله واثنى عليه ثم قال: ايها الناس اني قد عرفت شبهنا اهل البيت في زياد، فمن كانت عنده شهادة فليقمها، فقام الناس فشهدوا انه ابن ابي سفيان، اقر به قبل موته ثم مات. وقام ابو مريم السلولي – وكان خمارا في الجاهلية – فقال: اشهد ان ابا سفيان قدم علينا يا امير المؤمنين الطائف، فأتاني فاشتريت له لحما واتيته بخمر وطعام،

فلما اكل قال يا ابا مريم اصب لي بغيا، فخرجت فاتيته بسمية وقلت لها ان ابا سفيان من قد عرفت شرفه وحاله، وقد امرني ان اصيب له عرسا فقالت: يجيء عبيد زوجي، فاذا تعشى ووضع رأسه اتيته، فلم تلبث ان جاءت تجر ذيلها فدخلت معه، فلم تزل معه حتى اصبحت، فقلت له كيف رأيتها ؟ قال خير صاحبة لولا ذفر ابطيها ونتن رُفغيها، فقال زياد من فوق المنبر: مه يا ابا مريم، لا تشتم امهات الرجال فتشتم امك، ثم جلس ابو مريم وقام آخر فقال اشهد ان عمر بن الخطاب اخذ بيد زياد فاخرجه يوم اخرجه الى الناس فقال رجل مما كان حاضرا: لله ابوه من رجل لو كان له عنصر. فقال ابوسفيان وهو الى جانبي: انا والله وضعته في رحم امه سمية وما له اب غيري ".[٢١]

بالعودة الى مولد ابي سفيان الذي تم تحديده بالنسبة لمولد النبي، اذكر ان هناك اختلاف في تحديد مولد النبي نفسه في المقام الاول. منهم من يقول ربما كان قبل عام الفيل بعشر سنوات اوخمس عشرة سنة اوعشرين اوثلاثة وعشرين اوثلاثين اواربعين، اوربما بعد عام الفيل بسبعين سنة. ويحاول رواة آخرون حل هذه المعضلة بقولهم انه ولد قبل بعثه بأربعين سنة .[٢٢] واظن ان النبي وابا سفيان كانا من جيل واحد. وقد يثبت ظني ظهور الرجلين في مختلف الروايات التي سبقت الهجرة في الصف الثاني من سادة القوم.[٢٣] فقد كان عتبة بن ربيعة يتزعم بني عبد شمس، بينما كان ابوطالب عم النبي يتزعم بني هاشم .

اما موضوع تفضيله لهند على غيرها، فانا ارجح هذا القول لاسباب منطقية وهي ان هند كانت ابنة عتبة كبير قريش وسيدها المطاع .[٢٤] ولعل ابا سفيان عبر عن هذا عندما قال في رواية البلاذري : " من تكن عَمه يا ابا الوليد [عتبة بن ربيعة] يكن اعز اهل الوادي ".[٢٥] لذلك اعتقد ان الزواج من ابنة زعيم لا بد من ان يقربه من مركز القرار والقيادة، خاصة ان ابا سفيان وعتبة كانا من العشيرة نفسها. وهذا مهم في مجتمع قبلي لا يعترف بخلافة الابن البكر، بل يعتبر الرجل صاحب المؤهلات الأفضل في العشيرة. ولا انكر ان هند ربما كانت قد حظيت بانتباه الرواة المتزلفين لابنها الخليفة معاوية، فبالغوا في ذكر اخبارها، خاصة التي تتضمن خوارق للعادة اواموراً غيبية. ولا استبعد ان يكون هؤلاء الرواة قد حاكوا حولها وحول معاوية الاساطير كونه

مؤسس الدولة الاموية الملقب بكسرى العرب[٢٦] واول خليفة يحكم على طريقة الملوك. و قد نفهم منافرة عتبة والفاكه ضمن هذا الاطار .

من ناحية ثانية، قد اقول ان بعض الرواة المعادين للأمويين لا بد بالغوا في وصف مواقفها السلبية تجاه النبي واصحابه، او وضعوا روايات للنيل منها لانها أم معاوية.

وفي هذا السياق اود ان اذكر واحدا من الانماط التي تظهر في روايات هذه الفترة من التاريخ الاسلامي، وهو مقابلة ابا سفيان بن حرب بسهيل بن عمرو، وقد اضع الرواية التي تذكر خطبتهما لهند معا ضمن هذا الاطار. اذ لا يستبعد ان منافس ابي سفيان على الزعامة (سهيل بن عمرو)- منذ صلح الحديبية- كان قد نافسه على الزواج من هند بنت عتبة من قبل ايضا. ولعل لغة الرواية وقالبها تجعل الصدفة مستبعدة وتؤكد ان مقابلة ابي سفيان وسيهل بن عمروكان قد اصبح من الانماط التي استعملها المؤرخون المسلمون وقت كتبوا هذه الروايات التي بين ايدينا. فان وصف سهيل بانه لين ربما جاء من حديث للنبي ذُكر في سياق احداث صلح الحديبية – على ما اعتقد. وهو التالي:

"... بعثت قريش سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى وحفص بن فلان الى النبي صلعم ليصالحوه فلمارآهم رسول الله فيهم سهيل بن عمرو قال قد سهل الله لكم من امركم القوم ماتَون اليكم بارحامكم وسائلوكم الصلح ...".[٢٧] كما ان الرواية ذكرت كرم سهيل ووصفته بـ"موسر سخي " وانه خضم [أي بحر من الكرم]، لتقابله بالبخل الذي يشاع عن ابي سفيان (ساعالج هذا الموضوع لاحقا).

ويبدو لي ان هند كانت قد اثرت في مواقفه من النبي. وسيظهر هذا في الصراع بين الرجلين الذي سنعالجه لاحقا .

اما زياد بن ابيه فان الروايات تختلف في صحة نسبه، ولا يستطيع أي مؤرخ الجزم في هذا الامر بسبب تأثير النزاع بين الأمويين واعدائهم وما سببه من تحريف وتزوير للروايات. وعلى الرغم من ان الرواية التي تذكر لقاء ابي سفيان بسمية قد تبدو واقعية بسبب تفاصيلها الدقيقة، لكن القسم الذي يتضمن كلام ابي سفيان يبدو مفعما بالاثارة، ويجعلني اتساءل لماذا لم يلحقه ابو سفيان بنسبه ما دام قد اعترف بذلك ؟

ويبدو لي ان الحاق معاوية لزياد بأبي سفيان كان لأسباب سياسية مجردة من أي اعتبارات للنسب اوالقربى (وللمزيد عن زياد بن ابيه، انظر الملحق).

٣ – صفات ابي سفيان الخلقية والخلقية

لم تذكر المصادر الكثير عن صفات ابي سفيان الخلقية. اذ يروي الصفدي انه كان " ربعا دحداحا ذا هامة عظيمة ".[٢٨] ويذكر ابن عساكر انه " كان ربعا عظيم الهامة". [٢٩] كما ان هناك رواية اخرى تقول انه كان " ادهم ضخم ".[٣٠] ووفقا لابن منظور فان الربعة تعني لا بالطويل ولا القصير،[٣١] والدحداح هوالرجل السمين اوكبير البطن،[٣٢] اما الهامة فهي الرأس،[٣٣] والأدهم هو الأسود.[٣٤] كما يذكر البلاذري هذه الصفة ايضا فيقول ان بشرة ابي سفيان كانت سوداء، فكان يسب بالسواد من قبل اعداء الأمويين.[٣٥] وقد ذكرت فيما سبق كيف وصفته هند بـ " الدسم الاخمش "[٣٦] أي "الاسود الدني ".[٣٧]

اما الصفات الخلقية التي كان يتصف بها ابو سفيان، فقد كان ابرزها ما سماه الجاهليون الحلم. ويذكر البلاذري رواية تذكر هذه الصفة عنده:

" لما بلغ عائشة اخذ حجر وحمل زياد اياه وجهت الى معاوية عبد الرحمن بن الحارث بن هشام في أمره، فقدم عليه وقد قتله واصحابه، فقال له: اين كان حلمك وحلم ابي سفيان [الذي كان قد توفي منذ سنوات وقتئذ]؟ فقال: غاب عني مثلك من حلماء قومي، وحملني ابن سمية فاحتملت ."[٣٨]

اما ابن اعثم الكوفي فيذكر رواية تبالغ في حلم ابي سفيان بالرغم من ابن اعثم كان يُمعن في ذكر الروايات التي تسب الامويين. وقد اوردها في سياق الفتنة بينهم وبين العلويين:

" ... ثم وثب صعصعة بن صوحان، فقال: يا معاوية ان مالك بن الحارث الاشتر، وعمر بن زرارة رجلان لهما فضل في دينهما وحالة حسنة في عشيرتهما، وقد حبستهما، فامر باخراجهما فذلك اجمل في الرأي، فقال معاوية: علي بهما، فأتي بهما من الحبس، فقال معاوية: كيف ترون عفوي عنكم يا اهل العراق، بعد جهلكم واستحقاقكم الحبس، رحم الله ابا سفيان ، لقد كان حليما، ولو ولد الناس كلهم لكانوا

حلماء. فقال صعصعة بن صوحان: والله يا معاوية لقد ولدهم من هو خير من ابي سفيان، فسفهاؤهم وجهالهم اكثر من حلمائهم ".[٣٩]

وفضلا عما سبق، يذكر المسعودي حادثة تشير الى رجاحة عقله وصواب رأيه في الجاهلية:

"... عن معاوية بن ابي سفيان ويزيد بن شجرة الرهاوي ان ابن شجرة كان يساير ذات يوم معاوية وكان به آنسا والى حديثه تائقا، ومعاوية مقبل عليه يحدثه عن خزاعة ويومها وبني مخزوم وغيرهم من قريش كان فيه حرب عظيمة، فني فيها خلق من الناس وذلك قبل الاسلام وقيل ان ذلك كان قبل الهجرة وكانت فيه لابي سفيان مكرمة وسابقة في الرئاسة، وهو انه لما اشرف الفريقان جميعاعلىالفناء صعد على نشز من الارض ثم صاح بالفريقين واشار بكمه، فانصرف الفريقان جميعا انقيادا لأمره ".[٤٠]

اما ابن عساكر فينقل هو ايضا رواية تندرج في هذا الاطار:

"... قيل لأبي سفيان بن حرب: ما بلغ بك من الشرف ما ترى؟ قال: ما خاصمت رجلا الا جعلت بيني وبينه للصلح موضعا – او موعدا – ".[٤١]

والى جانب ما سبق، يذكر ابن حبيب ان ابا سفيان كان من حكام قريش، وكان يجلس في قبة ويصلح بين المتخاصمين .[٤٢] وهناك عدة روايات تتحدث عن حكمه في مظالم الناس، منها ما ذكره الماوردي من ان رجلا يدعى قيس بن شيبة باع بضاعة الى ابي ابن خلف فلم يؤته حقه فاستجار برجل من بني جمح فلم يجره. فقام ابوسفيان والعباس بن عبد المطلب فردَا عليه ماله.[٤٣] وتجدر الاشارة، انه يقال ان ابا طالب عم النبي اشاد بحكمة ابي سفيان في احدى القضايا التي عرضت عليه وكان لها اهلا فقال فيه شعرا :

هلم الى حكم ابن حرب فانه   سيحكم فيما بيننا ثم يفعل[٤٤]

وفضلا عن حكمته فقد اشتهر ابو سفيان بدهائه وحنكته وقدرته على المراوغة والتفاوض. ويذكر البلاذري رواية تظهر هذه الصفات:

"... مر حمزة بن عبد المطلب على نفر من بني مخزوم فلاحاه رجل منهم فذكر المخزومي نساء من نساء بني عبد مناف فضربه حمزة فقتله، واتى ابا سفيان فاخبره،

فأتى ابو سفيان بني مخزوم فعرض عليهم ثلاث ديات بصاحبهم فلم يقبلوها، فانصرف عنهم يومه، فلما كان من الغد جاؤوا يطلبون الديات الثلاث، فقال ابو سفيان: القوم يأبون ان يعطوا اكثر من ديتين، فابوا فرجعوا فلما كان الغد جاؤوا يطلبون الديتين فقال: ان القوم ابوا ان يعطوا الا دية واحدة، فابوا ورجعوا، فلما كان الغد عادوا فطلبوا الدية فقال ابو سفيان: ان القوم قد ابوا الدية، وهذا قتيل لا دية له فطُل دمه ".(٤٥)

ووردت روايات عدة تذكر ان ابا سفيان كان بخيلا. يقول الواقدي:

" كانوا يقولون ان ابا سفيان بن حرب رجل شحيح بخيل له مال، وانما سود وعظم لماله " (٤٦)

كما وردت صفة هذا البخل فيه في مصادر اخرى على لسان زوجه هند بنت عتبة:

" حدثنا ابوالمليح عن ميمون بن مهران ان نسوة اتين النبي، صلى الله عليه وسلم، فيهن هند بنت عتبة ابن ربيعة وهي ام معاوية يبايعنه، فلما ان قال رسول الله: لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن، قالت هند: يا رسول الله ان ابا سفيان رجل مسيك فهل علي حرج ان اصيب من طعامه من غير اذنه ؟ قال فرخص لها رسول الله في الرطب ولم يرخص لها في اليابس. قال: ولا يزنين. قالت وهل تزني الحرة ؟ قال ولا يقتلن اولادهن. قالت: وهل تركت لنا ولدا الا قتلته يوم بدر؟ قال: ولا يعصينك في معروف. و قال ميمون: فلم يجعل الله لنبيه عليهن الطاعة الا في المعروف. والمعروف طاعة الله ." (٤٧)

ثم يضيف البلاذري رواية اخرى يمكن ان اضعها في هذا السياق:

"... حدثنا ابن عباس قال: دخلت على ابي سفيان بن حرب وهو يتغدى، فذكرت له حاجتي ثم قلت: فما منعك من ان تدعوني الى غدائك؟ فقال: انما وضع الطعام ليؤكل، فان كانت بك اليه حاجة فكل ".(٤٨)

بالإضافة الى صفة البخل، فقد كان بعض اعداء الامويين يصفون ابا سفيان بـ " الخمار".(٤٩) وكان يتردد الىالطائف لعشقه المفرط للزبيب. يذكر البلاذري:

"... خطبت ام الحكم الى معاوية ابنته على ابنها فابى تزويجه فقالت: قد زوج ابوك اباه وانا خير من ابنتك، وهو خير من ابيه، فقال: ان ابا سفيان كان سوقة ونحن

اليوم ملوك، وكان ابوسفيان يحب الزبيب والزبيب عندنا كثير، فقال ابن ام الحكم ان عليا زوج ابنته ابن اخته، فقال معاوية: ان عليا زوج قرشيا وانت ثقفي ".[٥٠]

من جهة ثانية ، تذكر الروايات ان ابا سفيان كان واحدا من سبعة عشر من قريش كانوايعرفون الكتابة عندما ظهر الاسلام .[٥١] كما ينسب اليه الكثيرمن الشعر.[٥٢] وقد صنفه ابن حبيب مع زنادقة قريش، بل هو اول زنديق في لائحته .[٥٣]

اعود الى تفصيل صفات ابي سفيان الجسدية، واذكر ان فخر الدين الرازي ذكر في كتاب الفراسة ان السواد يدل على الجبن.[٥٤] اما عظم البطن فيدل على كثرة النكاح .[٥٥] وقد ذكرت سابقا ان الروايات تصف ابا سفيان بانه كان "ادهم" [أي اسود]، عظيم البطن وذا راس كبير. وكبرالرأس عند الرازي يدل على الفكر الثاقب.[٥٦] وتجدر الاشارة الى ان وصف ابي سفيان بـ " الادهم " بدلا من " الاسود " في الرواية التي ذكرت سابقا يدل على الشتم والانتقاص، لان عبارة " ادهم" هي لوصف الحيوان في الاصل، وفقا لابن منظور.[٥٧] لذلك قد اميل الىالقول ان معظم هذه الصفات قد تكون عامة، وغير حقيقية، كان المؤرخون العرب يطلقونها على شخصياتهم. ومن الامثلة البارزة في هذا السياق ان علي بن ابي طالب يوصف بالصفات نفسها تقريبا – ما عدا السواد .[٥٨]

ويبدو ان السواد كان يعتبر نقيصة يعير بها المرء في البيئة العربية. فقد كان العرب يعتقدون ان السود ضعاف العقول، قصار الروية ويجهلون العواقب.[٥٩] لكن برايي ان صفة السواد – ان كانت صحيحة – لم تكن تؤثر سلبا في زعامته، بل كانت ضمن الامور التي استعملها اعداء الامويين لاحقا للقدح والذم، ولاشك انهم بالغوا فيها كثيرا. ولا ريب ان نسبة السود كانت عالية في المجتمع المكي الذي كان على صلات تجارية واقتصادية واجتماعية وثيقة مع الحبشة مما ادى الى التزاوج وجلب الرقيق الاسود ومن ضمنه الاماء اللاتي كن يتخذن ملكا لليمين. وكانت جزءا من الحريم.[٦٠]

اما ما يتعلق بصفة الجبن، فهي تتعارض مع مكانة اي زعيم في مجتمع قبلي يتوقع من شيخ القبيلة او سيد القوم صفات شخصية مميزة. لذلك فان هذه الصفة لا تتماشى مع مكانة ابي سفيان. وقد حاول شاعر النبي حسان بن ثابت استفزاز ابي سفيان، فقال ابياتا تصف جبنه لانه لم يأخذ بثأر حميه – ابو ازيهر الدوسي – الذي قتله

رجل من قريش (ساذكر هذه الحادثة لاحقا بالتفصيل)، فلم يفلح لان حلم ابي سفيان كان اوسع من غضبه، على ما يبدو لي. فآثر ان يتحمل الشتيمة على ان يبدأ فتنة عشائرية اراد النبي اضرامها .[٦١]

وفي هذا السياق، اذكر ان الحلم هو" نقيض السفه"، كما انه "الاناة والتثبت في الامور" وفقا لابن منظور.[٦٢] ولعل الحلم كان من اهم صفات الزعيم في الجاهلية في مجتمع عشائري تكثر فيه المنازعات التيلا تضبطها سلطة مركزية، فيقوم سيد القوم بدور الحكم بين المتنازعين دائما، وعليه ان يتمتع بسعة الصدر ليحتمل رعونة الناس، خاصة البدو منهم.[٦٣] ويبدو ان المكيين كانوا يعتبرون الحلم صفة مهمة جدا، واستدل على هذا بانها من صفات النبي التي كان الرواة دائما يمدحونها.[٦٤]

ويعتقد هنري لامنس ان ابا سفيان كان منذ الجاهلية مشهورا بحلمه واعتداله الاسطوريين وانه تخرج من " مدرسة قريش الميركنتالية "، حيث كان الزعيم القرشي يقوم دائما بتضحيات شخصية باستمرار من سخاء وعطاء وضبط للنفس، ليحافظ على التوازن والتماسك بين العشائر.[٦٥] ويعرف لامنس الحلم عند العرب بانه الدهاء والمكر والتعقل "والقدرةعلىالمناورة " في مواجهة الصعاب، ويقول (لامنس) ان الحليم لايحتقر الطرق الملتوية في مواجهة الخصوم ، اذ يصف العرب رجلا بدهاء ابي سفيان بانه احلم من حية .[٦٦]

اما صفة البخل التي ذكرت سابقا، فمردها، فيما يبدو لي، ان ابا سفيان كان مقترا في اموره الشخصية وسخيا في الامور العامة التي تستوجبها الزعامة في السلم والحرب. ولا بد ان وليمة الزواج من هند التي ذكرت سابقا كانت فرصة تتطلب منه السخاء لتثبيت مكانته التي اخذت بالارتفاع بعد قرانه من ابنة واحد من اكبر سادة قريش. وقد يكون حرصه في الانفاق علىالامور الشخصية نابعا من عمله في التجارة التي تتطلب الاقتصاد و المحاسبة اليقظة. ومن الممكن التشكيك في رواية الواقدي عن بخل ابي سفيان لميوله الشيعية .[٦٧]

من ناحية ثانية، قد أميل الىالقول ان ابا سفيان كان يقضي بين الناس في بعض اوقاته، لانها تبدو ضرورة تفرضها الاعمال اليومية في مجتمع عشائري. فلا استغرب ان يكون ابا سفيان قد لعب دور القاضي او الحكم كغيره من سادة قريش في بعض

الاوقات. وجواد علي واحد من المؤرخين الذين يطنبون في هذا الامر، وهو يعتقد انه كان لكل قبيلة دار – علىغرار دار الندوة – يحكم فيها اسياد القوم في المظالم. ويذكر ان ابا سفيان كان واحدا من هؤلاء الذين كانوا يجلسون في قباب لهم يصرفون فيها الامور الخاصة والعامة ويحكمون فيها بين الناس.[٦٨]

اما صفة " الخمار " فيبدو انها مستقاة من حبه للزبيب والاتجار به. وشرب الخمر وتجارته لم تكن تعتبر نقيصة في المجتمع الجاهلي على ما يبدو. وتذكر المصادر انه كان شائعا حتى انه لما نزلت اية تحريم الخمر اهرقها المسلمون " فجرت في سكك المدينة ".[٦٩] لذلك يبدو لي انها من الامور التي راى فيها المؤرخون المسلمون الماضي من خلال حاضرهم وقتئذ، وانهم عندما ارادوا تحقير ابي سفيان وجدوا انه كان يتاجر بزبيب الطائف فبالغوا في الامر .

اما ما يتعلق بصفة الزندقة التي ذكرها ابن حبيب، فليس هناك روايات تذكران ابا سفيان كان قد ترك دين قومه واعتنق عقيدة الفرس. فلا يوجد أي روايات تكشف للمؤرخ سرائر ابي سفيان .

اما موضوع القراءة والكتابة فليس مستبعدا، اذ ان ابنه معاوية كان من كتبة الوحي ،[٧٠] وابو سفيان كان تاجرا يحتاج الكتابة مما يقوي هذا الزعم. لكن قوله للشعر فلا استطيع الحكم فيه، لانني لا املك أي دليل يثبت ان الابيات التي وردت في المصادر ليست منسوبة اليه لاضفاء الاثارة على الاحداث، كما لا يوجد دليل على انها من نظمه.

٤- تجارة ابي سفيان

تذكر المصادر الاسلامية ان ابا سفيان كان يقود قوافل قريش ويلقب بسيد العير،[٧١] وانه وعشيرته – بنو عبد شمس – كانوا يملكون الحصة الاكبر من البضاعة. ويذكر الواقدي ان حصتهم في قافلة بدر كانت تبلغ عشرة آلاف مثقال من ذهب.[٧٢] ويضيف الواقدي رواية تذكر ان حنظلة بن ابي سفيان واخوه عمرو استنفزا رجلا من فقراء قريش يوم بدر لينضم الى جيشهم فرفض وقال: " والله ما لنا من مال وما المال الا لأبي سفيان ".[٧٣]

كما تضيف هذه المصادر ان ابا سفيان كان يتاجر بالزيوت والجلود، وياتي بالزبيب من الطائف.(٧٤) وتشير الى ان اهم سلعة حملها في قوافل قريش كانت الفضة، والتي كانت في بعض الاحيان تمثل القسم الاكبر من القافلة.(٧٥) وتقول هذه المصادر ايضا انه كان يصل في تجارته الى الشام. وكان يمتلك ضيعة هناك تدعى بقش، ورثها من بعده ولده معاوية .(٧٦)

فضلا عن ذلك توجد عدة روايات تشير الى لقائه بهرقل هناك، وتذكر ان ملك الروم سأله عن النبي وطلب منه معلومات عن اخلاق محمد و نبوته (ساذكر هذه الرواية في الملحق).

و في سياق تجارة ابي سفيان ، يذكر ابن سعد رواية تشير الى ذهابه الي اليمن:

" اخبرنا معن بن عيسى، اخبرنا ابن ابي ذئب عن ابيه انه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ان ههنا ناسا من كندة يزعمون انك منهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: انما ذلك شيئ كان يقوله العباس بن عبد المطلب وابوسفيان بن حرب ليأمنا باليمن، معاذ الله ان نزني امنا او نقفو أبانا، نحن بنو النضير ابن كنانة، من قال غير ذلك فقد كذب ".(٧٧)

من ناحية ثانية يذكر البلاذري رواية تتحدث عن امانة ابي سفيان في التعامل مع قومه قال:

قدم ابو سفيان من الشام، والنبي صلى الله عليه وسلم يدعو سرا، ومع ابي سفيان بضاعة للنبي صلى الله عليه وسلم، فلم يسأله عنها، فتعرض له ابوسفيان فقال: يا ابن عبد الله اما تريد بضاعتك اراك لا تذكرها، قال: يا ابا سفيان انه لا بد ان يكون فيها ربح او ضيعة. وأي ذلك فانت مؤد فيه الامانة ان شاء الله ".(٧٨)

من ناحية ثانية تجمع الروايات علىان ابا سفيان استطاع يوم بدر تفادي جيش النبي، وانه استطاع تغيير الطريق الى الساحل لانقاذ قافلته. وبعد بدر حاول ايجاد طرق اخرى للقوافل بعيدا عن خطر محمد واصحابه، فاستأجر دليلا خبيرا بمسالك نجد للعبور بالقافلة الى الشام، بعد ان راى ان قريش ستأكل راس مالها ان قعدت عن التجارة. فأرسل قافلة بقيادة صفوان بن امية عبر نجد، لكن النبي واصحابه استطاعوا قطع

الطريق عليها ونهبها في غزوة سميت غزوة القردة. وكانت اهم البضائع التي سلبت من الفضة .[٧٩]

ثم يضيف البلاذري رواية تتحدث عن موقف ابي سفيان من التجارة والدواوين التي اقامها عمر لتوزيع الفيء، والتي توحي بمدى اهمية التجارة له:

" ... لما هم عمر بن الخطاب في سنة عشرين بتدوين الدواوين، دعا بمخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم، فأخبرهما ان يكتبا الناس على منازلهم، فكتبوا بني هاشم، ثم اتبعوهم، ابا ابكر وقومه، وعمر وقومه، فلما نظر عمر في الكتاب، قال وددت اني في القرابة برسول الله صلى الله عليه و سلم كذا ابدؤوا الأقرب فالأقرب، ثم وضعوا عمر بحيث وضعه الله، فشكره العباس بن عبد المطلب رحمه الله على ذلك وقال: وصلتك رحم، قال: فلما وضع عمر الديوان، قال ابوسفيان بن حرب: أديوان مثل ديوان بني الاصفر، انك ان فرضت للناس اتكلوا على الديوان وتركوا التجارة، فقال عمر: لا بد من هذا فقد كثر فيء المسلمين ."[٨٠]

يبدو من خلال المصادر الاسلامية ان ابا سفيان كان من تجار مكة البارزين، وان عشيرته – بنو عبد شمس – كانوا من اغنى عشائر قريش، وقد تكون التجارة بالذات هي سبب ثرائهم. لذلك لا تستغرب حين نجد ان المصادر تذكر انه كان يقود قوافل قريش:

اما بالنسبة للبضائع التي كان يحملها في تجارته، فان المنتوجات المؤلفة من الجلود والزبيب تبدو معقولة في مجتمعات الجزيرة البدائية الرعوية، التي يمكن ان تصدر الجلود الى غيرها وتنتج الزبيب (في الطائف) للاستهلاك المحلي، لا للشام بلاد الكرمة. ويمكن ان يكون ابو سفيان قد اتى بالزيوت من الشام ليبيعها في الجزيرة، كما ان الاتجار بالفضة قد يبدو معقولا، لان بعض الدراسات تدل على وجود مناجم فضة قديمة في الجزيرة العربية، مع العلم ان الباحث يجب ان يحذر من عامل المبالغة في هذا الموضوع، اذ ان هذا النوع من الغنائم يتصل بأخبار الغزوات التي يزيدها ذكر كميات كبيرة من الفضة اثارة، مما يضفي على محمد واصحابه صفة المحاربين الناجحين الذين يظفرون بالغنائم الثمينة .

اما بالنسبة للقاء ابي سفيان بهرقل فمن الممكن تصنيفه في باب الروايات الموضوعة في اطار " دلائل النبوة". لكن وضع رواية كهذه قد يكون مستمدا من واقع تردد ابي سفيان على الشام للتجارة. فمن المنطقي ان يضع المؤرخ رواية وينسبها الى رجل عرف بارتياده للشام ليجعلها قابلة للتصديق، هذا فضلا عن كونه العدو اللدود للنبي محمد في تلك الفترة، ما يجعل شهادته الايجابية في الرجل (النبي) ذات قيمة كبيرة – كما يريدها المؤرخ المسلم .

لكن السؤال الذي يُطرح هنا : كيف يستطيع رجل بمنزلة ابي سفيان القيام بكل هذه الاسفار التي كانت تحتاج الىشهور متواصلة ويبقى قادراعلى قيادة قومه في الداخل مع ما يتطلب ذلك من ملاحقة للأمور اليومية وغيرها من التطورات التي تحتم على الزعيم المكوث مع قومه لمتابعتها ؟ الا يجب على المؤرخ ان يختار بين امرين: قبول الزعيم القرشي كوصي على الكعبة وشؤون الحجاج وخدمتهم، وبذاك يبقى في مكة للقيام بهذا، او الاعتقاد بانه تاجرا، اولا واخيرا يقضي معظم اوقات السنة على طرق التجارة لجلب البضائع.(٨١) واذا اخذنا بالروايات المعروفة عن رحلة الشتاء والصيف نجد ان المسافر كان يقضي شهورا في الذهاب والاياب على الطريق، (٨٢) دون ذكر الوقت الذي يحتاجه لتسوق البضائع، واذا اضفنا الوقت نفسه من اجل الذهاب الى اليمن نجد ان التاجر المكلف بهذا يقضي قسما كبيرا من العام خارج مكة. فكيف يتسنى لرجل كابي سفيان قيادة القوافل التجارية والمشاركة –ان لم نقل –الحكم في الشؤون السياسية؟ والحل المنطقي –برأينا –هو توزيع المهام بين قادة قريش.

فعندما كان ابو سفيان يقود العير التي هددها النبي محمد يوم بدر كان عتبة بن ربيعة وابوجهل وغيرهم يقودون الجيش. واظن ان ابا سفيان توجه للعناية بالشؤون السياسية والعسكرية اكثر فاكثر عندما اصبح زعيما بارزا في قريش بعد مقتل معظم اسيادها في معركة بدر. اذ ان معظم الروايات التي تتحدث عن خروج اهم قافلة نحو الشام ، عبر نجد بعد بدر كما ذكرنا، تقول ان صفوان بن امية كان في قيادتها، لا ابو سفيان.(٨٣) لذلك اعتقد ان أي زعيم كان يخرج في قيادة قافلة تجارية كان يكلف بهذا من باقي سادة قريش الذين كانوا يقومون بمهام اخرى .

من ناحية ثانية، اذا اردت رسم صورة لنشاطات ابي سفيان في التجارة الخارجية يمكنني القول انه كان يصرف اعماله كغيره من التجار الذين كانوا يلتزمون بالمعاهدات الاقتصادية التي فرضتها عليهم السلطات القائمة على تخوم الجزيرة. كمعاهدة ٥٦١ م التي ذكرتها سابقا. ولا استبعد ان يقوم تاجر محنك كابي سفيان بكل ما يلزم لانجاح تجارته كمحاباة حكام المناطق او دفع الاتاوة لهم او رشوتهم وربما خداعهم.

اما الرواية التي تذكر ذهابه والعباس الىاليمن فان لها مدلولا مهما يتخطى موضوع الكذب والخداع من اجل المنفعة التجارية وهو كالآتي: اذا كان ابو سفيان قادرا على اخفاء هويته فقط بالادعاء بانه من كندة فان هذا يعني انه لم يكن تاجرا مشهورا وان قافلته ليست قافلة رئيسية في طريق التجارة المعهودة (كما يصور المؤرخون التقليديون)، وانها ليست قافلة عظيمة ينتظرها التجار والوسطاء في محطات التجارة لانها لا تدل علىصاحبها او تميزه او تدل على الجهة التي قدمت منها. واظن ان هذا المنطق يمكن تطبيقه على تجارته مع اليمن لان الرواية تذكره، لذلك فانني استدل بهذا علىان تجارته مع اليمن تبدو وكانها كانت ضعيفة او متقطعة. اما اذا قلت ان الانباء عادة تنتشر بسهولة عبر طرق التجارة ومحطاتها في مجتمعات بدائية الى حد كبير لا تكثر فيها وسائل التسلية استطيع ان استنتج بان قوافل بحجم قافلة ابي سفيان لا يمكن عدم ملاحظتها ومعرفة الجهة القادمة منها، حتى وان لم تأت الىهذا البلد او ذاك بطريقة معهودة. واود ان اذكر دليلا على هذا ما ذُكر في القرآن عن وصول قافلة الى يثرب والنبي محمد يخطب يوم الجمعة. اذ انفض عنه اصحابه وتحولت المدينة الى عرس وخرجوا لملاقاة القافلة بالطبول والاهازيج .[٨٤] وهذا يدل على اهمية وصول قافلة الى بلدة او محطة على طريق التجارة، مما يجعل موضوع اخفاء هوية اصحابها والجهة التي جاؤوا منها امرا شبه مستحيل، الا اذا كانت القافلة غير مهمة ولا تحمل بضائع ثمينة. واذا ذهبت بهذا المنطق الىهذا الحد قد استنتج ان تجارة ابي سفيان لم تكن مهمه جدا في بلاد الشام ايضا، لان قافلة مكية بالحجم والاهمية التي يصفها المؤرخون التقليديون كان يجب ان تلاحظ ولو خرجت الى اليمن. واذا اخذنا الرواية- ان صحت - بحرفيتها نجد انها توحي بان العباس وابا سفيان كانا يكرران هذا الشيئ .

وتجدر الاشارة الى انهما كانا نديمين [٨٥] وان ذكرهما سوية قد يخرج هذه الرواية من دائرة الشك بان المؤرخين العباسيين وضعوها لانها تسيء الى جدهم الاكبر، كما تبرئ الرواة الذين كانوا يقصون الحكايات على معاوية وغيرهم من اتهامهم بتأليفها لانها ايضا تسيئ الى ابي سفيان، والد الخليفة الاموي الاول. ولا نجد – في رأينا – مؤثرات اخرى توحي بوضعها.

من جهة ثانية، اعتقد ان الرواية التي تتحدث عن امانة ابي سفيان وتأدية المال الى النبي، قد تكون وضعت لارضاء معاوية، مع العلم ان تأدية ارباح التجارة لاصحابها هي من شروط استمرار التاجر الناجح. اما الرواية التي تذكر مواجهته لعمر من اجل الدواوين فتبدو انها من الانماط التي وضعت في الروايات التي تتحدث عن الفيء ضمن اطار المغازي لاظهار نجاح المسلمين في فتوحاتهم و تحقيق نبوات محمد في تدفق الغنائم على امته،[٨٦] ولعل ابا سفيان– الذي كان كهف المنافقين – لأبلغ شاهد يستعمله المؤرخ المسلم لتصديق نبوؤة محمد، وهو التاجر الكبير الذي يمكنه ان يشهد على تدفق الاموال الى خزائن المسلمين، لا أي رجل فقير من قريش يمكن ان يبهره القليل من الفيء.

من ناحية ثانية، ترسم باتريشيا كرونه لابي سفيان صورة مختلفة كليا عن المصادر الاسلامية. فهي تنكر ان يكون ابو سفيان قد ذهب الى الشام اوالى اليمن، وتعتقد ان تجارته لم تتعدى سوق عكاظ وان مصادره لم تصل ابعد من الطائف.[٨٧] كما تستبعد ان يكون قد اتى بمنتوجات افريقية اوهندية من عاج ورقيق وذهب وبهارات وافاوية وحرير عبر اليمن. و تقول ان لامنس اشاع هذه الفكرة ثم اخذها منه واط ودونر واعتبراها حقيقة ثابتة .[٨٨]

اعتقد ان كرونه محقة بشأن المبالغات التي اتى بها لامنس. فقد جعل من مكة امبرطورية تجارية وصور ابا سفيان وكانه يتربع على عرش هذه الامبراطورية التي تسيطر على طرق التجارة بين الشرق والغرب. لكنها تبدو لي متطرفة في رفضها جميع الروايات عن علاقات المكيين بخارج الجزيرة. خاصة ان بعض النصوص الغير عربية كمعاهدة ٥٦١ م ذكرت ارتياد التجار العرب الى الشام ووضعت شروطا لذلك كما ذكرت سابقا. لذلك يبدو ان ابا سفيان قد يكون واحدا من هؤلاء التجار العرب الذين

خضعوا للمعاهدة المذكورة. كما لا استبعد ذهابه الىاليمن، لكنني اتوخى الحذر في قبول أي بضائع تجارية لم تجمع عليها الروايات، وقد تكون الفضة واحدة من البضائع التي حملها معه ابو سفيان لوجود مناجم قديمة في القصيم في الجزيرة العربية.

الفصل الرابع
علاقة أبي سفيان بالنبي محمد

١- <u>مرحلة ما قبل الهجرة</u>

يوجد في المصادر الاسلامية نوعان من الروايات التي تذكر علاقة أبي سفيان بالنبي محمد قبل الهجرة: روايات تظهر ليونته تجاه الدعوة المحمدية وشخص الرسول، وهي الأكثر، وروايات أخرى تذكر تصديه للنبي واعراضه عن الدعوة في هذه المرحلة وهي قليلة. وأبدأ النوع الأول بايراد رواية تكررت في كثير من المصادر استعملها المفسرون للدلالة على اعجاز القرآن، وليثبتوا أن كبارالقوم أصحاب العقول الراجحة والرأي الصائب، كأبي سفيان انما أعرضوا عن الدعوة المحمدية لعنادهم بالرغم من حبهم لما سمعوه واستحسانهم للقرآن: حدثنا الزهري قال حدثت: أن أبا جهل وأبا سفيان والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليسمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي بالليل في بيته، وأخذ كل منهم مجلسا ليستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه. فباتوا يستمعون له. حتى اذا أصبحو، أو طلع الفجر، تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا نعودن، لو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا، ثم انصرفوا، حتى اذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم الى مجلسه، فباتوا يستمعون له. حتى اذا طلع الفجر تفرقوا. فجمعهم الطريق. فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا اول مرة، ثم انصرفوا. فلمّا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى اذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فقالوا: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود. فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا. فلما أصبح الأخنس بن شريق، أخذ عصا، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: حدثني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد. فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها، قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به، قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما

سمعت من محمد ؟ قال: ماذا سمعت ؟ قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى اذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه، قال: فقام عنه الاخنس وتركه. [١]

أما البلاذري، فينقل روايات عن حسن معاملة ابي سفيان للنبي اذكر منها نموذجين، نقلهما عن المدائني:

" أقبل أبو سفيان من الشام ومعه هند ومعاوية على حمار، فلما دنوا من مكة لقيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال ابو سفيان لمعاوية: انزل يركب محمد، فقالت هند: أينزل ابني لهذا الصابئ ؟! قال: نعم انه خير منك ومني ومن ابنك، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: أسلم يا أبا سفيان. وأنت يا هند فأسلمي فاني أضن بكما عن النار". [٢]

أما في الرواية الثانية فيقول المدائني:

"... ولطم ابو جهل فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرأت أبا سفيان فشكت اليه، فرجع معها اليه وقال: ألطميه قبحه الله، فلطمته، فقال: أدركتكم المنافية يا أبا سفيان. وأخبرت فاطمة رسول الله صلى الله عليه وسلم بما كان من ابي جهل ومن أبي سفيان فقال: اللهم لاتنسها لأبي سفيان .

ولعلَ هذه الرواية الثانية هي نسخة مزيدة لرواية ذكرها ابن اسحاق:

"... عن يونس بن عمرو، عن أبيه، قال: شجَ غلام من قريش فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي غادية، فنادت يال عبد شمس. فخرج ابو سفيان، وخرج أبوجهل، فقال يا أبا سفيان هذه يدي، فرجع. [٣]

اما الروايات التي تذكر تصديه للنبي، فهي عادة تحمل الطابع العام للنزاع بين قريش ومحمد وهو الصراع على الموقع السياسي، لا من أجل ضغينة شخصية، كما هي الحال مع بعض سادات قريش. يقول البلاذري:

[عن] المدائني قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعكرمة بن أبي جهل: أقاتلتني وأنت تعلم أني رسول الله ؟ قال: لا، وقال لأبي سفيان مثل ذلك فقال: علمت

انك صدوق لا تكذب، وإنما قاتلناك لأنك تعلم حالي في قريش وجئت بأمر لا يبقى معه شرف، فقاتلناك حمية وكراهة لأن تذهب شرفي. (٤)

كما يذكر البلاذري رواية جاءت على لسان معاوية بن أبي سفيان تتحدث عن منعه من اعتناق الإسلام من قبل والديه:

" ... عن معاوية قال: لقد دخل الإسلام في قلبي ولكن أبوي كانا يقولان لئن أسلمت لنمنعنك القوت " (٥)

في جميع الأحوال يبدو من خلال المصادر أن أبا سفيان في مرحلة ما قبل الهجرة كان ما يزال في الصف الثاني لزعماء بني عبد شمس. إذ يظهر في جميع الروايات التي تتحدث عن اجتماع أشراف قريش، في الفترة التي تمتد من يوم الجهر بالدعوة حتى هجرة النبي، دائما في الصف الثاني بعد اعمامه عتبة وشيبة ابني ربيعة. ونأخذ رواية ذكرها الطبري تحكي قصة إجتماع أشراف قريش للتآمر على النبي ليلة الهجرة كنموذج لظهور ابي سفيان بين أسياد مكة:

" عن ابن عباس قال: لما اجتمعوا لذلك واتعدوا ان يدخلوا دار الندوة ويتشاوروا فيها في أمر رسول الله صلعم غدوا في اليوم الذي اتعدوا له وكان ذلك اليوم يسمى الزحمة، فاعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل .... فدخل معهم وقد اجتمع فيها أشراف قريش كلهم من كل قبيلة من بني عبد شمس شيبة وعتبة ابناء ربيعة وأبو سفيان بن حرب ... " (٦)

٢- مرحلة ما بعد الهجرة

أما الروايات التي تتحدث عن مرحلة ما بعد الهجرة، فتوحي بأن أبا سفيان كان له دور فاعل في التصدي للدعوة المحمدية. وقد كان هذا التصدي على ثلاثة مستويات: السياسي والاقتصادي والعسكري. ويذكر ابن حبيب في المحبر رواية تندرج في إطار التصدي السياسي للنبي قال:

" ...... وذلك ان رسول الله صلى الله عليه لما قدم المدينة كتب أبو سفيان بن حرب وابي بن خلف الجمحي الى الانصار :" أما بعد فانه لم يكن حي من أحياء العرب ابغض الينا أن يكون بيننا وبينهم نائرة منكم. وانكم عمدتم الى رجل منا، أشرفنا في الموضع وأعرقنا في قومنا منصبا، فآويتموه ومنعتموه. ان هذا عليكم لعار

ومنقصة. فخلوا بيننا وبينه. فان يك خيرا فنحن أسعد به . و إن يك سوى ذلك فنحن أحق من ولى ذلك منه . " (٧)

فرد على أبي سفيان كعب بن مالك قائلا الأبيات التالية التي يمدح فيها النبي ويؤكد التزام الانصار بعهدهم مع النبي :

أبلغ ابا أنه قال رأيـــــــــه وحان غداة الشعب والحين واقع

أبى الله ما منتك نفسك انــــه بمرصاد أمر الناس راء وسامع

وأبلغ أبا سفيان أن قد أضا لنا بـأحمد نور من هدى الله ساطع

فلا ترعين في حشد أمر تريده و ألب وجمع كل ما أنت جامـــع

ودونك فاعلم أن نقض عهودنا أباه عليك الرهط حين تبايعـــوا(٨)

من ناحية ثانية، تدل رواية لابن حبيب ايضا ان أبا سفيان كان يبيع بيوت المسلمين الذين هاجروا مع النبي. وأن جميع المساعي لثنيه عن ذلك اخفقت (٩). ولا تذكر المصادر اساليب اخرى لمحاربة المسلمين اقتصاديا سوى بيع املاكهم او الاستيلاء عليها ويبدو ان هذه الحرب الاقتصادية كانت وقتئذ تشن على صعيد واسع من قبل النبي واصحابه الذين كانوا يحاولون قطع طرق التجارة المكية. فكان القرشيون يبعثون الكتائب لمواجهتهم واعادة الاستقرار الى طرقهم. ويذكر الطبري مواجهة بين سرية من ستين مهاجرا ومجموعة من القرشيين تضم مئتي رجل. واقتصرت المواجهة على رمي بالنبل دون المسايفة كما يقول الطبري، وحدثت هذه الواقعة ثمانية أشهر من هجرة النبي الى يثرب. ويقول الواقدي ان أبا سفيان كان يقود القرشيين بينما يذكر غيره ان القائد كان مكرز بن حفص. (١٠)

زيادة على ما سبق، يذكر الواقدي روايتين يقول فيهما ان أبا سفيان كان يترصد للقرشيين الذين يحاولون الهجرة الى يثرب فيلحق بهم على رأس مجموعة من المقاتلين ويردهم الى مكة. (١١)

من ناحية ثانية، يصر الأزرقي على هذه الميزات القتالية لأبي سفيان ويقول أنه كان [دائما] " يقود قريش بعد أبيه حتى كان يوم بدر فقاد الناس عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وكان أبو سفيان بن حرب في العير يقود الناس " .(١٢)

و فضلا عن ذلك فقد برز ابو سفيان في الروايات التي تتحدث عن مرحلة الصراع بين النبي وقريش حتى أن قريشا أرادت تنصيبه ملكا عليها اوعرضوا عليه ذلك فرفض حسب رواية ابن هشام (١٣). وقد تفرد ابن هشام بهذه الرواية ولم ينقلها غيره. وتجدر الإشارة الى أن ابن الاثير يذكر في " أسد الغابة " أن أبا سفيان " كانت اليه راية الرؤساء التي تسمى العقاب واذا حميت الحرب اجتمعت قريش فوضعتها بيد الرئيس... " (١٤).

وعلى الرغم من ان أبا سفيان كان والد معاوية، الخليفة الاموي الأول الملقب بكسرى العرب (كما ذكرت سابقا)، فإنني قد أستطيع تحديد منزلته ومكانته في قريش – قبل معركة بدر – من دراسة النصوص التي بين ايدينا.

ان منزلة أبي سفيان لا تنفصل عن مكانة عشيرته (بنو عبد شمس) في قريش. وقد قال عنهم الشاعر الأموي ابن قيس الرقيات:

و إنهم معدن الملوك فلا تصلح إلاعليهم العرب (١٥)

وان كنا نتوقع من شاعر أموي، خاصة ابن قيس الرقيَات، ان يقول هذا لكن الروايات في المصادر المبكرة كسيرة ابن اسحاق تؤكد ان عتبة بن ربيعة عم ابي سفيان وحموه وعمه الآخر شيبة بن ربيعة كانا من وجهاء قريش وقادتها في كل مناسبة، خاصة يوم بدر (١٦).

ويبدو ان طبيعة الحياة القبلية في قريش لا تقبل بتنصيب ملك عليها كما ترفض سيطرة عشيرة واحدة على مقدرات الامور. وان قصة عثمان بن الحويرث لخير دليل على ذلك. فعلىالرغم من مساعدة البيزنطيين وأحلافهم له للسيطرة على مكة وجعلها محمية بيزنطية، كما يقول لامنس وواط (١٧)، فقداخفق ابن الحويرث في ذلك لانه حاول تنصيب نفسه ملكا على مكة. ويقول واط أن هذا كان السبب الأهم لمعارضة العشائر له، ومن ضمنها بنو أسد عشيرته نفسها (١٨). لذلك اميل الى التشكيك في كل الروايات التي تقول ان قريشا ارادت تنصيب أبي سفيان ملكا عليها اوعرضت ذلك عليه فلم

يقبل[١٩]. وأعتبرها وضعت ربما لتمجيد ابي سفيان ارضاء لمعاوية ابنه، او للمبالغة في نفوذ ابي سفيان وقوته لأنه كان عدو النبي الأول، بعد يوم بدر.

فتكون نتيجة ذلك تمجيد انتصار المسلمين عليه وعلى قريش وتبرير عداوته للنبي وأصحابه. وهناك قصة موازية لهذه معروفة في التراث الإسلامي التي وضعت لهذه، وهي قصة عبد الله بن ابي بن سلول في المدينة الذي تروي المصادر أن أهل يثرب كانوا يجهزون له التاج عشية قدوم النبيَ الى المدينة [٢٠]، وأن حرمانه من هذا الملك دفعه الى النفاق والسعي للقضاء على دعوة النبي سرا، لا لأنه لم يقتنع برسالة محمد ولم يصدقه، بل لأن مصالحه ذهبت عندما سيطر النبي على يثرب.

من ناحية ثانية، اود مقارنة الرواية التي تذكر ذهاب ابي سفيان ليلا الى دار النبي لاستراق السمع والرواية التي تذكر سؤال النبي له وعكرمة، وأرى ان هناك ناحيتين تشترك فيهما الروايتان. أولا: النتيجة التي هي ان قريش كانت تعارض النبي عنادا واستكبارا. وثانيا: وجود عكرمة وهو البدل الكفؤ لوالده ابي جهل، وهو الذي حارب النبي بعناد وقاتله يوم فتح مكة وقاد مجموعة متهورة من الفتيان. فكأن هذه الرواية وجدت لتأكيد مغزى الرواية الأولى. وهذه القصص برهان على الانماط التي ذكرت.

ولئن كان جواب عكرمة، الذي حل مكان ابي جهل في الرواية، يتطابق مع ما يذكره المؤرخون عن حسن إسلامه لاحقا واستبساله في ايام الفتوح ويجعل من مواقفه السابقة في تصديه للنبي نوعا من طيش الشباب، فإن مغزى الرواية نفهمه مما قاله ابو سفيان فقط:" علمت انك صدوق لا تكذب، وانما قاتلناك لأنك تعلم حالي في قريش ... فقاتلناك حمية " واستبعد أن يقوم زعيم كمحمد بإثارة موضوع يعيد الحزازات والاحقاد، خاصة ان عكرمة قتل ابوه، وأبو سفيان فقد ولده حنظلة وأعمامه في يوم بدر. فمن الطبيعي ان لا يقوم أي قائد عبثا بفتح جروح قد تكون اندملت، دون هدف سياسي او عسكري ظاهر .

كذلك فاننا، لا نجد ذكرا لمنافرة بين بني مخزوم (عشيرة أبي جهل) وبني عبد مناف في التراث تروى ما ورد على لسان ابي جهل. ونعتقد انها لو حصلت لاشتهرت

كثيرا لما فيها من اعتراف (من قبل عبد مناف) بنبوة محمد. لذلك أرجح ان رواية استراق السمع وضعت للتأكيد على المغزى الذي ذكرت.

مهما يكن فإن العصبية لا بد لعبت دورا مهما في الحياة السياسية والاجتماعية في مكة. وان أي عقيدة جديدة، قد ترفع اقواما وتخفض آخرين، سيواجهها النظام القبلي السائد لأنها تضر بمصالح أشراف القوم وتعيد رسم الخريطة القبلية للمجتمع. ويمكننا ان نفهم موقف ابي سفيان وغيره من أسياد مكة من خلال هذه النظرة للامور .

وفي هذا السياق، نذكر كمثال على اهمية العصبية في حياة قريش موقف ابي طالب عم النبي الذي لم يسلم حتى يوم مماته، لكنه منع محمدا من الأذى و حماه من المشركين حتى اللحظة الأخيرة من حياته. وعندما توفي اشتدّ اذى المشركين لأن النبي أصبح وقتئذ دون حماية عشائرية فاعلة. اذ يبدو ان أعمامه الباقون لم يكن لهم النفوذ الكافي لحمايته.[٢١] اما عمه ابولهب فان تخليه عن محمد كان له ايضا اسباب خاصة. اذ انه كان متزوجا من ام جميل شقيقة ابي سفيان، فكان لها اكبر الاثر في استمالته الى عشيرتها المعادية لمحمد[٢٢]. بل ساعد في ايذائه وفسخ خطوبة ولديه على ابنتي النبي، ووقف في صف المقاطعين له في يوم الشعب[٢٣]. ويبدو ان هذه العصبية كانت الدرع الواقي الذي حمى النبي من التعرض للقتل طيلة فترة الدعوة في مكة. وتؤكد هذا الكلام الرواية التي تتحدث عن اقتحام بيت محمد ليلة الهجرة، بعد اختيار شاب من كل عشيرة للقيام بذلك ليضيع دمه بين القبائل [٢٤]. ونحن لا نجزم هنا بصحة هذه الرواية، لكننا نستطيع ان نقول ان الراوي استعمل مادة العصبية في قصته لانها كانت رائجة في ذلك العصر. لكن على الرغم من هذا الصراع القبلي، يبدو ان ابا سفيان كان يتميز بعدم التورط عاطفيا في نزاعه مع النبي وعزل المشاعر الشخصية، ككل سياسي ناجح يتعاطى مع الواقع بما تمليه المعطيات، ويتصف بمرونة واعتدال يجعلانه يضع كل شيئ في موضعه.

ولذا قد يندرج في هذا الاطار الروايتان اللتان تذكران دفاع ابي سفيان عن فاطمة بنت محمد – خاصة رواية ابن اسحاق – لأن فاطمة استنجدت ببني عبد شمس مما قد يدفع أبا سفيان الى تلبية ندائها وفقا لأبسط الأعراف القبلية. ولا أستبعد احتمال ان يكون الاخباريون الامويون قد وضعوهما لتبييض صفحة ابي سفيان السابقة لاعتناقه

الاسلام. لكنني اتوقع من أي شريف في قومه حدًا أدنى من المرؤة و الشهامة، تخوله السيادة في مجتمع قبلي لا يبرز فيه إلا من يتمتع بصفات قيادية فعلية علىالمستوى الشخصي حيث لا يوجد مؤسسات حقيقية يسوس القائد المجتمع من خلالها. ونجد عبارة يصوغها ريتشارد بيرتن تلخص هذه المعاني وتصف هكذا مجتمع افضل وصف هي " المجتمع الأسدي " (Societe Leonine)[٢٥]. لذلك لا أستغرب أي موقف من زعيم قرشي يعكس شهامة ومرؤة، وهي صفات تغنى بها العرب في أشعارهم وقدموها على المال والجاه والحسب و النسب.

اما بالنسبة للرواية التي تتحدث عن منع ابي سفيان لابنه معاوية من اعتناق الاسلام، فقد أميل الى تصديقها لسببين: اولا، يُروى ان معاوية اصبح من كتبة الوحي المشهورين بعد فتح مكة [٢٦]. لذلك فان ثقة النبي به ربما تتطلب أسبقية في الاسلام او رغبة مبكرة في اعتناقه. ثانيا، ربما يكون معاوية في حداثة سنه قد رغب في تجربة هذا الدين الجديد في مكة، شأنه شأن بعض الشباب الميسورين كسعد بن ابي وقاص وغيره، الذين كانوا يترددون على النبي محمد و يرغبون في مخالفة الآباء و كبار السن في معتقداتهم، ويريدون تجربة هذا الشيئ الجديد على المجتمع المكي وقتئذ، على غرار الشبان في كل عصر، الذين قد يجذبهم أي تيار جديد في المجتمع.

من ناحية ثانية، يجب ان نفهم ان رجلا في مقام ابي سفيان لا يستطيع الا التصدي لهذه الدعوة الجديدة التي تشكل خطرا على مصالح قومه بشكل عام، وعشيرته وهي التي كانت تتصدر العشائر الاخرى في التجارة والسيادة على مكة. وان كان ابو سفيان ما يزال في الصف الثاني في هذه المرحلة كما ذكرت سابقا.

اما الرواية التي تذكر ترجل معاوية وقوله انه خير منك ومني ومن ابنك فعنصر المبالغة فيها وبصمات المؤرخين المسلمين فيها واضحة – على ما أظن. والراوي لا يذكر أية تفاصيل تدعو الى تصديقها، ولم يأت على ذكر قافلة كان حمار ابي سفيان من ضمنها، اذ لايعقل لثلاثة اشخاص ان يسافروا وحدهم من الشام الى مكة. وان كان هناك قافلة و لم تُذكر فليس من المنطقي ان يعلن ابو سفيان ان محمدا هو افضل منهم جميعا في مرحلة دقيقة من الصراع على النفوذ في مكة.

واستنتج مما سبق ان الصراع بين ابي سفيان والنبي لم يكن عقائديا، بل سياسيا ومصلحيا. ويظهر هذا ايضا من موقف النبي تجاه معارضيه الباقين الذين كانوا يفسدون عليه دعوته،اذ لم يمنحهم أية فرصة للاستسلام اولاعتناق الإسلام في بعض الاحيان. بل نكل بهم او نفاهم من مكة، كعقبة بن ابي معيط(٢٧)والحكم بن ابي العاصي بن امية(٢٨).

اما فيما يتعلق بالروايات التي تذكر ابا سفيان وصراعه مع النبي في مرحلة ما بعد الهجرة والتي سبقت يوم بدر، اود ان أبدأ بمعالجة الرواية التي تذكر الكتاب الذي وجهه ابو سفيان الي يثرب. ولقد ذكرت سابقا ان ابا سفيان كان من الذين كانوا يكتبون من قريش وهنالك روايات كثيرة تحدثت عن ذلك، فلا أستغرب ان يكون قد كتب رسالة الى جهة معينة. لكن بصمات المؤرخين المسلمين واضحة في الكتاب، اذ ان الكلمات التي تصف النبي بأنه " أشرف من في قريش موضعا وأعرقهم منصبا " تدل على ذلك. بالإضافة الى لهجة الخطاب التي لا نتوقعها في موقف كهذا ومرحلة تتميز بالصراع العنيف بين النبي وقريش، خاصة الجملة الأخيرة : " فإن يك خيرا فنحن أسعد به. وان يك سوى ذلك فنحن أحق من ولى ذلك منه ". وكأن كاتب الرسالة يقر بالمستقبل الواعد للدعوة المحمدية ويريد الإستئثار بهذا الخير لقومه. كما ان كاتب الرسالة لا يأتي على ذكر آلهة قريش التي عابها النبي ولا الأجداد الذين سفههم ولا أي من الامور التي كانت تعد نقيصة في حق النبي محمد. فضلا عن كل هذه الامور لا نتوقع ان يكون القرشيَون قد كتبوا الى أهل يثرب في زمن استبعد فيه وجود مرجع أو مؤسسة لتسلم الرسائل، خاصة ان الرواية لا تذكر الى أي زعيم من " الانصار " كانت هذه الرسالة موجهة. ونتوقع في ظروف كهذه ان يرسل القرشيون وفدا ام مبعوثا لمفاوضة الانصار، لان الاتصالات الشخصية في مجتمع قبلي لا بد كانت أهمَ بكثير من أي مكاتبة ولا تقارن بها البتة. ويجب ان نذكر هنا انَ الشعر الذي رد فيه كعب بن مالك على ابي سفيان وابي بن خلف، ربما يستكمل صورة الانطباع الذي أخذناه عن هذا الكتاب، وكأنه كُتب من أجل الحصول على الرد الذي يمدح النبي ويمجده، ويذكر وفاء الانصار بعهودهم.

اما الروايات التي تذكر نشاطاته الحربية قبل يوم بدر، على شخصية القائد واصرار الواقدي على انه كان ابا سفيان، لا مكرز بن حفص، فأقول: ربما استبعد

المؤرخون ان يكون ابو سفيان هوالقائد لأن الروايات تشير انه كان لا يلجأ الى العنف إلا إذا كان الملاذ الاخيروالذي لا محيص عنه، ويفضل الطرق الاخرى ان وجدت. وقد يكون الواقدي أصر على انه ابوسفيان لان المواجهة لم تحصل فيها المسايفة التي تتطلب شجاعة ليلصق به صفة الجبن مثلا. وعلى كل حال فان رواية كهذه قد لا تسيء الى مكانة ابي سفيان ولا استبعدها، اذ ان المجتمع القرشي لا بد كان يتوقع من الزعيم القيام بأعمال حربية تثبت دائما صفاته الشخصية المميَزة .

من ناحية ثانية، أميل الى الشك في روايتي الواقدي اللتين يذكر فيهما ان أبا سفيان كان يرصد المهاجرين الى المدينة ويردهم الى مكة، لانه لا يذكر أي أسما من اسماء الرجال اللذين ردهم ابو سفيان. وهذا يضعف الروايتين معا و يجعلني أظن أن الواقدي ربما اراد الإساءة لأبي سفيان ليظهره بمظهر المفسد في الارض الذي يصد عن سبيل الله وهدي نبيه. وتجدر الإشارة الى أن هاتين الروايتين لا تردان في مصادر اخرى .

اما ما يتعلق بالرواية التي يذكرها الأزرقي وحده عن قيادة ابي سفيان لقريش في الحرب بعد أبيه، وأن عتبة قاد قريش في بدر فقط بسبب غياب ابي سفيان في تجارته، فأنا اعترض على هذه الصورة المبسَطة والعامَة لقيادته الحربية، وان كان والده حرب ربما قاد قريش في حروب ماضية، إذ ان المجتمع القرشي لا يبدو انه كان يعترف بخلافة الولد البكر للزعيم بقدر ما يهمه الصفات القيادية التي تخول أي رجل مؤهل للقيادة لخلافته في منزلته من قريش. وهذا برأيي قد يكون ما حصل بوجود حميه عتبة بن ربيعة وأخيه شيبة، اللذين قتلا في يوم بدر. ولعل السبب في اصرار عدد من المؤرخين على أنه كان قائد قريش في كل المراحل، نجاح ابنه معاوية في انتزاع الخلافة والجدل السياسي الذي حصل بين المؤرخين على شرعية خلافته ونزاعه مع علي. و ربما لو نجح في ذلك رجل آخر من عشيرة أخرى من ولد صفوان بن أمية الجمحي مثلا – لحاز اهتمام المؤرخين ولوجدنا روايات تمجد صفوان وتحكي عن شجاعته وحنكته في غزوة القردة وغيرها.

وألاحظ في هذا السياق قلة الروايات التي تتحدث عن رجالات من قريش كانوا يقودونها جنبا الى جنب مع ابي سفيان في الحرب والسلم، وربما كان سبب تسليط

هؤلاء المؤرخين الأضواء عليه انهم كانوا يبحثون عن رجل من قريش يضعونه في مواجهة النبي محمد الذي كان بلا شك المرجع والمشرّع والزعيم الأوحد للمسلمين في تلك المرحلة .

ولقد ذكرت سابقا ان مكانة أي رجل في مكة كانت تنبع من نفوذ عشيرته وغناها. فضلا عن المزايا الشخصية التي يجب ان يتمتع بها القائد. لذلك لا أستغرب بروز ابي سفيان في قيادة مكة عقب هلاك معظم أشرافها في بدر، إذ أنه كان يتمتع بالامرين معا. لكن هذا لا يعني انه تفرد وحده بالقرار. إذ يجب ان لا ننسى ان طبيعة قريش العشائرية كانت لا تسمح لرجل او عشيرة واحدة بذلك. ولا أنكر أنه كان لأبي سفيان الثقل الاكبر في القرار، لكن كان هناك رجال آخرون من العشائر الاخرى لهم رأي ومشورة، كصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وأبي لهب والعباس بن عبد المطلب وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص. وقد شارك هؤلاء في القرار مع ابي سفيان في مرحلة التصدي للنبي محمد كما سنرى لاحقا. ويبدو ان صورة ابي سفيان الزعيم الاوحد وصلتنا لان المؤرخين سلطوا عليه الأضواء أكثر من غيره من رجالات قريش لأنه والد معاوية كما ذكرت من قبل. لا أنكر أنه كان لأبي سفيان ثقل كبير في قرارات المكيين لمكانة عشيرته المميّزة وصفاته القيادية التي ذكرت، لكنَ هذا الثقل لا بد كان يزيد او ينقص وفقا لانجازاته اليومية او المرحلية ايضا. فعندما أنقذ قافلة قريش يوم بدر وقادها الى شاطئ الامان تعاظم نفوذه وأصبح صاحب الكلمة الاولى. لكنني لا استبعد ان يكون أسياد قريش قد وزعوا المهام فيما بينهم في هذه المرحلة، كأي مرحلة مضت، فعلى سبيل المثال لا الحصر، نرى ان صفوان بن امية قاد القافلة الرئيسية لقريش عبر نجد في غزوة القردة، وسهيل بن عمرو قام بالمفاوضات لإنجاز معاهدة الحديبية.

لذلك يمكننا القول ان ابا سفيان كان يقوم بمهمة أسندت اليه من أشراف قريش، عندما قاد قافلتهم يوم بدر، وخاصة انه كان لعشيرته حصة الأسد فيها كما ذكرت.

أستنتج مما سلف ثلاث نقاط هي:

أولا: كان موقع ابي سفيان بين سادات قريش قبل يوم بدر في الصف الثاني. خاصة في عشيرته التي كان يتزعمها عتبة بن ربيعة.

ثانيا: كان موقعه يحتم عليه التصدي للنبي محمد لأن دعوته كانت تشكل خطرا على مصالح قريش. وبذا يكون الصراع بينهما ساسيا ومصلحيا ولم يكتسب الطابع الشخصي.

ثالثا: كان ابو سفيان يتمتع بصفات قيادية، وقد بدأ يبرز في الروايات التي تعالج مرحلة ما بعد الهجرة. لكن صورته تبدو مبالغا فيها لأنه والد معاوية، ولأنه كان من ابرز القادة الذين تصدوا للنبي لاحقا. لذلك فقد بدأ في هذه المرحلة (ما بعد الهجرة) يظهر بصورة رأس الكفر عند المؤرخين الذين يكرهون الأمويين، لتقابل صورته بصورة النبي الذي كان الزعيم الأوحد والمرجع الأول والأخير للمعسكر الآخر.

٣- يوم بدر

تذكر المصادر ان ابا سفيان كان قادما من الشام في قافلة تحمل بضاعة تقدر بخمسين الف دينار [٢٩]. وكان يرافقه عدد من الرجال يتراوح بين ثلاثين وخمسين رجلا وفقا للمصادر المختلفة [٣٠]. ولما علم ابو سفيان بخروج النبي وأصحابه في طلب العير بعث رسولا الى قريش يستفزهم هو ضمضم بن عمرو الغفاري وقال له :" اذا قدمت على قريش فقل لهم لا تستقسموا بالأزلام " [٣١]

كما تذكر المصادر رواية جاءت على لسان العباس بن عبد المطلب، نديم ابي سفيان وهو يروي كيف ان ابا جهل سمع ضمضم عند وصوله الى مكة، وهنا تصدق رؤيا عاتكة (من بني عبد مناف) التي انكرها ابو جهل من قبل وسخر من العباس وعنفه قائلا ان بنات عبد مناف اصبحن يتنبأن كما فعلت رجالهم (أي محمد). وكانت عاتكة قد رأت في منامها أن رجلا كضمضم يصيح بالملأ وينذر بهلاك القوم وذلك قبل وصول هذا النذير بثلاثة ايام . يقول الطبري : ".... وإذا هو [ابو جهل] قد سمع ما لم أسمع صوت ضمضم بن عمرو الغفاري وهو يصرخ ببطن الوادي واقفا على بعيره. قد جدع بعيره وحول رحله وشقَ قميصه وهو يقول يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة أموالكم مع ابي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أن تدركوها الغوث الغوث ". [٣٢]

أما أبو سفيان، فلم ينتظر جيش قريش لنجدته بل غير طريق القافلة، ويصف الواقدي ذلك قائلا: " فأصبح ابو سفيان تلك الليلة ببدر، قد تقدم العير وهو خائف من

الرصد، فقال: يا مجدي [وهو مجدي بن عمرو الجهني، رأى عيون النبي من قبل] هل أحسست أحدا؟ تعلم والله ما بمكة من قريشي ولا قرشيَة له نش فصاعدا- والنش نصف اوقية، وزن عشرين درهما- إلا وقد بعث به معنا، ولئن كتمتنا شأن عدونا لا يصالحك رجل من قريش ما بل بحر صوفه ". فقال مجدي: و الله ما رأيت أحدا أنكره ولا بينك وبين يثرب من عدو، ولوكان بينك وبينها عدو لم يخف علينا، وما كنت اخفيه عليك، إلا أني قد رأيت راكبين أتيا الى هذا المكان - فأشار الى مُناخ عدي وبسبس [وهما جاريتان لجُهينة رأتهما عيون النبي من قبل] فاناخا به، ثم استسقيا بأسقيتهما، ثم انصرفا. فجاء ابو سفيان مناخهما، فأخذ أبعارا من بعيريهما ففته، فاذا فيه نوى، فقال: هذه والله علائف بثرب، هذه عيون محمد وأصحابه، ما أرى القوم إلا قريبا! فضرب وجه عيره فساحل بها وترك بدرا يسارا وانطلق سريعا ".(٣٣)

وفي هذه الاثناء استطاع ابو سفيان ان يفلت من قبضة النبي وأصحابه فأرسل الى قريش قيس بن امرئ القيس يأمرهم بالرجوع، ويقول :" قد نجت عيركم، فلا تجزروا انفسكم أهل يثرب، فلا حاجة لكم فيما وراء ذلك، انما خرجتم لتمنعوا عيركم وأموالكم، وقد نجاها الله. فإن أبوا عليك، فلا يأبون خصلة واحدة، يردون القيان، فإن الحرب اذا أكلت نكلت. فعالج قريشا وأبت الرجوع، وقالوا: اما القيان فسنردهن! فردَوهم من الجحفة. ولحق بالرسول أبا سفيان ..... فأخبره بمضي قريش. فقال: وا قوماه! هذا عمل عمرو بن هشام (ابو جهل)، كره ان يرجع لأنه قد ترأس على الناس وبغى، والبغي منقصة وشؤم. ان أصاب محمد النفير ذللنا الى أن يدخل مكة ".(٣٤)

ثم يذكر الواقدي موقف ابي سفيان في قريش بعد بدر: " ولما رجعت قريش الى مكة قام فيهم ابو سفيان بن حرب فقال: يا معشر قريش، لا تبكوا على قتلاكم ولا تنح عليهم نائحة، ولا يبكيهم شاعر، وأظهروا الجلد والعزاء، فإنكم إذا نُحتم عليهم وبكيتموهم بالشعر أذهب ذلك غيظكم، فأكلكم ذلك عن عداوة محمد وأصحابه، مع انه ان بلغ محمدا وأصحابه شمتوا بكم، فيكون أعظم المصيبتين شماتتهم، ولعلكم تدركون ثأركم،والدَهن والنساء عليَ حرام حتى أغزو محمدا. فمكثت قريش شهرا لا يبكيهم شاعر ولا تنوح عليهم نائحة ".(٣٥)

وعندما سئل هل سيثأر لابنه قال: " .... وإني الموتور الثائر، قتل ابني حنظلة وسادة أهل هذا الوادي ،أصبح هذا الوادي مقشعرا لفقدهم ".[٣٦]

أما هند زوجته فكان لها الموقف نفسه: " ومشى نساء قريش الى هند بنت عتبة فقلن: ألا تبكين على ابيك وأخيك وعمك وأهل بيتك؟ فقالت حلقى، انا ابكيهم فيبلغ محمدا واصحابه، والدهن علي حرام ان دخل رأسي حتى نغزو محمدا. والله، لو أعلم أن الحزن يذهب من قلبي بكيت، ولكن لا يذهبه إلا أن أرى ثأري بعيني من قتلة ألأحبة.

فمكثت على حالها لا تقرب الدهن ، وما قربت فراش ابي سفيان من يوم حلفت حتى كانت وقعة أحد ".[٣٧]

الى جانب ذلك فقد أظهر ابو سفيان أقصى أنواع ضبط النفس عندما رفض فداء ابنه الأسير عمرو خوفا من ان يتكبد القرشيون اثمانا باهظة لتحرير اسراهم. وقد علق قائلا حين افتدى شاب اباه من النبي بأربعة آلاف درهم: " ان هذا الغلام حدث، معجب برأيه، وهو مفسد عليكم! اني والله غير مفتد عمرو بن ابي سفيان ولو مكث سنة او يرسله محمد! والله ما أنا بأعوزكم ولكني لا أكره ان يدخل عليّ او أدخل عليكم ما يشق عليكم ويكون عمرو كأسوتكم ".[٣٨]

وبقي ابو سفيان يترصد اصحاب النبي حتى خرج احدهم معتمرا فأسره وحبسه بمكة بابنه عمرو ثم انشد هذا الشعر، وفقا لرواية الطبري:

أرهط ابن أكال أجيبوا دعاءه	تفاقدتم لا تسلموا السيد الكـهلا
فإن بني عمرو لئام أذلـــــة	لئن لم يفكوا عن أسيرهم الكبلا

فمشى أهل الرجل (بنو عمرو بن عوف الى النبي فأعطاهم عمرو بن ابي سفيان.[٣٩] وعلى الرغم من مرارة فقدان ولده حنظلة فقد حافظ على اتزانه ولم ينزلق الى الاسراف في الثأر، حتى وان اتيح له ذلك. وهذا ما تذكره المصادر عندما كانت زينب بنت الرسول تحاول الخروج من مكة بعد شهر من يوم بدر وتصدت لها قريش فأنقذها حلم أبي سفيان. إذ كان رجلان من قريش قد روعوها برمح فاجهضت وقام حموها كنانة بن الربيع ونثر كنانته وهدد المهاجمين فتدخل ابو سفيان فقال: " ايها الرجل كف عنا نبلك حتى نكلمك فكف فأقبل ابو سفيان حتى وقف عليه فقال:" انك لم

تصب خرجت بالمرأة على رؤوس الرجال علانية وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد فيظن الناس اذا خرج بابنته علانية من بين أظهرنا ان ذلك عن ذل أصابنا عن مصيبتنا ونكبتنا التي كانت وان ذلك منا ضعف ووهن لعمري. ما لنا حاجة في حبسها عن ابيها وما لنا في ذلك من ثؤرة ولكن ارجع المرأة فإذا هدأ الصوت وتحدث الناس أنا قد رددناها فسلها سرا فألحقها بأبيها ففعل حتى اذا هدأ الصوت خرج بها ليلا حتى أسلمها الى زيد بن حارثة وصاحبه فقدما بها على رسول الله صلعم بالمدينة ...". (٤٠)

وتجدر الاشارة ان المصادر تذكر ان اباسفيان وقف اموال القافلة التي نجت لمحاربة النبي ورفض توزيعها على اصحابها ورصدها لتجهيز حملة علسكرية مستقبلية ضد النبي .(٤١)

أبدأ بخبر قدوم قافلة ابي سفيان، واستغرب كيف خاطر القرشيون بقافلة بهذا الحجم بعد ان خاضوا مواجهات عدة مع النبي وأصحابه من قبل. وأتساءل هل كان لمغامرتهم هذه علاقة بكون الشهر الذي مرت فيه القافلة شهر رمضان الذي كان من الاشهر الحرم، وأن المسلمين القرشيين لم يتوقعوا خروج قوة من المسلمين بهذا الحجم (ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلا) في شهر صيام؟

من ناحية ثانية تبدو قصة رؤيا عاتكة من الانماط التي كان يستعملها المؤرخون القدامى لتحضير القارئ او السامع للكارثة التي ستحصل. اما ارسال ضمضم من قبل ابي سفيان لينذر قريش فهو امر محتمل في سياق الاحداث. كما ان وصيته لقريش بالا يستقسموا بالأزلام تظهره كرجل عملي لا يؤمن بالخرافات ولا يريد ان يعيق نجدة قريش له أي شيئ ولو كان من صلب عادات القوم وتقاليدهم.

اما الرواية التي تذكر عثور ابي سفيان على نوى المدينة في بعر الجمال، فمن المستغرب ان يبقى نوى المدينة يظهر في بعرها بعد ان مضى على خروجها من يثرب وقت طويل، كما انه من المستغرب في هذه الرواية ان مجدي بن عمرو لا يقسم الا بالله ولا يذكر أي من آلهة المشركين كهبل واللات والعزى. ففي وقت يخضع فيه رجل لاسئلة من زعيم محاط بالرجال يصبح حينها الامر اقرب منه الى الاستجواب والتهديد، ونتوقع منه ان يبالغ في القسم ويُقسم بآلهة قريش.

من ناحية ثانية يعتقد وانسبرو ان هذه الرواية بالذات تقع في نطاق استعمال التفاصيل الدقيقة ليثبت المؤرخون المسلمون التدخل الإلهي في التاريخ (كما ذكرت سابقا) ولو بأبسط الوسائل واحقرها، إذ يغير العثور على بعرة جمل مجرى التاريخ، فتنجو "العير" التي يطلبها محمد وأصحابه ويبقى " النفير"، فيهلك سادات قريش ويكتب النصر الساحق لمحمد وأصحابه.

أما الرواية التي تذكر أن ابا سفيان بعث رسولا الى قريش يطلب العودة، فهو يتناغم مع مواقف ابي سفيان السياسية. كما ان موقفه من ابي جهل يتناغم ايضا مع موقف العباس منه. وربما كان هذا توافق الندماءفي التفكير والطباع، وان كانت دوافع العباس في موقفه من أبي جهل هنا أقوى لقرابته من النبي، إلا ان ابا سفيان كان ايضا يكره هدر الدماء والاموال دون طائل، ولا يترك العنجهية تلعب برأسه، كما حصل لأبي جهل فأودت المعركة بحياته مع الكثير من زعماء قريش الذين اضطروا الى مجاراته او وافقوا معه على المضي في الحملة العسكرية .

لا أنكر في هذا السياق ان ذكر العباس في الروايات المتعلقة بنشاطات ابي سفيان يبدو من الانماط، و هويقوي حبكة القصة لان عاتكة منافية كما ذكرت والعباس كان أبرز منافي في بدر لتقاعس ابي لهب عن الخروج. ولعل الرواية تحتوي على عناصر كثيرة من عناصر الأسطورة التي تضم الرؤيا والنبوؤة والنذير والرجل (ابوجهل) الذي يحاول مواجهة القدر ولا يعبأ بأي نذير او واعظ فتنتهي القصة بهلاكه. وهذا يجعلني اميل الى القول ان المؤرخ قد استعمل هذه العناصر – التي بعضها خيالي وبعضها واقعي – لانشاء الحبكة المطلوبة للوصول الى العبرة الدينية{ ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب}.[٤٢]

من ناحية ثانية يبدو لي ان الروايات التي تتحدث عن نصائحه لقريش بعدم النواح على القتلى وعدم فداء الأسرى تدل – ان صحت –على حنكة ابي سفيان وتصميمه على مواجهة النبي وأصحابه عمليا. وأرى ان هذه الروايات تتناغم مع مواقف هند زوجته وطباعه التي تدل عليها معظم الروايات من ضبط النفس ورباطة الجأش.

و الى جانب ذلك فإن الرواية التي تذكر دفاعه عن زينب بنت النبي تبدو لي معقولة اذ انها لا تحتوي على عناصر الاسطورة او المبالغات التي تميز الروايات الموضوعة. وهي تتناغم مع الروايات التي تتحدث عن حلم ابي سفيان ورويته.

اما الروايات التي تذكر ان ابا سفيان كان قد وقف اموال القافلة لمحاربة النبي ورفض توزيعها على اصحابها فانها تدل على السيطرة التي استطاع ممارستها على قومه الذين كانوا عادة ينتظرون القافلة بفارغ الصبر، كما تدل على نفوذه الذي أخذ يتعاظم اثر انقاذه للقافلة يوم بدر وهلاك معظم أسياد قريش.

ويمكن ان أخلص الى القول بأن ابا سفيان قد أنجز أمرين في هذه المرحلة:

أولا: أنقذ قافلة قريش من النبي بحنكته، وبذلك أخفق محمد وأصحابه في الحصول على العير التي كانوا يطلبونها.

ثانيا: استطاع وقف أموال القافلة لمحاربة النبي وساعد قريش على التعافي من الصدمة، وبذلك أصبح من أبرز زعماء قريش.

٤- غزوة السويق

تذكر المصادر الاسلامية انه ما أن مضى شهران على يوم بدر، حتى خرج ابو سفيان في مئتي رجل من قريش (وهناك رواية تقول انهم كانوا اربعين رجلا) [٤٣] فجاء بني النضير ليلا وطرق باب حيُي بن أخطب - أحد زعمائهم - فابى ان يفتح له، ثم طرق سلام بن مشكم ففتح له وأكرمه وسقاه خمرا وأعطاه الاخبار التي يطلبها عن النبي أصحابه. فلما كان السحر خرج ابو سفيان فمر بمكان اسمه العريض يبعد عن المدينة حوالي ثلاثة اميال، فقتل هناك رجلا من الانصار واجيرا له وحرق بعض البيوت والاعلاف ثم ولى هاربا. فبلغ ذلك النبي فاستنفر أصحابه وخرج في مائتي رجل من المهاجرين والانصار في أثر ابي سفيان ومن معه. فأخذ القرشيون يتخففون فيلقون جرب السويق التي هي زادهم المعتاد. فراح المسلمون يلتقطونها فسميت غزوة السويق، ثم عادوا الى المدينة بعد ان غابوا عنها خمسة ايام . [٤٤]

كما تذكر المصادر شعرا قاله ابو سفيان في مدح سلام بن مشكم وكرمه، سأذكره لاحقا في الملحق. ونورد ابياتا اخرى يحرض بها قومه. ولا جرم ان كانت من نظمه او نظم من معه، فإن الشعر كان الوسيلة الإعلامية للعرب في ذلك العصر، ولا

نملك أي دليل على صحتها أو تدليسها. وقد روى الطبري في تاريخه على لسان ابي سفيان:

كروا على يثرب و جمعهم	فإن ما جمعوا لكم نفــــل
ان يك يوم القليب كان لهم	فإن مــــا بعده لكـــــم دُول
آليت لا أقرب النســاء ولا	يمس رأسي وجلدي الغسل
حتى تبيروا قبائل الأوس والخزرج	أن الفؤاد مشتـــــعل (٤٥)

فاجابه كعب بن مالك قائلا:

تلهف أُمُ السبحين عـــــلى	حبيش ابن حرب بالعرة الفشـــل
إذ يطرحون الرجال من شيم الطير ترقى لقنـــــــه الجــــبـــل	
جاؤوا بجمع لو قيس مبركة	ما كان الا كمفحص الدول
عار من النصر والثراء ومن	ابطال اهل البطحاء والأسل (٤٦)

ولعل أبا سفيان قام بهذه الغارة الليلية لإعادة الثقة الى نفوس القرشيين وليُظهر لقبائل العرب أن مكة مازالت تحافظ على مكانتها. وان عددالمقاتلين الذين كانوا معه (اكثر الروايات تذكر انهم كانوا مائتي رجل) يجعل هذه الغارة مجرد مناورة عسكرية هدفها تدريب القرشيين وجمع المعلومات، فضلا عن اعادة الثقة للمكيين كما ذكرت، وخلق موضوع جديد يتحدث به العرب. فإن وصوله الى اطراف المدينة ليلا على رأس مجموعة قتالية ربما كان الهدف منه هز صورة النبي، الذي بدا بعد انتصاره الساحق في بدر، وكأنه عدو لا يقهر. وهذه الصورة لا بد كانت مضرة لمجتمع تجاري كمكة، ربما كان يحاول تطويع القبائل المجاورة. فنجاح النبي في معاركه ومناوشاته الحربية ضد مكة لا بد شجع القبائل المعادية لقريش على قطع الطرق ونهب قوافلها، سواء في الشمال او في الجنوب. فكان لا بد من حملة عسكرية دون مخاطر وذات نتائج مضمونة لا خسائر فيها لقريش، لتذكير القبائل المعادية بقوة قريش ومنعتها وتثبيط عزيمة من يريد التحالف مع النبي ضدها. وأستبعد ان يكون ابو سفيان قد خرج في هذه الغارة لأمر شخصي كالبر بالقسم او الثأر، الا اذا كان ذلك لا يتعارض مع المصلحة العامة لقريش. اذ انه كان في كل المناسبات يتصرف باعتباره زعيما مسؤولا

عن سلامة قومه ومصلحتهم. وقد استطاع من خلال هذا الموقف ان يحبط فتنة عشائرية حاول النبي اضرام نارها عندما قُتل احد حلفاء ابي سفيان، أبو أزيهر الدوسي.

٥- حادثة ابي أزيهر الدوسي

يروي ابن حبيب تفاصيل ما حدث قائلا ان أبا أزيهر الدوسي كان حليفا لأبي سفيان وحماه. وحدث ان زوج أبوأزيهر ابنة له الى الوليد بن المغيرة (من بني مخزوم) ثم أمسكها عنه، فلم يدخلها حتى توفي. وذلك لانه علم بعدما اخذ المهر من الوليد انه يضرب نساءه. وعندما ذهب ابو أزيهر مرة (بعد موت الوليد ين المغيرة) الى سوق ذي المجاز نزل على ابي سفيان، فجاء هشام بن الوليد بن المغيرة (وهو صهر ابي سفيان ايضا) فقتله بمهر الوليد " وذلك بعدما هاجر رسول الله صلى الله عليه وانقضى امر بدر واصيب به من اصيب من اشراف قريش من المشركين .... وان رسول الله صلى الله عليه دعا حسان بن ثابت فقال له: " يا حسان! انه قد حدث بين المطيبين واحلافهم شر فقتل فقل في مقتل أبي أزيهر شعرا تحرض به المطيبين على الاحلاف وانبعث حسان يحرض في دم أبي أزيهر ويعير ابا سفيان خفرته ويجبنه فقال:

غدا أهل حصني ذي المجاز بسُحرة	وجار ابن حرب بالمحصَب ما يغدو
كساك هشام بن الوليد ثيابــــــه	فأبل، وأخلف مثلها جُدُدا بعـــــد
قضى وطرا منه،فأصبح غاديـــا،	وأصبحت رخوا ماتخُبُ وما تعــدو
فلو ان اشياخا ببدر شهـــــودُهُ	لبل متون الخيل مغتـــــبطُ ورد
فما منع العير الضروط ذمـــاره	وما منعت مخزاة والدها هنـــــد

فلما بلغ قوله يزيد بن ابي سفيان خرج فجمع بني عبد مناف وصاح في المطيبين فاجتمعوا وابو سفيان بذي المجاز قال: ايها الناس! أخفر ابو سفيان في جاره وصهره فهو ثائر، فتهيأ يزيد واجتمع بهم وبرز بهم، فلما رأت ذلك الاحلاف اجتمعوا فخيموا قريبا. فلما رأى ذلك ابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب خرج على فرس له حتىأتى ابا سفيان بن حرب فأخبره الخبر. وكان ابو سفيان حليما منكرا يحب قومه حبا شديدا، وخشي ان يكون في قريش حرب في أبي أزيهر فدعا بفرسه فطرح عليها لبدا قعد عليه وأخذ الرمح ثم أقبل الى مكة وبها الجمعان وجعل ابو سفيان بن الحارث يقول في الطريق لابي سفيان بن حرب: فداك ابي وامي! احجز بين الناس، فجعل لا يجيبه

الى شيئ حتى قدم عليهم، فوقف بين الجمعين وقد تهيأوا للقتال، فنظر فإذا اللواء مع ابنه يزيد وهو في الحديد مع قومه المطيبين، فنزع اللواء من يده وضرب به بيضته ضربة هده منها، ثم قال: قبحك الله! أتريد أن تضرب قريشا بعضها ببعض في رجل من الأزد [دوس بطن من الأزد] سنؤتيهم العقل ان قبلوه، ثم نادى بأعلى صوته: ايها الناس ان خلفنا عدو شامت - يعني النبي صلى الله عليه - ومتى نفرغ مما بيننا وبينه ننظر فيما بيننا وبينكم، فلينصرف كل انسان منكم الى منزله، فتفرقوا وأصلح ذلك الأمر، وبلغ ابا سفيان قول حسان فقال: يريد حسان أن يضرب بعضنا ببعض في رجل من دوس فبئس والله ما ظن ". (٤٧)

وان كنت أظن ان مضمون الرواية صحيح لانه ذكر في الشعر الذي يعبر عادة عن نواحي الحياة من حيث لا يدري الشاعر، خاصة عندما يصدر عن جهة مضادة لأبطال الرواية. لكنني لا أوافق على كثير من التفاصيل المثيرة، كوصول ابي سفيان لحظة استعد الفريقان للمعركة تماما ومناداته. وهذا يشبه الانماط التي يستعملها المؤرخون لاضفاء الحياة على أخبارهم. وهذا الموقف البطولي يشبه مواقف عديدة مرت في اخبار اخرى كرواية ابي شجرة ذكرتها سابقا. في المقابل اتوقع من النبي وأصحابه استغلال أي حادثة لاثارة النعرات العشائرية لاضعاف خصومهم القرشيين. وان هكذا موضوعا تبقى دئما احتمالاته موجودة وأسهمه مرتفعة، وأي شرارة يمكن ان تضرم ناره.

٦- سرية القردة

ينقل الطبري رواية عن الواقدي تذكر قصة هذه السرية:

" قال أبو جعفر: واما الواقدي، فزعم ان سبب هذه الغزوة كان ان قريشا قالت: قد عور علينا محمد متجرنا وهو على طريقنا. وقال ابوسفيان وصفوان بن امية: ان اقمنا بمكة أكلنا رؤوس أموالنا. قال أبو زمعة بن الأسود: فأنا أدلكم على رجل يسلك بكم النجدية، لو سلكها مغمض العينين لاهتدى، قال صفوان: من هو؟ فحاجتنا الى الماء قليل، انما نحن شاقون. قال فرات بن حيان، فدعواه فاستأجره؛ فخرج بهم في الشتاء، فسلك بهم على ذات عرق، ثم خرج بهم على غمرة، وانتهى الى النبي صلى الله عليه وسلم خبر العير وفيها مال كثير، وآنية من فضة حملها صفوان بن امية؛ فخرج زيد

ابن حارثة، فاعترضها، فظفر بالعير وأفلت أعيان القوم، فكان الخمس عشرين الفا.."(٤٨).

يبدو لي من هذه الرواية ان زعماء قريش كانوا يبحثون عن مخرج من المأزق الاقتصادي الذي وقعوا فيه بقطع طريق التجارة الى بلاد الشام، خوفا من أن يأكلوا رؤوس اموالهم اذا بقي الوضع على حاله. كما اعتقد ان هؤلاء القادة كانوا يدركون ان صراعهم مع النبي يحتم ايجاد مخرج سريع لهذه الازمة الاقتصادية ليستطيعوا الاستمرار في هذه الحرب ولجم نمو دويلة النبي في يثرب. ومع ان أبا سفيان كان قد وقف اموال قافلة بدر لهذا، لكن استمرار الحياة الطبيعية في مكة التي كان الكثير من اهلها يعتمدون على التجارة على ما يبدو يتطلب استمرار النشاط التجاري باي شكل من الاشكال. و على الرغم من ان بعض المصادر تقول ان ابا سفيان كان هو قائد هذه القافلة إلا انني استبعد ذلك، لانه لابد كان مشغولا في هذه الفترة بجمع القوى العسكرية، والتفاوض مع قبائل ثقيف وبكر وغيرها لحملها على مد يد المساعدة لقريش في حربها مع النبي، بالإضافة الى جمع قوى الأحابيش لذلك. فمن الطبيعي ان يرسل احدا غيره على رأس هذه القافلة في طريق يمرَ شرقي يثرب عبر نجد.

٧- يوم أُحد

بعد الاخفاق الذريع الذي منيت به القافلة التي حاولت عبور نجد، لا بد ان ابا سفيان ومن معه ايقنوا ان الساعة قد حانت للزحف على المدينة للقضاء على النبي الذي قطع عليهم كل طرق التجارة الى الشام. فبدأ ابو سفيان في التشاور مع سادات مكة في كيفية البدء في هذه الحملة العسكرية. فاقترح صفوان بن أمية اصطحاب النساء لتشجيع المقاتلين وثنيهم عن الفرار في ساحة المعركة. ووافقه في ذلك عكرمة بن ابي جهل وعمرو بن العاص، وعارضه نوفل بن معاوية الديلي، ويبدو ان ابا سفيان كان يميل الى رأي هذا الاخير فصاحت هند بنت عتبة زوجته:

" انك والله سلمت يوم بدر فرجعت الى نسائك، نعم نخرج فنشهد القتال، فقد رُدت القيان من الجحفة في سفرهم الى بدر فقتلت الأحبة يومئذ. قال ابو سفيان: لست أخالف قريشا، انا رجل منها، ما فعلت فعلتُ. فخرجوا بالظعن". (٤٩)

فخرج ابو سفيان مصطحبا معه زوجتين. وكذلك فعل صفوان بن امية.

وخرجت قريش في ثلاثة آلاف، منهم مائة رجل من ثقيف، ومعهم مائتا فرس وسبعمئة درع وثلاثة آلاف بعير.(٥٠)

ولما وصل الجيش الى الأبواء علم ابوسفيان ان النبي علم بخروج قريش فقال : " أحلفُ بالله انهم جاؤوا محمدا فخبَروه بمسيرنا، وحذروه وأخبروه بعددنا، فهم الآن يلزمون صياصيهم، فما أرانا نصيب منهم شيئا في وجهنا. فقال صفوان: ان لم يُصحروا لنا عمدنا الى نخل الأوس والخزرج فقطعناه، فتركناهم ولا اموال لهم فلا يعتبرونها أبدا، وان اصحروا لنا فعددنا اكثر من عددهم وسلاحنا اكثر من سلاحهم، ولنا خيل ولا خيل معهم، ونحن نقاتل على وتر عندهم ولا وتر لهم عندنا " .(٥١)

ثم اقترح بعض رجال قريش نبش قبر أم النبي آمنة (المدفونة في الأبواء) لفداء نسائهم ان خسروا الحرب او للحصول على فدية مالية ان هم انتصروا. فتشاور ابو سفيان مع أهل الرأي في قريش ثم قرر انهم ان نبشوا قبر أم محمد نبشت خزاعة وبكر موتى قريش. (٥٢)

ثم التقى الفريقان في الخامس من شوال من السنة الثالثة للهجرة (٦٢٥م) قرب جبل أحد على بعد ميلين تقريبا من المدينة.

ويقول الواقدي ان القرشيين " صفوا صفوفهم واستعملوا على الميمنة خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن ابي جهل. ولهم مجنبتان مائتا فرس، وجعلوا على الخيل صفوان بن أمية–ويقال عمرو بن العاص... ودفعوا اللواء الى طلحة بن أبي طلحة".(٥٣) (من بني عبد الدار).

ويذكر الواقدي ان ابا سفيان استحدث لواء آخر يحمله ايضا رجل من بن عبد الدار، خوفا من ان يسقط اللواء الأول فيتفرق القرشيون.(٥٤) ثم عمد ابو سفيان الى تنظيم صفوف المقاتلين، حتى في التفاصيل الدقيقة، وأمرهم بالتفرَغ كليا للمعركة قائلا:" يا معشر قريش، خلفوا غلمانكم على متاعكم يكونون هم الذين يقومون على رحالكم"(٥٥)

ويبدو ان ابا سفيان كان يشارك في المعركة بنفسه. اذ تذكر الروايات انه قتل في أحد سلمة بن ثابت بن وقش. كما انه كاد هو ان يُقتل. فقد التقاه حنظلة بن أبي عامر الغسيل واستعلاه، فرآه شداد بن الأسود فضربه وقتله، وفر ابو سفيان .(٥٦)

ويبدو ان قريش كانت ضعيفة في قوة المشاة فانهزمت في بادئ الأمر ووصل المسلمون الى رحالهم، وانشغلوا بالسلب والنهب، فنزل الرماة الذين كان يغطون جيش النبي من سفوح الجبل لينالوا الغنائم كرفاقهم، وتركوا هذه الثغرة، فاستغلت هذه الفرصة فرقة الخيالة القرشية بقيادة خالد بن الوليد وضربت جيش المسلمين ضربة قاصمة. وجُرح النبي ولجأ الى الجبل ثلة من اصحابه المقربين. وعندما سرت شائعة في صفوف الفريقين بأن محمدا قد قُتل، أخذ ابو سفيان يطوف بالقتلى يبحث عنه حتى وصل الى خالد بن الوليد الذي نفى هذا القول وأكد له ان النبي صعد الجبل مع أصحابه. فأمتطى ابو سفيان فرسه وأقبل عليهم و نادى بأعلى صوته، كما تقول الرواية: " أعل هبل! ثم يصيح: أين ابن أبي كبشة؟ اين ابن أبي قحافة ؟ أين ابن الخطاب؟ يوم بيوم بدر، ألا ان الأيام دُولٌ ، وان الحرب سجالٌ ، وحنظلة بحنظلة! فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، أجيبه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بلى، فأجبه! والله اعلىو أجل! .... فقال ابو سفيان: أنشدك بدينك ، هل قتلنا محمدا؟ قال عمر: اللهم لا وانه ليسمع كلامك الآن. قال أنت عندي أصدق من ابن قميئة- وكان ابن قميئة اخبرهم انه قتل النبي صلى الله عليه وسلم. ثم قال ابو سفيان رفع صوته: انكم واجدون في قتلاكم عيثا ومثلا، الا ان ذلك لم يكن عن سراتنا. ثم أدركته حمية الجاهلية: اما اذا كان ذلك فلم نكرهه. ثم نادى: ألا ان موعدكم بدر الصفراء على رأس الحول! فوقف عمر ينتظر ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قل، نعم. فقال عمر: نعم! ثم انصرف ابو سفيان ...." .[٥٧]

اذا بدأنا بالتعليق على الروايات بالتتابع نبدأ بالرواية التي تذكر وصول الجيش الى منطقة الأبواء. ونلمس مما قاله ابو سفيان انه ربما كان يميل الى الرجوع، بعد أن قام بعرض ظاهر للقوة. وانه بخروجه كان ينصاع لرأي الأكثرية وربما كان يفضل حجب الدماء والوصول الى ما يريد عبر الوسائل السياسية او السلمية. ويلجأ الى الحكمة والمشورة في معظم الأحوال. ويتحاشى أي أعمال عنف غير ضرورية. لذلك أتوقع ان يكون ابو سفيان قد عارض نبش قبر ام النبي. ولعل هذه الرواية – ان صحت – تدل على خوف قريش من النبي وأصحابه والهلع الذي خلفه يوم بدر في نفوسهم. وان لم تصح فهي وضعت لتدل على العنف الذي يميل " المشركون " الى ممارسته تجاه

" المسلمين ". وهي تكمل صورة الوحشية التي تظهرها الروايات في التمثيل بجثث قتلى المسلمين في أحد. ونلاحظ ان الراوي لم يذكر اسم صاحب او اصحاب هذا الاقتراح (لنبش قبر أم النبي) مما يزيد الشك في الرواية أكثر فأكثر.

اما الرواية التي تذكر الشائعة التي سرت عن مقتل النبي والحوار الذي دار بين ابي سفيان وعمر بن الخطاب، فيبدو ان بصمات المؤرخين المسلمين واضحة في صياغتها في ثلاثة أمور: اولا، استعمل المؤرخون الآية القرآنية {وتلك الأيام نداولها بين الناس}(٥٨)، في الجملة " ألا ان الايام دُول ". فجاءت عبارة قرانية على لسان "مشرك". ثانيا: نادى ابو سفيان على النبي وخلفائه الإثنين (مُستقبلا) بالترتيب: "اين ابن أبي قحافة (ابو بكر)؟ أين ابن الخطاب؟. وهذا يعني ان الرواية (التي جاءت على لسان ابي سفيان في أحد) وضعت بعد خلافة الاثنين اللذين ذكرنا، لأن العادة في ذلك الوقت لا بد كانت ان ينادي بالترتيب ممثلوالعشائر القرشية الأكبر اولا ثم الأصغر، وبنو تيم (عشيرة ابي بكر) كانت من أصغر العشائر في قريش. ثالثا: ان عبارة " وحنظلة بحنظلة "، دون ذكر القتلى الآخرين الكثر من المسلمين يدل على دخول "اسلوب الانماط" الى الرواية، خاصة ان حنظلة بن ابي عامر لا يقارن منزلة بولد ابي سفيان، كما ان ذكره بهذا الشكل يثير حمية والده الذي قاتل مع ابي سفيان واكرمه الأخير عندما منع الآخرين من التمثيل بجثته نزولا عند طلب ابي عامر. لذلك لا نعتقد انه سيقول شيئا يثير حميَة والده وعشيرته، خاصة ان النعرات القبلية كانت تنتشر كالنار في الهشيم، ولو ضمن الفريق الواحد. ولابد ان ابا سفيان كان بغنى عن أي فتنة يوقظها في وقت كانت قريش قد اُثخنت بالجراح ولم تعد تلوي على شيئ.

من ناحية ثانية، يبدو ان انتشار شائعة تفيد بمقتل النبي كان امرا محتملا. اذ يستعمل المفسرون (٥٩) هذه الرواية لشرح الآية التالية: {وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات او قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا، وسيجزي الله الشاكرين}(٦٠). أما ما تبقى من مضمون هذه الرواية فلا نستطيع ان نقول ان ابا سفيان لا بد كان مهتما جدا بمعرفة ما اذا كان النبي مازال على قيد الحياة ليجهّز قريش لتوجيه الضربة القاضية لمحمد واصحابه، ان استطاع.

ولعل أحد لم تكن هزيمة عسكرية حقيقية بالنسبة لمحمد وأصحابه بقدر ما كانت هزيمة معنوية وعقائدية، ان صح التعبير. فقد كان المسلمون يستدلون بانتصارهم الساحق في بدر على تأييد الله لمحمد. أما بعد أحد فقد سقط هذا المنطق، او لنقل اهتز بشدة، عندما ظهر ان النبي وأصحابه يتساوون مع غيرهم في فرص النصر واحتمالات الهزيمة. ويبدو ان المناظرة على جبل أحد بين عمر بن الخطاب وابي سفيان يمكن ان تصب في هذا السياق. خاصة عندما تذكر الرواية قول ابي سفيان: " يوم بيوم بدر، ألا ان الأيام دول، وان الحرب سجال. فقال عمر: لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار! قال ابوسفيان: إنكم لتقولون ذلك! لقد خبنا إذن وخسرنا! قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم! فقال عمر: الله مولانا ولا مولى لكم !" .[٦١]

لذلك أرى في هذه الرواية ان المؤرخ المسلم يناصر عمر بن الخطاب في حواره الديني مع ابي سفيان في محاولة لوضع ماحصل في أحد ضمن المخطط الاسلامي العام للتاريخ. فعلى المسلم الجهاد في سبيل الله، وان لم يكتب له النصر فله الجنة. اما قتلى المشركين فهم في النار وان انتصر جيشهم في الحياة الدنيا.

من جهة ثانية، يعتقد مونتغمري واط ان اصطحاب ابي سفيان لزوجتين معه في الحملة العسكرية هو دليل رفعة منزلته في قريش. ثم يقول: بما أن صفوان بن أمية كان ينافسه على زعامة قريش فقد اصطحب هو الآخر زوجتين ايضا ليثبت مكانته في القوم. اما عكرمة بن ابي جهل فيبدو لمونتغمري واط انه كان ما يزال في طور الظهور، لذلك اصطحب زوجة واحدة فقط .[٦٢]

وتجدر الاشارة الى ان الواقدي يقول ان الخيل كانت تحت امرة صفوان بن امية (كما ذكرت سابقا)، لذلك يعتقد مونتغمري واط ان الفضل في هذا النصر لم يكن فقط لخالد بل لمختلف قادة قريش، وخاصة لأبي سفيان. اذ يعتقد واط ان تراجع القرشيين ليلحق بهم المسلمون كان ضمن خطة وضعها مجلس القادة هؤلاء قبيل بدء المعركة، وأن قصر الفضل في ذلك على قيادة خالد يعود الى عداء الرواة المسلمين تجاهه[٦٣]، ولا يوضح واط سبب هذا العداء.

٨- ذيول أُحُد و غزوة حمراء الأسد

قد يتساءل أي باحث، لماذا لم يستغل القرشيون انهزام المسلمين ويسددوا الضربة القاضية للمدينة ويستأصلوا محمدا وأصحابه؟ ولعل هذا ما أراده ابو سفيان وأصحابه، وتذكر المصادر انهم اجتمعوا للتشاور في هذا الأمر، فكان صفوان بن أمية من اشد المعارضين لهذه الخطوة، بينما كان ابو سفيان يرى ان الوقت قد حان لاستئصال من بقي في المدينة [٦٤]. وفيما هم في ترددهم كان النبي قد علم بما حصل في هذا الاجتماع من احد عيونه فقام بأمرين: اولا: شن حرب الشائعات. فأرسل أحد عيونه (معبد بن ابي معبد الخزاعي) فلقي ابا سفيان وقال له ان محمدا قد جمع من تخلف بالأمس من الأوس والخزرج (فهم في كامل استعدادهم للحرب لانهم لم يتعرضوا لمشاق المعركة السابقة) وقد تعاهدوا على الا يرجعوا الى المدينة حتى يثأروا منكم. فقام صفوان بن أمية ونصح قريشا مرة ثانية بالانسحاب.[٦٥] ثانيا، جمع النبي كل من بقي قادرا على المسير، حتى بعض المصابين الذين لم يتعرضوا لجروح بالغة، وضمد جراحه وخرج من المدينة في حملة استعراضية فقط. وعندما بلغ ابا سفيان خروج النبي صدق كلام معبد فأمر الجيش بالإنسحاب، لكنه كلف نفرا من المسافرين ليبلغوا محمدا ان قريشا قادمة للتصدي له، فلم يصدق النبي الخبر لان معبد كان قد أرسل رجلا من خزاعة ليبلغ النبي بأن ابا سفيان قد ولى هاربا.[٦٦] وسميت غزوة النبي هذه بحمراء الاسد لان رسل ابي سفيان لقوا النبي واصحابه في حمراء الأسد، بعد ان انسحبت قريش باتجاه مكة. ويذكر ابن كثير حديثا بهذا الخصوص ، قال النبي :" ان ابا سفيان قد أصاب منكم طرفا، وقد رجع وقذف الله في قلبه الرعب ". [٦٧]

من ناحية ثانية، يقول الطبري ان ابا سفيان كان يحمل معه اللات والعزى في أحد[٦٨] وعندما عاد الى مكة لم يذهب الى بيته حتى اتى هبل فقال:" قد أنعمت ونصرتني وشفيت نفسي من محمد وأصحابه! وحلق رأسه ".[٦٩]

ويبدو ان قريش انسحبت لسببين اثنين: أولا، ان نصرها الجزئي كان فضله يعود لفرقة الخيالة التي اصبحت الآن منهكة بعد ان اصيب اكثر الخيل بالنبال، بالإضافة الى عدد من الجرحى الذين يعيق حركة الجيش. ثانيا، كان القرشيون يأملون كسب ابن ابي (رأس المنافقين في المدينة) ويهود يثرب الى صفوفهم والتعاون معهم

للقضاء علىالنبي. لذلك لم يريدوا مهاجمة المدينة ويعرضوا انفسهم لخسائر فادحة من أجل هدف يمكن ان يحصلوا عليه بالوسائل السياسية. بالإضافة الىاليهود الذين لم يحركوا ساكنا لمساعدة قريش ضد النبي، مما ثبط عزيمتهم وجعلهم يفضلون الرجوع الىمكة بعد أن لقنوا المسلمين درسا قاسيا جدا.

من ناحية ثانية، ذكرت سابقا روايتين تفيدان ان ابا سفيان حمل معه الى أُحُد اللات والعزى ثم زار هبل عند عودته الى مكة. وأعتقد أنني قد أصدق هذا السلوك ان كان ضمن شعائر يقوم بها القوم للحفاظ على عاداتهم وتقاليدهم، وبالتالي عصبيتهم وانتمائهم، وهذا يساعد الزعيم الىحد كبير في الانسجام مع قومه وتعميق الشعور بالهوية عندهم . لكن ابا سفيان، وان اشترك في شعائر القوم الا انه لم يشترك في تعذيب أسرى المسلمين على ما يبدو. وتذكر الروايات أن صفوان بن امية وغيره اشتروا بعض أسرى المسلمين واخذوا يقتصون منهم قتلا وتعذيبا على رؤوس الأشهاد. ومع أن أبا سفيان كان لا بد حاضرا في مشاهد التعذيب العلنية هذه الا انه لم يكن يوافق عليها كما يبدو. ويذكر الواقدي ان ابا سفيان رمى ولده معاوية ارضا كي لا تصيبه اللعنة عندما كان احد الأسرى (خُبيب) يدعو على المشركين ويشير بيديه.(٧٠)

وهذا الموقف يظهر ان ابا سفيان، وربما غيره من قريش كان يؤمن بشيئ مما كان يقوله محمد وان لم يكن يوافقه فيه كله. وعلى كل حال فقد كان إله محمد ضمن الآلهة التي كانوا يعبدونها على ما يبدو، وان اختلفوا في التسميات .(٧١)

من ناحية ثانية، يمكنني ان استنتج ان روايات كهذه تُظهر كيف كان نفوذ ابي سفيان يضعف شيئا فشيئا بسبب مرونته وليونته تجاه محمد وأصحابه في بعض الأمور، كالتعذيب والإسراف في القتل. بينما كان المتطرفون كصفوان بن امية وعكرمة بن ابي جهل يجدون آذانا صاغية ويكسبون جمهور قريش من الموتورين والشبان. ولعل انكاره لاساليب العنف المتطرفة هذه اسهم في تنفير بعض افراد عشيرته عبد شمس التي لا بد ضعفت عصبيتها بسبب الاختلاف في الرأي بين كبرائها وشبانها .

من ناحية ثانية، أود ان اذكر ما قاله لامنس تعليقا على الرواية التي تذكر حمل ابي سفيان للأصنام في أحد، اذ يقول لامنس ان هذا السلوب يشبه الطقوس التي كان العبريون يمارسونها في حمل تابوت العهد الى المعركة. ويستدل بهذا على ان ابا سفيان

كان القائد الاعلى لقريش، لأن من يحصل على شرف حيازة اصنام الآلهة يكون السيد المطاع، ويقول اننا اذا اردنا فهم ذلك علينا ان نشاهد كيف يتدافع وجهاء الدولة (في ايام لامنس) على شرف الامساك بعقال البعير الذي يحمل محمل الحج. كما يقارن لامنس سلوك ابي سفيان بما فعله ابنه معاوية في معركة صفين حين " رفع قبة عظيمة وألقى عليها الثياب فبايعه أكثر اهل الشام على الموت واحاط بقبته خيل دمشق "[٧٢] ويقول لامنس ان هذا لا بد كان من الطقوس والتقاليد المتبعة لمبايعة القائد قبل المعركة. ويعتقد لامنس ان ابا سفيان لا شك اقام قبة مماثلة تضم اصنام قريش.[٧٣]

ويضيف لامنس قائلا ان ابا سفيان ربما كان كاهنا وليس فقط قائدا لقريش، او ربما كان كاهنا لتهامة كلها بدون منازع. ويسبغ عليه القاب "رب كاهن" و"رب تهامة".[٧٤] ولعل لامنس يستحضر بهذه الفكرة صورة مكربي اليمن الذين كانوا كهنة وملوكا في نفس الوقت. ولا أدري ان كان باستطاعتنا قبول هذه الفكرة لان المصادر لم تذكر معلومات كافية عن هذا الموضوع. وان كان هناك من روايات تتناول هذا الامر فلا بد ان المؤرخين المسلمين طمسوها لعدائهم لعقيدة الشرك. مثال على ذلك ان موضوع الاصنام لم يبق لنا منه سوى كتاب الاصنام لابن الكلبي .

اخلص مما سبق الى ثلاث نقاط:

اولا : اعتقد انه كان يوجد صراع بين ابي سفيان وصفوان بن امية، وربما غيره من القادة الذين ستبرزهم المراحل المقبلة كسهيل بن عمرو. واعتقد ان ابا سفيان لم يكن القائد الاوحد لحملة اُحُد، وكان يشاركه في القرار زعماء عدة .

ثانيا : لم يكن ابو سفيان من المتحمسين للأعمال العسكرية كما لا يبدو لي ذلك المقاتل الشرس الذي يرهب جانبه .

ثالثا : بدأ المؤرخون المسلمون محاولاتهم لإظهار ابي سفيان كرأس الكفر من خلال حواره العقائدي مع عمر . وهي جزء من النمط (عمر – ابو سفيان) الذي يتكرر في روايات المؤرخين المسلمين .

٩- غزوة بدر الموعد

تذكر المصادر ان ابا سفيان كان قد ضرب للنبي موعدا في بدر الصفراء على رأس الحول، وهي سوق تقام في شهر ذي القعدة. فلما دنا الموعد كره ابو سفيان

الخروج الى محمد ولكنه أخذ يشيع بين الناس انه يعد العدة لذلك. فأصبح كل من ياتي المدينة ينذر النبي بالجموع التي كان يحشدها ابو سفيان لحربه. ثم كلف رجلا اسمه نعيم بن مسعود الأشجعي بالذهاب الى المدينه لترهيب النبي وأصحابه، واجزل له العطاء. ويبدو ان هذا الرجل كان موضع ثقة عند محمد، فجاء المدينة واخبره بالجيوش الجرارة التي يعدها ابو سفيان لغزو المدينة نفسها ونصحه بعدم الخروج خوفا من سقوط المدينة وأهلها بيد قريش ثم أخذ يطوف في المدينة وينشر هذه الشائعة حتى دب الرعب في قلوب المسلمين.(٧٥)

وتوحي الروايات بان هذا الاسلوب نجح مع اصحاب النبي الإ انه زاد محمدا تصميما على الخروج فاعلن انه سيخرج ولو خرج وحده. (٧٦) ويبدو ان النبي اراد تشجيع اصحابه لاحقا، فزين لهم الخروج واغراهم بالتجارة وسمح لهم بحمل بضائع معهم. ويقول عثمان بن عفان انه كان يوجس خيفة من هذه الغزوة :"حتى انهج الله تعالى للمسلمين بصائرهم واذهب عنهم تخويف الشيطان. فخرجوا فلقد خرجت ببضاعة الى موسم بدر، فربحت للدينار دينارا، فرجعنا بخير وفضل من ربنا ".(٧٧)

فخرج النبي بالف وخمسمائة رجل وعشرة افراس وامضىثمانية ايام في السوق.(٧٨) أما ابو سفيان فقد قرر القيام بمناورة والخروج ليلة او ليلتين، فلإن لم يخرج محمد بلغه انهم خرجوا فيكون هذا لهم عليه. وان كان خرج اظهروا ان هذا عام جدب ولا يناسبهم ثم عادوا. فخرج ابو سفيان في الفين ومعه خمسون فرسا. وساروا اميالا عدة ثم عادوا الى مكة. وعندما وصلتهم اخبار جيش المسلمين اخذ صفوان بن امية يضع الملامة على ابي سفيان لانه تواعد مع النبي عقب أُحُد. وحمله مغبة خذلان قريش والعار الذي جلبه لهم بتخلفهم عن موعد بدر الصفراء(٧٩) وقد أنشد كعب بن مالك في هذه المناسبة شعرا يهزأ فيه بابي سفيان:

وعدنا ابا سفيان بدرا فلم نجد	لموعده صدقا وما كان وافيـا
فأقسم لو وافيتنا فلقيتنــــــا	رجعت ذميما وافتقدت المواليا (٨٠)

ويقول الواقدي ان هذا العار الذي حل بالقرشيين اثار بهم الحمية فأخذوا يرصدون الاموال لمعركة مقبلة مع النبي واصحابه بجدية وعزم،(٨١) عسى ان تستعيد قريش هيبتها ومكانتها.

من ناحية ثانية، تذكر المصادر الاسلامية ان النبي صعد نشاطاته العسكرية في العامين الرابع والخامس للهجرة، فبعث السرايا وكلف عددا من اصحابه باغتيال بعض الزعماء المناوئين له من العرب واليهود. وكان قد كلف عمرو بن امية الضمري وسلمة بن أسلم ليقتلا ابا سفيان لكنهما اخفقا في ذلك.[٨٢]

يبدو لي من اخبار بدر الموعد التي ذكرتها ان الواقدي يحاول اظهار ابي سفيان بمظهر الجبان ولعل هذه التفاصيل الكثيرة التي لا تتوافر عند غيره عن تردد ابي سفيان وارساله للجواسيس ان تكون دليلا على ذلك.

كما يظهر من الروايات ان صفوان بن امية قد حاول الافادة من تخلف ابي سفيان عن بدر الموعد ليطعن في قيادته، مع ان صفوان نفسه لم يكن يرغب في القتال على ما يبدو. ولعل هذه الحملة كانت من امارات تقهقر نفوذ ابي سفيان في قريش الذي ربما سيصبح واضحا بعد اخفاق غزوة الخندق وعقد صلح الحديبية.

١٠- غزوة الخندق

في شهر ذي القعدة من العام الخامس الهجري استطاع ابو سفيان ومن معه جمع قبائل العرب من كنانة وغطفان وسليم وأسد.[٨٣] وزحفوا جميعا الى المدينة في عشرة الآف رجل وستمائة من الخيل، وخيموا شمال المدينة حيث كانت طبيعة الارض تسمح بدخول الخيالة اليها. لكن النبي كان قد تحسب لهذا الامر وحفر خندقا لحماية البلدة. فوجد المهاجمون انفسهم مضطرين للانتظار وضرب حصار على المدينة.[٨٤]

كذلك فانه حصد المحاصيل الزراعية وجمعها داخل الاسوار، بعد ان عانى في غزوة أُحُد من هذا حين قامت قريش من رعي خيلها وبهائمها في محاصيل المدينة. اماهذه المرة فكان على المهاجمين انتظار المؤنة من خيبر كي يستطيعوا الاستمرار في الحصار، وهذا لا بد خلق لهم صعوبات جمة.[٨٥]

اما سلاح الخيالة الذي كان خالد بن الوليد ابرز قادته ايضا في هذه الغزوة فقد تعطل كليا بسبب الخندق. واقتصرت الاعمال العسكرية على تبادل رمي النبال بين الفريقين عن بعد، كما نعلم مما سبق مدى تفوق مشاة المسلمين على مشاة قريش. وعلى الرغم من كل هذه التحصينات والاحتياطات اللازمة فقد اوجس النبي خيفة من هذه الحشود التي لا بد انها كانت كبيرة جدا بمقاييس العرب آنذاك. وقد ذكرت الروايات ان

عدد جيش قريش و حلفائها بلغ يومئذ عشرة الآف رجل، كما ان اجتماع خمس قبائل كبيرة لحرب النبي لا بد القى الرعب في قلوب اصحابه. ويعبر القرآن عن هذا الخوف بالآية التالية { اذ جاؤوكم من فوقكم ومن اسفل منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون }[٨٦] ويذكر ابن سعد رواية تصور كيف كان النبي يحاول تشجيع اصحابه بالقرآن ويعلمهم تعويذة لذلك: " قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم حين حفر الخندق وخاف ان يُبيته [أي يهجم عليه ليلا] ابو سفيان فقال " ان بُيتم الليلة فان دعواكم حم~ لا ينصرون ".[٨٧]

ويبدو ان النبي ادرك انه لم يبق امامه سوى الوسائل السياسية والجاسوسية، ان صح التعبير للخروج من هذا المأزق. لذلك كان عليه تحييد بني قريظة الذين كان ابو سفيان قد اتصل بهم من قبل وطلب مساعدتهم. فأرسل النبي اليهم عميلا مزدوجا أخبرهم ان قريشا ومن معها لا يقدرون على الاستمرار في الحصار لانهم جاؤوا من اجل الغنائم فقط، و انهم سيتركون اليهود ليواجهوا مصيرهم مع محمد. لذلك عليهم ان يطلبوا عشرة رجال من قريش يكونون رهائن لدى بني قريظة ريثما تنتهي المعركة. ثم ذهب هذا العميل المزدوج (نعيم بن مسعود) الى ابي سفيان واخبره ان بني قريظة ينوون الغدر به وانهم سيطلبون عشرة اشراف يقدمونهم لمحمد ليستعملهم رهائن ضده [٨٨]. اما غطفان، فقد عرض عليهم ثلث محصول التمر في المدينة ان هم تركوا ابا سفيان [٨٩]. ومع ان النبي لم يقدم شيئا ملموسا، الا انه كان قادرا من خلال هذه الوعود التي كان ينقلها الى زعماء البدو من خلال عيونه، الذين كانوا يتسللون الى مخيم الاحزاب، على شق صفوف المحاصرين وفضهم من حول ابي سفيان وقريش.

اما اليهود فقد رفضوا المشاركة في الهجوم العام بحجة ان ابا سفيان حدده في يوم سبت و طلبوا عشرة اشراف من قريش ضمانة لهم. عندئذ تأكد ابو سفيان وزعماء القبائل ان بني قريظة قد خانوا التحالف معهم ويئسوا من مساعدتهم.

وعندما عقد ابو سفيان مجلسه لاتخاذ قرار فاصل في سير المعركة ضربت الريح المحاصرين، فاطفأت نارهم واقتلعت خيمهم. وبعد ان قضوا عدة ليال باردة وعاصفة، اصدر ابو سفيان اوامره للجيش بالانسحاب قائلا: " يا معشر قريش انكم لستم بدار مقام لقد هلك الخف والحافر وأجدب الجناب واخلفتنا بنو قريظة وقد لقينا من الريح

ما ترون فارتحلوا فاني مرتحل ".[٩٠] وقام فجلس على بعيره واشرف على انسحاب جموع المقاتلين. ثم اصدر اوامره لخالد بن الوليد بتغطية الانسحاب مع مائتي فارس، خوفا من ان يخرج اليهم المسلمون فينالوا من مؤخرة الجيش. [٩١]

تعليقا على هذه الروايات المتعلقة بغزوة الخندق، اشك في عدد جيش قريش وحلفائها واعتقد انه مبالغ فيه. لكن اجتماع قبائل عدة لقتال النبي لا بد كان ظاهرة فريدة في ذلك الوقت. ويبدو لي ان قادة قريش استطاعوا جمع هؤلاء البدو بعد اغرائهم بالغنائم الكبيرة والسبايا الكثيرة التي يمكن ان يحصلوا عليها بسقوط المدينة في ايديهم. ولا شك ان حرب الجاسوسية التي شنها النبي وتخاذل اليهود عن نصرة قريش لعبا دورا هاما جدا في احباط هذه الحملة على المدينة.

من ناحية ثانية يذكر لامنس اربعة امور يعتبرها اسبابا مهمة لانسحاب ابي سفيان واحلافه في غزوة الخندق: اولا، تعود البدو في غزواتهم الهجوم السريع الخاطف ولم يتعودوا محاصرة المدن المنيعة المحصنة التي تتطلب صبرا وانضباطا. ثانيا، ان اسلوب البدو الفردي في التعاطي مع الوضع القائم ادى الى عدم الانضباط وفقدان الصبر في حصار المدينة. ثالثا، لم يتعود البدوي على اقامة خطوط الامداد، اذ ان فرق الغزو كانت تنطلق من دون مؤنة تذكر، وكان كل مقاتل يعتمد علىالحليب الذي تدره ناقته وحفنة من التمر يحملها معه الى ارض المعركة التي عادة تكون سريعة وخاطفة [لذلك لا بد ان خيل الاحزاب جاعت بعد ان جمع اهل المدينة المحصول وراء الاسوار]. رابعا، لم يكن يهم البدو كثيرا من ينتصر، محمد ام ابوسفيان. لأن همهم الوحيد كان الحصول على تمر المدينة. بل كانوا يفضلون ان يدوم الصراع بين الفريقين، اذ انهم كانوا يزدرونهما، كما يقول لامنس.[٩٢]

يبدو لي ان الامور التي ذكرها لامنس منطقية ومقبولة ما عدا النقطة الاخيرة، فانني اعتقد ان القبائل كان يهمها سقوط المدينة لنهبها، لا استمرار الصراع بين الفريقين. لكن تحسب النبي واصحابه بجمع المحصول والبقاء خلف الخندق لا بد اتعب البدو وجعلهم يتركون ابا سفيان وقومه، خاصة بعد أن ساءت الاحوال الجوية. ومع نهاية هذه الحملة، تكون قريش قد ضيعت الفرصة الاخيرة للقضاء على محمد وكيانه السياسي في المدينة. وستشهد في ما نرى، المرحلة المقبلة بعض التقهقر في زعامة ابي

سفيان التي لا بد كانت من اخفاق هذه الحملة، هذا فضلا عن ظهور زعامات شابة لا يحملها المجتمع المكي تبعة الفشل في الماضي، كسهيل بن عمرو وعكرمة بن ابي جهل وصفوان بن امية الذي كان له في السابق مواقف عديدة مغايرة لمواقف ابي سفيان ولا بد انه استغل الاخفاق الاخير ليطعن في سياسته وقدرته في تحقيق النصر لقريش .

١١- صلح الحديبية

تذكر معظم المصادر ان ابا سفيان كان غائبا في سفر يوم صلح الحديبية.[٩٣] ثم تذكر انه جاء بعد فترة الى المدينة للقاء النبي على النحو التالي:

" ولما دخل ابو سفيان المدينة اتى النبي صلى الله عليه وقال: يا محمد، اني كنت غائبا في صلح الحديبية فاشدد العهد وزدنا المدة. قال: او لذلك قدمت يا ابا سفيان؟ قال: نعم. قال: فهل كان فيكم حدث؟ قال: معاذ الله. قال النبي صلى الله عليه وسلم: فنحن على مدتنا وصلحنا، لا نبدل ولا نغدر ".[٩٤] ثم حاول ابو سفيان الاستعانة على اقناعه بابي بكر ثم عمر ثم عثمان ثم فاطمة ثم علي، ولكن دون جدوى.[٩٥]

لكن الطبري يذكر ان ابا سفيان تلقى عثمان بن عفان مرسلا من النبي ليفاوض قريشا يوم الحديبية،[٩٦]ثم يضيف الرواية التالية التي تفرد بها دون غيره من المؤرخين:

" بعثت قريش سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى وحفص بن فلان الى النبي صلعم ليصالحوه فلما رآهم رسول الله فيهم سهيل بن عمرو قال قد سهل الله لكم من امركم القوم مادون اليكم بأرحامكم و سائلوكم الصلح ..... قال فجاءوا فسألوه الصلح قال فبينا الناس قد توادعوا وفي المسلمين ناس من المشركين و في المشركين ناس من المسلمين قال ففتك به ابوسفيان قال اذا الوادي يسيل بالرجال والسلاح ..."[٩٧]

وتذكر المصادر ان ابا سفيان استمر في تصديه للدعوة المحمدية بعد صلح الحديبية، فحاول مثلا ثني خالد بن الوليد عن اعتناق الاسلام.[٩٨] وعندما مر به الشاعر الأعشى، ميمون بن قيس يريد لقاء النبي اقنعه بالعدول عن ذلك وجمع له مائة بعير من سادات قريش ليضمن بقاءه اليجانبهم و قال : " ... لئن وصل [الأعشى] اليمحمد ليضربن عليكم العرب بشعره ".[٩٩]

من ناحية ثانية، ثمة رواية نقلها ابن عساكر تقول ان أبا سفيان والنبي تبادلا الهدايا والرسائل، وكان بينهما ود في مرحلة السلام هذه.[١٠٠]

ربما قد نستدل من غياب ابي سفيان عن مفاوضات الحديبية وظهوره على ما جاء في رواية الطبري انه كان معارضا لها وللطريقة التي تمت بها في ذلك الوقت، بمجيئ النبي الى مكة على رأس الف وستماية رجل يريدون العمرة، كما تذكر المصادر. خاصة اذا علمنا ان رواية الطبري لا تذكر فقط مجيئ عثمان الى ابي سفيان مرسلامن محمد فقط، بل تذكر ايضا انه اعتقل، ربما لوقت طويل كرهينة مهمة (كونه من بني عبد شمس وصهر النبي)، وظن النبي انه قتل. كما ان عثمان لم يظهر لاحقا في سياق المفاوضات المهمة التي جرت في الحديبية، حيث اتوقع ان يكون اول مبعوث بدأ بها أول الحاضرين، لانه أعلم الناس بما يجري. الا اذا استنتجت من هذه المعطيات ان قريشا انقسمت علىنفسها، وذهب فريق مع ابي سفيان يرفض ظروف المفاوضات وشروطها، خاصة انها تضع نبي بني هاشم على قدم المساواة مع قريش وتعترف بكيانه السياسي في المدينة كالند للند. لذلك اعتقد ان ابا سفيان ومن معه ربما ادركوا خطورة هذا الصلح الذي سيفعل بقريش ما لم تفعله الحرب من تشرذم ودعة، فرفضوا ان يشاركوا في المفاوضات، وتركوا الفريق الآخر الذي يقوده الثلاثي صفوان وسهيل وعكرمة ينقاد الى التفاوض مع النبي ويفرح ببعض الشروط الصعبة في ظاهرها والتي فرضها على المسلمين. والى جانب ما سبق، يمكنني القول ايضا ان ابا سفيان ربما لم يرفض مبدأ التفاوض جملة وتفصيلا، لكنه لم يقبل بالشروط التي بحثت في المفاوضات، وانه كان يريد فرض شروط اخرى تضمن مصالح قريش اكثر من تلك التي تم الاتفاق عليها. وقد أستدل على هذا بالرواية التي تذكر مجيئه الىالنبي في المدينة ليطلب المزيد من الضمانات. على الرغم من انها تنتهي بالنمط (ابو بكر- عمر- عثمان- علي) الذي يدل على بصمات المؤرخين، الا ان مطلع الرواية يمكن تصديقه لان النبي كان قد تزوج ام حبيبة ابنة ابي سفيان من قبل،[١٠١] وهذا يجعل قدوم ابيها الى المدينة محتملا.

من ناحية ثانية اتوقع ان يكون ابو سفيان قد خسر الكثير من شعبيته في اوساط مكة بعد اخفاق حملة الاحزاب اوالخندق. ولا بد ان هذا التراجع في نفوذه قد ادى الى ظهور قادة من الشبان الذين ذكرتهم سابقا، كصفوان وسهيل وعكرمة، الذين لا بد اغتنموا هذه الفرصة للامساك بزمام بعض الامور. لذلك لا أستبعد ان يحاول هؤلاء

زحزحة ابي سفيان في أول فرصة تسمح لهم بالظهور، كيوم الحديبية. ولا أتصور أن زعيما بمكانة ابي سفيان سيترك قومه في مرحلة دقيقة كهذه ويذهب في رحلة الى مكان ما دون اسباب قاهرة.

ولا بد ان اذكر في اطار صلح الحديبية رواية اعتقد انها ضعيفة، لكنها تفيد كثيرا لفهم الاساليب التي كان يعتمدها بعض المؤرخين المسلمين في وضع بعض الروايات لاهداف سياسية او عقائدية. ويبدو لي ان المؤرخ كان يعتقد ان ما فعله في هذه الرواية التالية يمكن تمريره في ذهن القارئ او السامع، لأن غياب ابي سفيان عن مناسبة مهمة كصلح الحديبية يصعب تصديقه، كما قلت سابقا. وقد وضع هذه المؤرخ ابا سفيان بن حرب مكان سهيل بن عمرو في الجلسة الاخيرة لمفاوضات صلح الحديبية، وقد ذكرها ابن أعثم الكوفي في معرض الصراع بين علي بن ابي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، عندما جلس الفريقان لوضع نص للصلح بينهما. فقال علي لمعاوية:

" اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضىعليه امير المؤمنين علي بن ابي طالب، ومعاوية بن ابي سفيان، فقال معاوية: فان كنت امير المؤمنين – كما زعمت – فعلام أقاتلك؟. فقال علي رضي الله عنه: الله اكبر كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم الحديبية حين صده المشركون عن مكة، ثم اتفق امره وامرهم على الصلح بعد ذلك، فدعاني لأكتب، فقلت ما أكتب يا رسول الله؟ فقال: اكتب هذا ما اصطلح عليه محمد صلى الله عليه وسلم وأهل مكة، فقال ابو هذا – (ابو سفيان بن حرب): يا محمد اني لو اقررت انك رسول الله لما قاتلتك، ولكن اكتب لنا صفتك باسمك واسم ابيك، فكتب ذلك بأمر رسول الله، فقال يا علي ان لك يوما مثل هذا، انا اكتبها للآباء وأنت تكتبها للأبناء وإني الآن اكتب لمعاوية كما كتب النبي صلى الله عليه وسلم لابي سفيان..." (١٠٢)

والواضح ان المؤرخ وضع ابا سفيان مكان سهيل بن عمرو، في الرواية المتعلقة بصلح الحديبية، ليضعه في مواجهة النبي، كما سيكون معاوية ابنه في مواجهة علي لاحقا، ليوحي بان محمدا تنبأ لعلي بالخلافة وأقر بحقه فيها دون غيره.

وفي العودة الى الصلح الذي تم بين الفريقين، اعتقد ان أبا سفيان لا بد ادرك عواقب صلح كهذا، فان تفاوض الند للند مع النبي يمثل اعترافا بكيانه السياسي المستقل، وينزع عنه صفة المارق اوالصابئ الذي خرج عن دين الآباء والأجداد، وجمع حوله عصابة من سفهاء القوم. بل ان هذا الصلح يؤكد نجاح محمد الباهر في خروجه عن طوع قريش ويشجع القبائل المعادية لها والتي تتحين الفرص للإنقضاض على قوافلها التجارية او الاغارة على اسواقها الغنية. لذلك اعتقد ان اخطر بند في هذا الصلح كان ذاك الذي يسمح للقبائل بالتحالف مع أي طرف يريدون، ولا بد ان قبائل كثيرة مالت الى التحالف مع النبي لان نمط الحياة الذي يتبعه من غزو وجهاد يناسب حياة البادية. ويمكن ان اتصور مدى الاغراءات التي يتعرض لها البدوي عندما يرى ان واحة غنية كخيبر يمكن سلبها ونهبها وسبي نسائها تحت غطاء يوفر له الحماية التي لا تتوافر له ان هو او عشيرته اقدموا على مغامرة من هذا النوع على مسؤوليتهم الخاصة. لذلك اعتقد ان أي زعيم متمرس كابي سفيان سيدرك ماذا يعني ان يؤمن محمد جانبه من قريش ويجذب القبائل الى صفه. ولا شك ان الخطوة التالية التي قام بها النبي نحو خيبر – واحة اليهود المنيعة[١٠٣]، لخير دليل على صحة هذا الكلام. وان أية جهود ستحاول قريش القيام بها بعد ذلك لمحاربة النبي واصحابه لن تجدي نفعا.

من ناحية ثانية، فان الروايات التي تذكر ابا سفيان بعد يوم الحديبية وقبل فتح مكة ضئيلة جدا ولا يمكن رسم صورة عن نشاطات ابي سفيان من خلالها. لكنني اميل الى القول انه كان يتجه نحوالتحالف مع النبي ليس فقط بسبب زواج النبي من ابنته وتبادلهما للهدايا والرسائل كما تذكر احدى الروايات، بل ايضا بسبب ماستظهره من الروايات التي تذكر ابا سفيان في مرحلة فتح مكة.

استنتج من معالجة موضوع صلح الحديبية ثلاث نقاط:

اولا: لم يكن لابي سفيان دور رئيسي في مفاوضات صلح الحديبية.

ثانيا: قد يكون هناك روايات تفسر تهميش ابي سفيان وبروز سهيل بن عمرو مكانه في هذه المرحلة، ربما طمسها المؤرخون. أما الروايات التي تذكر غيابه فلا يمكن تصديقها.

ثالثا: اعتقد ان ابا سفيان بدأ بعد يوم الحديبية بالاتصال بالنبي و زيارته للتحالف معه بعد ان راى تعاظم قوته من خلال تحالفاته التي بدأت تعقد نتيجة لصلح الحديبية.

الفصل الخامس

ابو سفيان حليف النبي محمد

١- فتح مكة

تذكر المصادر الاسلامية ان الحادثة التي ادت الى نقض صلح الحديبية، وبالتالي فتح مكة ، كانت الاعتداء على خزاعة حلفاء النبي. ومع ان بني بكر، حلفاء قريش هم الذين قاموا بذلك الا ان الطبري يذكر ان صفوان بن امية وعكرمة بن ابي جهل وسهيل بن عمرو كانوا حاضرين ومتنكرين، مع عبيدهم ورجالهم (١).

ويذكر الطبري ان ابا سفيان ذهب الىالمدينة ليطلب تجديد الصلح، وأرى انه من الضروري ان اقتبس رواية الطبري لأستطيع تحليلها ومقارنتها بغيرها من الروايات:

" ... ثم خرج بُديل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله في المدينة فأخبروه بما أُصيب منهم وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم، ثم انصرفوا راجعين الى مكة وقد كان رسول الله صلعم قال للناس كأنكم بابي سفيان جاء ليشدد العقد ويزيد المدة، ومضى بُديل بن ورقاء واصحابه فلقوا ابا سفيان بعُسفان قد بعثته قريش الى رسول الله ليشدد العقد ويزيد في المدة وقد رهبوا الذي صنعوا فلما لقي ابو سفيان بُديلا قال من اين اقبلت يا بُديل، وظن انه قد أتى رسول الله، قال سرت في خزاعة في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي قال اوما اتيت محمدا قال. لا قال فلما راح بُديل الىمكة قال ابو سفيان لئن كان جاء المدينة لقد علف بها النوى فعمد الى مبرك ناقته فأخذ من بعرها ففته فراى فيه النوى، فقال احلف بالله لقد جاء بُديل محمدا ثم خرج ابو سفيان حتى قدم على رسول الله صلعم المدينة، فدخل على ابنته أم حبيبة بنت ابي سفيان فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صلعم طوته عنه فقال: يا بنية والله ما ادري ارغبت بي عن هذا الفراش او رغبت به عني، قالت بل هو فراش رسول الله وانت رجل مشرك نجس فلم احب ان تجلس علىفراش رسول الله قال والله لقد اصابك يا بنية بعدي شر ثم خرج حتى اتى رسول الله صلعم فلم يردد عليه شيئا ثم

ذهب الى ابي بكر فكلمه ان يكلم له رسول الله فقال ما انا بفاعل ثم اتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال انا اشفع لكم الى رسول الله، فوالله لولم اجد الا الذر لجاهدتكم ثم خرج فدخل على علي بن ابي طالب رضه وعنده فاطمة ابنة رسول الله وعندها الحسن بن علي غلام يدب بين يديها فقال: يا علي انك امس القوم بي رحما واقربهم مني قرابة وقد جئت في حاجة فلا ارجعن كما جئت خائبا اشفع لنا الى رسول الله قال ويحك يا ابا سفيان والله لقد عزم رسول الله على امر ما نستطيع ان نكلمه فيه فالتفت الى فاطمة فقال: يا ابنة محمد هل لك ان تأمري بنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب الى آخر الدهر، قالت والله ما بلغ بنيي ذلك ان يجير بين الناس، وما يجير على رسول الله احد قال يابا الحسن اني ارى الامور قد اشتدت علي فانصحني. فقال: والله ما أعلم شيئا يغني عنك شيئا ولكنك سيد بني كنانة فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك. قال او ترى ذلك مغنيا عني شيئا قال لا والله ما أظن، ولكن لا اجد لك غير ذلك، فقام ابو سفيان في المسجد فقال: ايها الناس اني قد أجرت بين الناس، ثم ركب بعيره فانطلق .

فلما قدم على قريش، قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمدا فكلمته، فوالله ما رد علي شيئا، ثم جئت ابن ابي قحافة، فلم أجد عنده خيرا، ثم جئت ابن الخطاب، فوجدته أعدى القوم، ثم جئت علي بن ابي طالب، فوجدته ألين القوم، وقد أشار علي بشيئ صنعته، فوالله ما ادري هل يغنيني شيئا ام لا! قالوا: وبماذا أمرك؟ قال أمرني ان أجير بين الناس ففعلت؛ قالوا: فهل اجاز ذلك محمد؟ قال: لا، قالوا: ويلك! والله ان زاد على ان لعب بك، فما يغني عنا ما قلت. قال: لا والله، ما وجدت غير ذلك، قال: وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بالجهاز ......"[٢]

وما ان زحف النبي على رأس عشرة آلاف رجل من مختلف القبائل، حتى خرج ابو سفيان ليلا للقائه بصحبة حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء. ويروي الطبري ان العباس خرج من مخيم الجيش علىبغلة النبي البيضاء لعله يصادف احدا فيبعثه الى قريش لترسل الى النبي من يستأمنها فالتقى بابي سفيان فاردفه على البغلة ودخل به مخيم المسلمين، واخذ العباس يستعرض الجيش العرمرم حتى مر بنار عمر بن الخطاب، فاشتد هذا الاخير يلحق بالبغلة ليقتل ابا سفيان، لكن الاثنان دخلا على النبي

قبل وصول عمر، فأجاره النبي وأمره ان يحضر في صباح اليوم التالي بصحبة العباس.

وفي اليوم التالي حضر ابو سفيان فطلب منه النبي ان يُسلم فأسلم. ثم أمر العباس ان يمر به ويستعرض الجند لينقل الى قريش مدى القوة التي جاء بها محمد لحربهم. ثم دخل ابوسفيان على النبي ثانية بمر الظهران ومعه حكيم وبديل وبايعوه، فقال: " من دخل دار ابي سفيان فهو آمن - وهي بأعلى مكة _ ومن دخل دار حكيم - و هي بأسفل مكة - فهو آمن، ومن أغلق بابه وكف يده فهو آمن ".(٣)

ويضيف الذهبي الى عهد الامان هذا ما يلي: " ومن دخل دار بديل بن ورقاء فهو آمن ".(٤)

ثم ذهب ابو سفيان الىمكة ودخل المسجد وصاح بأعلى صوته قائلا ان محمدا قد جاءهم بما لا قبل لهم به. وفي شهر رمضان من تلك السنة (الثامنة للهجرة) انقض النبي وجيشه على مكة.(٥)

على الرغم من ان معظم الروايات التي وصلتنا تتحدث عن استسلام قريش دون مقاومة، ما عدا مجموعة بقيادة صفوان وعكرمة وسهيل استطاع خالد بن الوليد ان يهزمها بسهولة،(٦) الا ان هناك روايات عدة تشير الى استعمال القوة بشكل واسع.

ويقول اليعقوبي في هذا السياق:

" ودخل مكة ودخل أصحابه من اربعة مواضع وأحلها الله له ساعة من نهار ثم قام رسول الله فخطب فحرَمها ".(٧)

ويضيف الطبري ليفسر كلمة " الطلقاء " فيقول:

" وقد كان الله امكنه من رقابهم عنوة و كانوا له فيأ فبذلك يسمى أهل مكة الطلقاء....".(٨)

من ناحية ثانية، فقد برز هذا الموضوع في شعر عباس بن مرداس، وهو شاعر قاتل وقومه مع النبي يوم الفتح:

فجسنا مع المهدي مكة عنوة   بأسيافنا و النقع كاب و ساطعُ

علانية و الخيل يغشى متونها   حميم و آن من دم الجوف ناقعُ (٩)

كما يذكر البلاذري رواية توحي بدخول مكة عنوة ايضا:

" ..... ورسول الله صلى الله عليه وسلم في كتيبته فرآني فقال: يا ابا هريرة، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: ناد الانصار فلا يات الا انصار، قال: فناديتهم فاطافوا به، وجمعت قريش اوباشها واتباعها، وقالوا: نقدم هؤلاء، فان اصابوا ظفرا كنا معهم، وان اصيبوا اعطينا الذي يسأل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اترون اوباش قريش؟ قالوا: نعم، فقال باحدى يديه على الأخرى، يشير: ان اقتلوهم، ثم قال: وافوني بالصفا، قال فانطلقنا فما يشاء احد ان يقتل احدا الا قتله، فجاء ابو سفيان، فقال: يا رسول الله ابيدت خضراء قريش لا قريش بعد اليوم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من دخل دار ابي سفيان فهو آمن، ومن اغلق بابه فهو آمن، ومن القى سلاحه فهو آمن، فقال بعض الانصار لبعض: أما الرجل فأدركته رغبة في قرابته ورأفة بعشيرته ....". [١٠]

أما ابن عساكر، فقد نقل رواية تذكر القتال الذي دار في مكة بشكل عام، ولكنه يضيف الى ذلك ثلاثة مطالب لأبي سفيان وردت في رواية أخرى وفي سياق آخر:

" قال: لما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي سفيان عرض عليه الأسلام فقال له ابو سفيان: وتحملني على بغلتك، وتكسوني بردفك، وتتخذ معاوية كاتبا - وأراه قال: وتزوج ام حبيبة ومن دخل [دار] ابي سفيان كان آمن كل ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " نعم "، فأسلم، فسرحه ومشى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى الى مكة، فالتقى القوم، فاقتتلوا، ونفذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل المسجد، فجعل يطعن بسية قوس في عين الصنم ويقول:" جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا ".[١١]

أبدأ بالحادثة التي أدت الى نقض صلح الحديبية، ولا تذكر الروايات تفاصيل عن ردة فعل النبي، ولا تذكر ان كان قد علم بوجود صفوان وعكرمة وسهيل، كما لا تذكر ان كانت هذه التفاصيل قد اثرت على قراره على اعتبار تلك الحادثة نقضا للصلح وينبغي عدم التهاون بها ولعله كان يترقب الفرصة للانقضاض على مكة بعد ان رأى ان وضعه العسكري أصبح يسمح له بذلك. واعتقد ان النبي كان قادرا - لو أراد -

على ايجاد مخرج مناسب لهذه المشكلة كإجبارهم على دفع ديات القتلى او تسليم الجناة مثلا.

من ناحية ثانية، لا تذكر الروايات ان كان ابو سفيان على علم بنشاطات الثلاثي (صفوان وعكرمة وسهيل) ام لا. لكنها تعطيه مباشرة دور المفاوض الذي يحاول اصلاح ما افسده حلفاء قريش. ولا يفوتني ان اذكر ان وجود الثلاثي متنكرا يبدو لي عاملا اضافه المؤرخون المسلمون لتقوية مبررات النبي بنقض الصلح، بعد ان أيقن ان قوته أصبحت كافية للسيطرة على مكة، بعد ان انضم الى حلفه الكثير من القبائل – بفضل اتفاق الحديبية – ودخل الكثير من شبان مكة في الاسلام .

أما الرواية الثانية التي تذكر مجيئه الى المدينة وزيارة ابنته ام حبيبة زوجة النبي فأبدأ بالنظر الى الأمور كما وردت على التوالي، وأرى ان الطريقة التي عرف بها ابو سفيان من اين اتى بُديل هي نفسها في يوم بدر عندما فتَ بعر الناقة واكتشف نوى المدينة فيها، مما يجعلني اعتقد ان هذا نمط مُتبع عند الرواة المسلمين لإضفاء تفاصيل حية و مثيرة على الرواية، أما دخوله على ابنته ام حبيبة فهو ممكن جدا، لكن منعها له من الجلوس على فراش النبي لانه رجل مشرك نجس فأعتقد انه اضافة متأخرة على الرواية، لأن الآية القرآنية التي تقول أن { المشركين نجس } نزلت بعد الفتح بعام تقريبا عام ٩هـ.، كما يقول ابن كثير.[١٢] وهذا المفهوم يأتي في اطار المفاهيم التي رأى فيها المؤرخون الماضي من خلال معتقداتهم المعاصرة وقتئذ. ويأتي في هذا السياق تماما ذكر الخلفاء "الراشدين " بالترتيب بعد النبي في الرواية مما يدل على نمط وضعه هؤلاء الرواة في تناول اخبارهم، كما ان اظهار عمر بن الخطاب بصورة الرجل المتصلب في مواجهة ابي سفيان يصب في هذه الانماط ايضا. والاحظ ان الرواية تغفل ذكر الخليفة الثالث عثمان، اولا لانه من عشيرة ابي سفيان، وثانيا لانه معروف بليونته وتساهله، وهذه امور غير مطلوبة في سياق هذه الرواية، لأن الراوي يريد ان يعكس الحزم والتشدد من جهة النبي واصحابه، ولا يناسبه أي عنصر ليونة في سياق القصة. وليمعن الراوي في اظهار تصلب النبي واصحابه يأتي في الرواية على ذكر احب شخص لدى النبي – ابنته فاطمة، ليظهر ان النبي قد حزم امره ولن يقبل بوساطة من أحد، ولو كانت فاطمة بنت محمد. واما اقتراح ابي سفيان لفاطمة بان

تجعل ابنها الحسن وهو غلام يدبَ بين يديها ان" يجير بين الناس فيكون سيد العرب الىآخر الدهر "، فهو يتضمن ثلاثة أمور: اولا: اظهار حالة اليأس التي وصل اليها ابو سفيان تحضيرا لاستسلامه وإسلامه معا في الروايات المقبلة. ثانيا: السخرية منه وهو جد الامويين، اذ طلب العون من الحسن وهو " غلام يدبَ ". ثالثا: ان عبارة " سيد العرب الى آخر الدهر " تأتي في سياق تسليط الضوء على الماضي من خلال حاضر المؤرخين المسلمين. وهذه العبارة تحمل فحوى حديث تنبؤي للنبي، ربما كان تأثيره يكمن في عقل الراوي، ويفيد بان النبي امسك بيد الحسن وهو غلام حدث ودعا بان يصلح به الله بين فريقين متخاصمين.(١٣) وما اغرب ان تأتي على لسان ابي سفيان!

فضلا عما سبق فإن هذه الرواية مطابقة لتلك التي ذكرتها سابقا ويقول الجاحظ انها حدثت عقب صلح الحديبية.(١٤) لذلك يبدو ان الجاحظ استوحاها من هذه الرواية التي اتناولها ليعطي ابا سفيان دورا –ولو ثانويا– في صلح الحديبية الذي كان عنه غائبا، كما تقول الرواية، وليستدل بها على أسبقية ابي بكر في الخلافة لانه جاء بعد النبي مباشرة. وانا ارجح ان يكون الجاحظ خلط بين هذه الرواية وتلك وأعتقد ان هذه الرواية التي ذُكرت يوم الفتح أصح من تلك، ولو شككت في معظم التفاصيل. اذ اعتقد ان ابا سفيان ربما ايقن ان وضع مكة السياسي وقتئذ ميؤوس منه، وان تحالفه مع النبي هو افضل طريقة لتقوية موقعه الذي ضعف بوجود الثلاثي: صفوان وعكرمة وسهيل. كما اعتقد ان ابا سفيان جاء المدينة ليتفق مع النبي على الطريقة التي سيتبعها في تهيئة مكة لدخوله بقدر ادنى من الخسائر، لذلك فإن لقاءه ببُديل بن ورقاء لم يكن صدفة وان مسألة نكران بديل من اين اتى غير صحيحة. بل اعتقد انه كان في مقابل الثلاثي المتصلب في مكة ثلاثي اخر – ان صح التعبير ان لم يكن مجرد نمط آخر يستعمله المؤرخون المسلمون لإضفاء الحياة و الإثارة على رواياتهم. وهذا الثلاثي كان يستعمل المنطق والمصلحة في التعامل السياسي مع النبي وهو: ابو سفيان بن حرب وبديل بن ورقاء وحكيم بن حزام. وبوجود هذا الثلاثي لا أحصرعدد المتواطئين مع النبي في مكة، والذي يمكن ان يكون اكبر مما أظن، لكنني المس من الروايات ان وجود هؤلاء الثلاثة على طريق النبي في خروجه الى فتح مكة لم يكن من قبيل الصدفة، بل ربما

كانوا يمهدون له الوضع في مكة لدخوله دون ان يتكبد خسائر فادحة، بالإضافة الى حفظ سلامة عشائرهم واهلهم المقربين وممتلكات. وانا اعتقد ان شرف الاجارة والأمان لم يُسبغه محمد على هؤلاء الثلاثة دون تقديم خدمات سابقة منهم، كتحضير الناس لدخول النبي والسيطرة علىمكة. ولا بد ان هؤلاء الثلاثة وغيرهم كالعباس عم النبي مثلا، قد قاموا بزيارات عديدة الى المدينة وكانت بينهم مراسلات[١٥] وذلك للتشاور واطلاع النبي على الاوضاع العسكرية بالتفصيل، لذلك قام بتمييزهم وذكر اسمائهم في عهد الامان الذي اعطاه:" من دخل دار ابي سفيان فهو آمن، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن، ومن دخل دار بُديل بن ورقاء فهو آمن"[١٦]

اما الرواية التي تذكر لقاءه العباس بن عبد المطلب، فألامر الذي يلفت النظر فيها هوالثنائي: ابو سفيان – العباس، بعد الثلاثي: ابو سفيان – حكيم – بُديل. كذلك الأسلوب القصصي المثير الذي تروى به الاحداث، اذ خرج العباس من المخيم بعد ان راعه ما رأى من قوة جيش المسلمين وأشفق على قريش، واخذ يبحث عمن ينذرها فترسل من يطلب الأمان من محمد. مع ان المصدر نفسه (الطبري) الذي يذكر قصة رسالة حاطب ابن بلتعة الى قريش ينذرهم بخروج النبي يعتبرهذا الفعل خيانة [١٧]، الا انه يعتبره في قصة العباس شفقة على اهل مكة وخوفا من ان يدخلها النبي عنوة فيصيبها الهلاك الى آخر الدهر. [١٨] وهذا تحيز واضح من المصادر تجاه عم النبي وجد الخلفاء العباسيين. وتجدر الاشارة الى ان الطبري يذكر رواية اخرى تهمل ذكر العباس كليا، ربما لانها في الاصل رسالة كتبها عروة الى عبد الملك بن مروان، كما يذكر الطبري [١٩]وهي تروي دخول ابي سفيان مع حكيم بن حزام– وتسقط العباس – الى مخيم جيش النبي حيث اعلن اسلامه وعاد بعقد الأمان. وقد يكون عروة قد أهمل ذكر العباس كي يرضي الخليفة الاموي، وقد يكون العباس نفسه اضيف الى الروايات جميعها لاحقا، ولا مجال لاستبانة وجه الحق في هذا. على الرغم من ان الرواية الاولى ينقلها الطبري عن الواقدي المعروف بتشيعه، فان التعاون بين النديمين: ابو سفيان والعباس قد انظر اليه على انه امر طبيعي. والأول تاجر والثاني مراب، مما يجعل الواحد منهما في حاجة الى الآخر. لذلك فإن أي مخطط يضعه النبي لغزو مكة ويشرك به أي واحد من هذين النديمين قد يشترك به الآخر ايضا، خاصة ان النبي كان قد تزوج

ام حبيبة وميمونة (اخت زوج العباس) فتقرب من الرجلين سوية. لذلك فان تعاون هذين النديمين في تهيئة مكة لدخول النبي يبدو امرا مقبولا، مع انني لا انكر العناصر القصصية المثيرة والانماط التي اضيفت الى الرواية كموقف عمر المتصلب من ابي سفيان والذي يتكرر دائما في كل رواية. كما ألاحظ التركيز الذي يمارسه الراوي على ابي سفيان، فما ان تبدأ الرواية بالاحداث المهمة حتى ينصب التركيز على ابي سفيان وحده وينسى الراوي رفاقه، ويحدث هذا الامر في الروايتين معا. وهذا يجعلنا نقول ان المؤرخين المسلمين ربما ارادوا ان يجعلوا من ابي سفيان الزعيم القرشي الاوحد في مواجهة النبي الذي كان الزعيم الاوحد في الجانب الآخر، كما ذكرت سابقا. وهذا الامر يندرج في العناصر التي يضيفها المؤرخون المسلمون القدامى للمبالغة وتبسيط الصورة وجعل القصة اكثر اثارة واسهل فهما. اضف الى ذلك انضمام العباس الى جيش النبي اول مرة ثم خروجه تارة اخرى مشفقا على قريش من الهلاك ان اقبل عليها هذا الجيش. فحركة العباس - كعنصر قصصي - هنا تزيد القصة اثارة و تعطيها البعد القدري الذي يريده الراوي عندما يلتقي العباس بأبي سفيان صدفة، ليغير مجرى التاريخ، فلا تهلك قريش الى آخر الدهر - كما قال العباس. أما فيما يتعلق بالروايات التي تذكر دخول مكة عنوة ، فاعتقد انها تعبر الى حد ما عما يكون قد حدث يومئذ. اذ لا اتوقع من قيادة جيش كبير يتألف من قبائل بدو وغيرها، ان تستطيع السيطرة الكاملة على المقاتلين عند دخول مدينة ما، وخاصة ان الكثيرين كانوا حديثي عهد بالاسلام علىما يبدو. وربما اعمل الجيش النهب بالبلدة ساعة من الزمن ثم عاد النبي وأصحابه فسيطروا على الوضع التزاما بعهد الأمان الذي قطعه محمد لسادات قريش. واود في هذا السياق ان اعالج رواية ابن عساكر التي تذكر موضوع القتال يوم فتح مكة، لكنها تضيف موضوع زواج ام حبيبة بنت ابي سفيان من النبي. وهذه الرواية تتفق في قسم منها مع حديث ورد في صحيح مسلم وتطرح تساؤلات مهمة جدا. نقل مسلم في صحيحه الرواية التالية:

" ...فقال [ابو سفيان] للنبي صلى الله عليه وسلم: يا نبي الله! ثلاث أعطنيهن. قال " نعم " قال: عندي أحسن العرب وأجمله، ام حبيبة بنت ابي سفيان، أزوجكها. قال: " نعم " قال: ومعاوية، تجعله كاتبا بين يديك. قال " نعم ". قال: وتؤمرني حتى اقاتل

الكفار، كما كنت اقاتل المسلمين. قال " نعم ".[٢٠] وهذه الرواية – ان اخذتها بحرفيتها – تشكل مشكلة تاريخية وتنقض روايات اخرى وردت في كتب المؤرخين والمفسرين. اذ ان معظم الروايات التاريخية تقول ان النبي تزوج ام حبيبة عام ٧هـ، أي قبل فتح مكة، بعد ان خطبها له النجاشي ودفع صداقها وهي مهاجرة في الحبشة،[٢١] وان ابا سفيان جاء عشية فتح مكة الى المدينة وزار ابنته ام حبيبة التي قالت انه مشرك نجس لا يجوزله الجلوس على فراش النبي .... الخ وهذه الرواية – ان صحت وصح تاريخ زواج النبي من ام حبيبة – تثبت ان ابا سفيان كان قد توصل الى اتفاق مع النبي عقب صلح الحديبية. وهذا يتلاءم مع نظريتنا السابقة. لكن يجب ان نشير الى ان صيغة الحديث تحمل شكل الانماط المعتادة لاحتوائه على الرقم " ثلاث " ولعدم ذكرها أي تحديد للظروف التاريخية المفصلة لهذا الموقف، بل ذكر الحديث امورا عامة تمجد النبي وتظهر كرم أخلاقه. كما يتضمن الحديث نمطا معروفا في الروايات التاريخية الاسلامية التي تتحدث عن فضائل الصحابة (وهو الباب الذي ورد فيه الحديث في صحيح مسلم) وهو مقابلة الماضي بالحاضر: "... وتؤمرني حتى أقاتل الكفار، كما كنت اقاتل المسلمين ...".والجدير بالذكر ان هذا الحديث لم يرد في صحيح مسلم في أي سياق تاريخي، لذلك يصعب فهمه الا اذا دمجناه مع صنوه لابن عساكر وبهذا قد اصل الى امرين يخالفان ما توحي به معظم الروايات التي تتحدث عن هذه الفترة: اولا: لم يقم النجاشي بخطبة ام حبيبة للنبي في عام ٧ هـ بل زوجه اياها والدها في عام ٨ للهجرة قبل الفتح. ثانيا: دخل ابو سفيان الىمكة يوم الفتح وهو قائد في جيش المسلمين، فكان بذلك اكثر من حليف للنبي في ذاك اليوم. وتجدر الاشارة الى ان كرونه ترجح ان يكون النبي قد دخل مكة عنوة، وتقول ان ما استطاع الرواة او المؤرخون المسلمون طمسه من روايات تذكر هذا لا بد ان يظهر في الشعر [انظر الابيات التي ذكرتها سابقا ولا وجود لغيرها في هذا الموضوع]. وتعتقد كرونه ان شعر العباس بن مرداس الذي يذكر كيف حمي الوطيس وجاسوا خلال الديار يومئذ يعبر عما حصل يوم فتح مكة.[٢٢] ويبدوان كيستر يتفق معها في هذا الرأي .[٢٣]

من ناحية ثانية، يعتقد ممونتغمري –واط ان ابا سفيان لا بد لعب دورا كبيرا في فتح مكة، ويظن ان المؤرخين المسلمين طمسوا الروايات المتعلقة به كي لا يضاهي

العباس عم النبي، [٢٤] ويظن واط ان قصة منع ام حبيبة والدها من الجلوس على فراش النبي اضيفت على الرواية لان مفهوم تعظيم شخص النبي قد جاء متأخرا جدا.[٢٥] فضلا عن ذلك، يرى واط ان ابا سفيان كان قد ادرك منذ حملة الاحزاب او الخندق على المدينة، بعد ان جمع الاحلاف من قبائل البدو وحاصر البلدة، ان الاستمرار في المقاومة محكوم عليه بالاخفاق. ويعتقد واط ان الفترة التي لم نسمع عنه فيها بين صلح الحديبية وفتح مكة كان سببه الانخفاض في نفوذه في قريش لان الاعتدال لا يلقى آذانا صاغية في تلك الاوضاع. ويقول واط ان جل هم ابي سفيان كان الحفاظ على وحدة قريش و تجنب النزاعات الداخلية. لذلك فان اخبار خصومه المشاكسين [صفوان وعكرمة وسهيل] كانت تنتشر اكثر من اخباره التي لم تكن مثيرة كاخبار نشاطاتهم العنيفة، كما يعتقد واط.[٢٦]

أخلص مما سلف الى القول ان النبي كان يفضل في هذه المرحلة الغاء اتفاق الحديبية لان ظروفه اصبحت مؤاتية للاستيلاء على مكة. وقد كان ابو سفيان وبديل وحكيم يتعاونون معه قبل زحفه على البلدة، خاصة بديل الذي ينتمي الى خزاعة التي كانت محورا في نقض صلح الحديبية. واعتقد ان المؤرخين المسلمين اهملوا دور بديل وحكيم ليركزوا على ابي سفيان والد معاوية خصم علي، وليضعوا ابا سفيان في مقابل النبي محمد. اما دخول مكة عنوة فإنني اوافق كرونه في بعض ما تقول، لكنني اعتقد ان المؤرخ يجب الا يأخذ ما يقوله الشاعر بحرفيته لما يتخلل الشعر من عناصر المبالغة والوجدانيات التي تتصف عادة بالتحيز.

اما ما يقوله واط عن طمس الروايات التي تذكر دور ابي سفيان لاظهار العباس فيبدو لي معقولا جدا. بل اظن ان المؤرخين ربما اقحمواالعباس في بعض اخبار فتح مكة لإرضاء الخلفاء العباسيين. كما قد اوافق واط على رأيه في دور ابي سفيان خلال هذه المرحلة، لكن اشدد ثانية على تعاونه مع النبي قبل خروجه الى مكة. ولعل دور ابي سفيان في حنين – الذي ساتناوله لاحقا – وما اعطاه النبي واولاده يزيد ومعاوية من الغنائم، قد يزيد من حظ هذه النظرية في القبول.

٢- غزوة حنين

ما ان لبث النبي فترة اسبوعين في مكة حتى علم ان قبيلة هوازن وحلفاءها من ثقيف قد تجمعوا في حنين، فخرج محمد اليهم على رأس اثني عشر الف مقاتل، عشرة آلاف من المهاجرين والانصار والفان من قريش: من اسلم يوم الفتح ومن بقي على دينه.[٢٧]

وتذكر المصادر الاسلامية ان هوازن كانوا من أعداء قريش فاستغلوا الخلل الذي حدث في ميزان القوى بدخول النبي مكة، وأرادوا انتهاز الفرصة والقضاء على قريش، وجمعوا لذلك عشرين الفا، وأحضروا نساءهم وأطفالهم ومتاعهم. ثم كمنوا لجيش النبي وهزموه في اول المعركة. فقال ابو سفيان: " لا تنتهي، والله هزيمتهم دون البحر ... "[٢٨] لكن النبي ما لبث ان نادى على اصحاب بيعة الرضوان وغيرهم من الانصار فهبوا اليه وحملوا علىهوازن فكتب لهم النصر.[٢٩]

اما ابو سفيان فيذكر الواقدي تحركه خلال المعركة في الرواية التالية:

" وخرج ابو سفيان بن حرب في اثر العسكر، كلما مر بترس ساقط او رمح او متاع من متاع النبي صلى الله عليه وسلم حمله، والأزلام في كنانته حتى اوقر جمله ".[٣٠]

ويذكر الواقدي ان النبي اجزل لابي سفيان و لولديه يزيد ومعاوية العطاء. فأعطى كلا منهم مائة بعير واربعين اوقية من فضة.[٣١] فقال ابو سفيان للنبي:" انك الكريم فداك ابي امي! ولقد حاربتك فنعم المحارب كنت، ثم سالمتك فنعم المسالم انت، جزاك الله خيرا !"[٣٢]

لكن المؤرخين يضعون هذا العطاء الذي اغدقه النبي على ابي سفيان في اطار المؤلفة قلوبهم :

"....قال : أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤلفة قلوبهم – وكانوا اشرافا من اشراف الناس يتألفهم ويتألف به قلوبهم – فأعطى ابا سفيان بن حرب مائة بعير، واعطى ابنه معاوية مائة بعير ....".[٣٣]

قد أتساءل في هذه المرحلة، ماذا سيكون موقف المؤرخين المسلمين من ابي سفيان ؟ فبعد ان حاول اكثرهم اظهاره وكأنه المسيح الدجال، في صراعه مع النبي محمد، فرفعوه الىمرتبة رأس الكفر بامتياز، وابرزوا دوره في التصدي للإسلام

وطمسوا دور سادات قريش الباقين، كيف سيتعامل المؤرخون مع شخصيته بعد ان ذكروا في رواياتهم انه اعلن اسلامه بصراحة واصبح حليفا للنبي؟ لا شك ان بعض هؤلاء لم يبق لهم سوى الطعن في اسلامه و تحقيره، وبعد ان حاولوا سابقا اظهاره في دور رأس الكفراصبح بامكانهم ان يحاولوا اثبات انه كان كهف المنافقين. ويبدو ان هؤلاء لا يفوتون أية فرصة او وضع دقيق يتعرض له المسلمون حتى يعمدوا الى ابراز ابي سفيان في صورة المنافق الذي يتحين الفرص للتخلص من النبي، والذي لا يتورع عن اظهار الشماتة بالمسلمين عند أي منعطف دقيق في هذه المرحلة. واعتقد ان قول ابي سفيان (لا تنتهي، والله هزيمتهم دون البحر) الذي نقله الواقدي يمكن وضعه في هذا الاطار.

الى جانب ما سبق، فاني اشك في هذه الرواية لان النبي بعد انتصاره الساحق، كما تذكر المصادر، وأخذه لاموال هوازن وسبي نسائهم لم يعاقب ابا سفيان الذي يعتبر قوله خيانة في موقف عصيب كهذا. وبما ان الجيش لم يتألف يومئذ فقط من الانصار بل شارك فيه الفان من قريش، فإن هذا يعني ان هزيمة النبي لو حصلت لأدت الى هزيمة الجميع ونهب اموالهم التي شارك فيها القرشيون بحظ كبير لتجهيز الجيش.[٣٤] لذلك فإن ما فعله النبي يدل على عكس ما يذكره المؤرخون عن ابي سفيان. اذ أن محمدا لم يعاقبه بل اجزل له العطاء. كما ذكرت سابقا .

وفي هذا السياق يمضي المؤرخون في السخرية من ابي سفيان والتشكيك باسلامه فيحشرونه في رواياتهم مع المؤلفة قلوبهم الذين يدخل عطاؤهم تحت باب الصدقات.[٣٥] وعلى الرغم من ان بعض الرواة يحاولون تفسير ذلك من منطلق الدعوة الى الدين الجديد واستقطاب عناصرجديدة الى حظيرة الاسلام (وكانوا اشرافا من اشراف الناس يتألفهم) عن طريق ارضاء زعماء القوم. لكنني ارى موضوع تقسيم الغنائم من منظار آخر، اذ ان هؤلاء الأشراف لا بد انهم اسهموا في تجهيز الجيش بالسلاح والمؤونة والرجال، لذلك كان نصيبهم من الغنائم موازيا لما قدّموه من خدمات. وقد ذكر الطبري ان صفوان بن امية كان قد جهز الجيش بالدروع قبل المسير الى حنين مثلا.[٣٦]

ويرى واط ان الحصص الكبيرة من الغنائم التي خصصها النبي لهؤلاءالزعماء كابي سفيان وصفوان وحكيم في حنين انما جعلها لهم لأنهم كانوا حلفاءه ولم يكونوا جنودا تحت امرته، كالمهاجرين والانصار مثلا. ويظن واط ان حصة ابي سفيان بالذات كانت لقاء خدمات اداها في استسلام مكة سابقا.(٣٧) كما يعتقد واط ان عبارة "المؤلفة قلوبهم " استعملها النبي اول مرة ليعلل اسباغه على عيينة والاقرع بن حابس وغيرهم حصصا من ذهب اليمن.(٣٨) ويضيف واط ان هذه القوائم بالمؤلفة قلوبهم لا بد وضعت في القرن الثاني في المدينة وضعها انصار عبد الله بن الزبير الذي ثار على الامويين و قتئذ. لذلك فإن الزهري – الذي نقل هذه الروايات – وكان معاديا للأمويين لا بد انه صنف ابا سفيان بين هؤلاء ليضع من شأنه. اما حكيم ابن حزام الذي اعطي الحصة نفسها تقريبا، فيذكرالزهري انه زهد في الدنيا بعد ذلك ورفض أية غنائم تقدم له، اذ انه كان زعيم بني اسد الذي ينتمي اليهم الزهري نفسه. لذلك ربما حاول الزهري تبييض صفحته بنقل اخبار عن زهده في الدنيا [كما يقول واط].(٣٩)

وبعد ان أوافق واط في الامور التي ذكرها، استنتج ان المؤرخين المسلمين حاولوا اظهار ابي سفيان بصورة المنافق والسخرية منه في غزوة حنين. لكنني اعتقد انه كان رجلا ذا شأن في جيش النبي وقتئذ . وهذا ما سيظهر فيما بعد حين يجعله قائدا للفرقة التي تذهب لهدم بيت اللات في المرحلة المقبلة، في الطائف.

٣- يوم الطائف

تذكر المصادر ان القرشيين كان لهم ضيع في الطائف. وما ان سقطت مكة في يد النبي حتى طمع بنو ثقيف بأموال قريش.(٤٠) لذلك ما أن انتصر النبي في حنين حتى ترك الغنائم والسبايا في الجعرانة وزحف على الطائف وحاصرها خمسة عشر يوما. لكن ما ان طال الحصار حتى قرر النبي الانسحاب ليتجنب المزيد من الخسائر في الارواح، اذا ان بني ثقيف كانوا قد لزموا حصونهم، ولم يفلح الجيش المحاصر في احراز أي تقدم يذكر، على الرغم من استعمال بعض آلات الحصار التي كانت معروفة وقتئذ، كالدبابة والمنجنيق. كما ان غنائم حنين وسباياها كانت تنتظره لتوزيعها في الجعرانة (٤١) وتذكرالمصادر الاسلامية ان ابا سفيان فقد عينه في يوم الطائف:

" عن سعيد بن عبيد الثقفي قال: رايت ابا سفيان بن حرب يوم الطائف قاعدا في حائط ابن يعلى يأكل قرة فرميته فأصبت عينه، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله هذه عيني اصيبت في سبيل الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ان شئت ترد عليك، وان شئت فالجنة " قال: الجنة ".[٤٢] وتوحي الروايات ان النبي ايقن ان بني ثقيف سيستسلمون قريبا بعد ان اخذوا يرسلون اليه الوفود للتفاوض، وانه كان لابي سفيان وصهره عروة بن مسعود الثقفي الفضل في فتح باب الحوار بين الطرفين.[٤٣] لذلك قرر الانسحاب الى الجعرانة.

وبعد ان انسحب النبي الى الجعرانة، ترك ابا سفيان والمغيرة بن شعبة في قيادة قسم من الجيش، وامرهم بهدم صرح اللات.[٤٤] ويذكر ابن الكلبي انها كانت لثقيف بمكانة العزى لقريش.[٤٥]

وتذكر المصادر ان ابا سفيان قدم المغيرة لهدمها لانه ابن البلدة، ولن يثير أي نعرة قبلية في فعلته هذه، على عكس لو قام ابو سفيان بذلك. [٤٦] وما ان فرغ المغيرة من هدمها حتى سلم ابا سفيان كسوتها وحليها.[٤٧]

وتذكر المصادر ان النبي كان قد كلفه بامور كثيرة كهذه، اذ عهد اليه توزيع الاموال على قومه عقب فتح مكة،[٤٨] وولاه الصدقات بعد استسلام الطائف.[٤٩] وفضلا عن ذلك يذكر ابن اسحاق ان النبي بعثه لهدم مناة على ساحل البحر:" وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد .... فبعث رسول الله صلعم اليها ابا سفيان بن حرب فهدمها " [٥٠]

وتذكر المصادر بعد ذلك ان النبي ولاه بعد ذلك نجران وصدقاتها.[٥١] كما قام بتشهيده على المعاهدات التي عقدت بينه و بين مختلف القبائل في نجران .[٥٢] وعندما توفي النبي اقره ابو بكر عليها.[٥٣]

الى جانب ما سبق، ثمة روايات عدة تذكر مواقف لابي سفيان مع النبي اذكر نماذج منها:

" أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما للناس، فأبطا بإذن ابي سفيان. فلما دخل قال: يا رسول الله، ما أذنت لي حتى كدت تأذن للحجارة. فقال له: يا أبا سفيان " كل الصيد في جوف الفرا "... أي كل شيئ لهؤلاء من المنزلة فإن لك وحدك مثل ما

لهم كلهم."[٥٤] وفي يوم من الايام كان ابو سفيان في بيت ابنته ام حبيبة فقال للنبي: "والله ان هو الا ان تركتك فتركتك العرب فما انتطحت جماء ولاذات قرن، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك ويقول:" انت تقول ذاك يا ابا حنظلة !".[٥٥]

كما يذكر البلاذري نقلا عن الزهري رواية قد تندرج في هذا السياق:

" أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا فشكر واثنى، فقال: لكن أبا سفيان أُعطي فلم يُثن ولم يشكر، فبلغ ذلك معاوية فقال: ان ابي يرى له حقا على الكرام".[٥٦]

وعندما توفي النبي، لم يكن ابو سفيان موجودا وفقا لما تذكره معظم الروايات. لكن البلاذري ينقل رواية تذكر موقفه ابان وفاة محمد: " قال ابو سفيان حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم: تلقفوها الآن تلقف الكرة فما من جنة ولا نار ".[٥٧]

و يبدو ان النبي كان قد اسند الىابي سفيان مهمات كثيرة، وان الرواة المعادون للأمويين كانوا قد طمسوها. اذ تظهر دائما بعض الروايات المتبقية التي تتحدث عن مهام اوكلها النبي لابي سفيان، كالمهمات العسكرية والادارية التي ذكرت سابقا. وهذه الروايات توحي بأنه كان مقربا جدا من النبي، وربما منذ وقت مبكر جدا. ولعل زواج النبي من ام حبيبة بنت ابي سفيان (عام ٧ هـ) كان في مرحلة تحول ابي سفيان من عدو لمحمد الى حليف له، وكان لهذا الزواج اثر كبير في التقريب بين الرجلين. ولعله ادرك بعد صلح الحديبية – الذي كان للثلاثي صفوان وعكرمة وسهيل الدور الاكبر في عقده، ان مكانته في قريش – التي انحدرت – لن تعود الا بتحالفه مع المنتصر، أي محمد الذي كان قد بدأ يستقطب مختلف القبائل، بينما كانت مكانة مكة وقريش نفسها تتجه نحو الضعف.

وفي هذا السياق أرى ان انتصار النبي على قريش كان قد رفع اقواما وخفض آخرين. لكن ابا سفيان استطاع بالرغم من هذه التقلبات السياسية والاجتماعية المحافظة على حد ادنى من مكانته السابقة، وتعامل بواقعية مع المعطيات الجديدة التي لا بد احتاجت الىكثير من الصبر والحلم. ويمكن ان اضع في هذا الاطار الرواية التي تذكر انتظاره الدخول على محمد، بعد ان دخل عليه عامة القوم. ويبدو لي ان امكانات ابي سفيان الكبيرة وخبرته الواسعة كانت تحتم على النبي ان يسند اليه مراكز قيادية. فأنا

اتوقع ان يسهم ابو سفيان في تمويل الجيش قبل خروجه مثلا. كما ان علاقاته الشخصية وتحالفاته كانت دائما تمنع النبي من تخطيه. فهو عندما يذهب الى الطائف مثلا فان وجود صهر له (عروة بن مسعود الثقفي) هناك يساعد كثيرا في ادارة الحملة، فضلا عن امتلاكه لضياع هناك،[٥٨] مما يجعله على علم بجغرافية المنطقة. اما توليه لامر نجران فقد يعود لمعرفته باليمن عن طريق التجارة، وهذا امر يكون النبي اخذه بعين الاعتبار عندما اسند اليه هذا المنصب.

لذلك يبدو لي ان ابا سفيان كان شخصا تعود المناصب القيادية فكان يعامل سادة القوم – حتى النبي نفسه – معاملة الند للند. ويمكن ان اضع الرواية التي تذكر ان ابنه معاوية كان يعتقد ان لابيه " حقا على الكرام "، وغيرها من الروايات التي ذكرت سابقا و تتحدث عن مواقفه مع النبي.

لكن من الواضح ان بعض المؤرخين دأبوا في محاولاتهم لاظهاره بصورة المنافق الذي قد ينقلب في أية لحظة ويعود الى" جاهليته ". وفي هذا الاطار يمكن ان اضع الرواية التي تذكر موقفه حين توفي النبي.

اما الرواية التي تذكر انه قبل بالجنة بدل عينه التي فقئت فيمكنني وضعها ضمن انماط دلائل النبوة.

يمكنني ان استنتج مما سبق ان ابا سفيان كان يتقلب في المناصب في هذه المرحلة من انتصار النبي: من قائد عسكري في الطائف الى مسؤول عن توزيع الاموال الى حاكم على نجران. وهذا في رأيي يثبت ان ابا سفيان كان مقربا جدا من النبي في هذه المرحلة وربما قبلها. ولعل تثبيت ابي بكر له – بعد وفاة النبي – على نجران يقوي هذا الرأي .

٤- خلافة ابي بكر

تذكر المصادر الاسلامية ان ابا سفيان كان في نجران او في مكة عندما توفي النبي وتولى ابو بكر الخلافة. ويذكر المؤرخون انه تخلف بعد ان بايع الناس الخليفة، يذكر اليعقوبي في تاريخه:

" وكان فيمن تخلف عن بيعة ابي بكر ابو سفيان بن حرب، وقال: أرضيتم يا بني عبد مناف ان يلي هذا الامر عليكم غيرُكم؟ وقال لعلي بن ابي طالب: امدد يدك ابايعك، وقال:

بني هاشم لا تطمعوا الناس فيكم ولا سيما تيم بن مرة او عــــــدي
فما الامر الا فيكم واليكــــــم وليس لها الا ابو حسن علـــــــــي
ابا حسن، فاشدد بها كف حــازم فإنك بالامر الذي يرتجى ملـــــــــي
وان امرأ يرمي قصـــــي وراءه عزيزالحمى،والناس من غالب وقصي[٥٩]

أما البلاذري فيذكر الرواية التالية :

" لما ارتدت العرب قال ابو سفيان: يا لغالب الدين العتيق "[٦٠]

من جهة ثانية، يذكر ابن كثير في تفسيره رواية تناقض الرواية السابقة:

"... عن ابن شهاب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل ابا سفيان صخر بن حرب على بعض اليمن، فلما قبض رسول الله صلىالله عليه وسلم أقبل ذا الخمار مرتدا، فقاتله فكان اول من قاتل في الردة وجاهد عن الدين، قال ابن شهاب: وهو ممن انزل الله فيه {عسى الله ان يجعل بينكم و بين الذين عاديتم منهم مودة}..."[٦١]

وليس هناك روايات سوى رواية البلاذري هذه تذكر الردة. اما مشاركة ابي سفيان في يوم اليرموك فالروايات عنها كثيرة. ويذكر الطبري ان ابا سفيان كان يسير على ظهر الفرس ويدعو للمسلمين بالنصر:

" كان ابو سفيان يسير فيقف على الكراديس فيقول الله الله انكم ذادة العرب وانصار الاسلام وانهم ذادة الروم وانصار الشرك اللهم ان هذا يوم من أيامك اللهم انزل نصرك علىعبادك "[٦٢]كما تذكر مصادر عدة انه كان يقص الاثر يوم اليرموك.[٦٣]

يذكر البلاذري:" كان ابو سفيان تحت راية ابنه بالشام، فخفيت الاصوات وابو سفيان يقول: يا نصر الله اقترب "[٦٤]

وفضلا عما سبق، ثمة رواية تذكر مشاركة ابي سفيان في يوم اليرموك:

"... ان ابا سفيان تجهز في احسن الجهاز واحسن الهيئة ثم خرج، وصحبه اناس من المسلمين كثير، كانوا خرجوا متطوعين، فأحسن ابو سفيان صحبتهم حتى قدموا

على جماعة المسلمين. فلما كان يوم خرج المسلمون الى عدوهم باليرموك كان ابو سفيان يومئذ يسير في الناس، ويقف على اهل كل راية وعلى كل جماعة، فيحرض الناس ويحضهم، ويعظهم، ويقول: انكم يا معشر المسلمين اصبحتم في دار العجم منقطعين عن الابل، نائيين عن امير المؤمنين وامداد المسلمين، وقد والله اصبحتم بازاء عدو، كثير عددهم شديد عليكم حنقهم، وقد وترتموهم في انفسهم ونسائهم، و اولادهم، و اموالهم، وبلادهم. فلا والله لا ينجيكم منهم اليوم وتبلغون رضوان الله الا بصدق اللقاء والصبر في المواطن المكروهة، فامتنعوا بسيوفكم، وتقربوا بها الى خالقكم، ولتكن هي الحصون التي تلجون اليها، وبها تمنعون. وقاتل ابو سفيان يومئذ قتالا شديدا، وابلى بلاء حسنا". (٦٥)

ويجب ان نذكر في هذا السياق ان هناك روايات اخرى نقلت عن عبد الله بن الزبير تناقض الروايةالسابقة. وهولا شك من أعداء الأمويين:

" لما كان اليرموك خلفني ابي، فأخذت فرسا له وخرجت، فرأيت جماعة من الحلفاء فيهم ابو سفيان بن حرب فوقفت معهم، فكانت الروم اذا هزمت المسلمين قال ابو سفيان: ايه بني الأصفر، فاذا كشفهم المسلمون قال ابو سفيان: وبنوالأصفرالكرام ملوك الروم لم يبق منهم مذكور ".(٦٦)

ذكرت سابقا ان النبي ولى ابا سفيان نجران - ربما لمعرفته باليمن عن طريق التجارة سابقا. ولعل بأمكاننا ان نضيف سببا آخر قد يكون اقوى من الاول؛ هولابعاده عن مركز القرار. فبعد ان استفاد االنبي من تحالفاته في فتح مكة والطائف قد يكون قد ارتأى انه من الافضل ابعاده الىنجران ، اذ ان وجوده بين الصحابة لم يكن يلقى ترحيبا كافيا منهم (٦٧) فهو لا بد كان يتدخل في امور الدولة بحكم منزلته في قريش ويقتطع قسما من الغنائم او الاموال في كل مناسبة - كما ذكرت سابقا - على مرأى من الصحابة الذين بذلوا النفس والنفيس في جهادهم مع النبي منذ بداية الدعوة.لذلك كان من الحكمة -على ما يبدو-ان يسند اليه النبي منصبا يبعده عن صحابته الذين كانوا يتقبلونه على مضض .

اما الرواية التي تذكر تخلفه عن مبايعة ابي بكر فقد يتوقع الباحث هذا الموقف من ابي سفيان تجاه الخليفة الاول، لأن ابا بكر من عشيرة صغيرة، وبنو هاشم وان

كانوا خصومه فهم اولو قربى وبمقاييس أي زعيم قرشي هم احق بالخلافة من بني تيم. لكن صياغة هذا الخبر والشعر الذي تلاه يدل على شيئ من الاختلاف. فاننا نرى ان اي مؤرخ اسلامي له ميول شيعية قد يسره نسبة خبر كهذا وما فيه من شعر لأبي سفيان، لأن اعتراف والد معاوية -خصم علي في المستقبل- بأسبقية علي بن ابي طالب وكفايته لخير دليل عندهم على ذلك ضد خصومه الأمويين.[٦٨] مع العلم اننالا نعتقد ان يكون ابو سفيان قد تخلف كثيرا عن بيعة ابي بكر، وقد يكون تأخر في ذلك ربما لوجوده في اليمن، او تريث في ذلك. لكنه لا بد انه بايعه، لان ابا بكر اقره على نجران، ولو تخلف عن البيعة لعزله عنها. فنحن نلمس من معظم الروايات ان ابا بكر لم يكن يتهاون في أي امر يتعلق بالسلطة.[٦٩]

اما رواية ابن كثير التي تذكر مشاركته في حرب الردة (مع المسلمين)، فأرى انها معقولة لان ابا سفيان لم يكن يترك مناسبة مهمة دون المشاركة فيها على ما يبدو. ولعل تثبيت ابي بكر له على ولاية نجران لدليل على مشاركته في الحرب ضد المرتدين، وكذلك انضمامه الى صفوف المسلمين في معركة اليرموك لاحقا. وقد اقول انه ربما يكون المؤرخون المعادون للأمويين قد طمسوا بعض الروايات.

ويعتقد لامنس ان ابا سفيان لو كان موجودا عند موت النبي لاستطاع ان يلهب نفوس الهاشميين، اقرباءه من عبد مناف. وربما كان يستطيع الحفاظ علىالحكم لبني هاشم. كما يرى لامنس ان خصوم ابي سفيان السابقين – كسهيل بن عمرو – حاولوا جره الى هذا الخلاف على السلطة فلم يستطيعوا.[٧٠] لكن انا لا استبعد ان يكون ابو سفيان قد ابدى امتعاضه لتولي ابي بكر الخلافة، لكنه لا بد كان يعلم على يقين من ان الخروج على ابي بكر بعد توليه الخلافة امر لا جدوى منه، وانه ربما اصبح كبش محرقة لو فعل ذلك، بعد ان بايعه كبار الصحابة.

ويبدو ان موقف سهيل المناقض لموقف ابي سفيان غالبا ما يتكرر في المصادر ليصبح نمطا يتكرر.[٧١] فنجد سهيل يظهر تقيا ورعا بينما يبدو ابو سفيان بمظهر المنافق الذي يقتنص الفرص للانقلاب على المسلمين والارتداد الىالجاهلية. وقد تأتي رواية البلاذري التي تذكر الردة في هذا السياق مع انني أرى ان هناك اسباب موضوعية تجعل الباحث ينكر رواية كهذه. ذلك ان ابا سفيان كان قد افاد هو وآله كثيرا

من الدين الجديد. فقد وُلي ابنه يزيد على الشام - ربما اهم ولاية في الخلافة وقتئذ - و خلفه في منصبه اخوه معاوية،[٧٢] بعد ان كانوا ثلاثتهم في الجيوش التي فتحت الشام-اذ تذكر المصادر، كما أشرت سابقا، ان ابنه يزيد كان من كبار القادة في جيش اليرموك وان ابا سفيان كان يقص الأثر.

وتجدر الاشارة الى ان ابا سفيان كان يناهز السبعين من العمر في معركة اليرموك وهو اعور، لذلك اعتقد ان مسالة اقتفائه للاثر قد تكون من الانماط التي وضعها المؤرخون لتتلاءم ايضا مع الروايات او الانماط التي تذكر اقتفاءه للاثر يوم بدر يوم فت بعر الجمال فعلم بمرور جيش النبي. فيكون بهذا قد استعمل مواهبه لنصرة الاسلام كما كان يستعملها من قبل لمحاربته. وهذه من الانماط التي تتكرر كثيرا في المصادر الاسلامية لاظهار ما يفعله الاسلام في نفوس اتباعه.

اما الرواية التي تذكروقوفه على كراديس الفرس في عمر يناهز السبعين فيصعب تصديقها. فضلاعن كونه " ربعة دحداحا " - كما ذكرت سابقا - ان صحت الروايات. وهذا ما يجعل القيام باعمال بهلوانية كهذه امرا يصعب تصديقه.

وتجدرالاشارة الى ان صيغة دعائه بالنصر للمسلمين تذكرها المصادر باشكال مختلفة، بعضها اكثر اثارة واسطورية. اذا اردنا الحكم على هذه الرواية يمكننا ان نقول ان ابا سفيان كان يهمه نصر المسلمين اكثر من هزيمتهم لان ابنه كان من قادة الجيش، وابنته جويرية وزوجها كانا في صفوف الجيش. ولعل اصابته في عينه الاخرى بعد "جولة قتال شديد "[٧٣] لدليل على انخراطه الجدي في المعركة. وهذا ادى الى فقده للبصر كليا، وفقا لما تذكره المصادر. وقد يتساءل الباحث كيف يعقل ان يكون ابو سفيان حاكما لنجران و يشارك في يوم اليرموك؟ وقد نجد مخرجا من هذه المعضلة اذا قلنا ان حكمه لنجران كان لفترة قصيرة جدا، وقد يبرر هذا ندرة الروايات عن توليه لها و ورود هذا الموضوع بصورة عرضية في مختلف المصادر. كما ان تشهيده على المعاهدات في حياة النبي قد يثبت ولايته على نجران وقتئذ. اما الروايات التي تذكر مشاركته في معركة اليرموك فكثيرة جدا و لا يمكن انكارها بسهولة. مع العلم بان المؤرخين المبكرين كانوا يعنون باخبار الغزوات والاحداث المثيرة اكثر من عنايتهم بقضايا الحكم وتصريف الامور في الدولة على ما يبدو لي.

استنتج مما سبق امرين؛ اولهما ان ابا سفيان لم يتخلف عن بيعة ابي بكر، وقد يكون تأخر لوجوده في منطقة بعيدة عند وفاة النبي. ثانيهما ان اباسفيان كان من مصلحته ان ينتصر المسلمون في معركة اليرموك لان ابنه يزيد كان احد القادة الكبار فيها. لذلك اعتقد ان المؤرخين المسلمين قد وضعوا الروايات التي تذكر مواقفه السلبية لتشويه صورته في ذاك اليوم. لا بد ان دوره في اليرموك كان في حدود ما يتيح له تقدمه في العمر وقدراته الجسدية وقتئذ. وقد استنتج من اصابته في عينه الثانية انه كان في مقدمة صفوف الجيش.

٥- خلافة عمر

تذكر الروايات ان عمر كان يعامل ابا سفيان بخشونة. وقبل ان اسرد هذه الروايات اود ان اذكر رواية ذكرها ابن عساكر دون غيره من المؤرخين قد تكون مدخلا لفهم العلاقة بين الرجلين، التي تحاول المصادر الاسلامية تصويرها:

" قال عمر بن الخطاب لأبي سفيان بن حرب: لا احبك ابدا، رب ليلة غممت فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ".[٧٤]

ونبدأ بروايتين للبلاذري تذكران معاملة عمر الخشنة لابي سفيان:

" واستعدى رجل من بني مخزوم عمر بن الخطاب على ابي سفيان وقال: ظلمني في حد فحج عمر ووقف على الحد، فقال لأبي سفيان: ضع العلامة ها هنا، فقال: والله لا افعل، فقال عمر: والله لتفعلن، فأبى فضربه بالدرة حتى حوله، فاستقبل ابو سفيان القبلة ثم قال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى ادخل قلبي من الاسلام ما ذللني لعمر بن الخطاب، فكان عمر تذمم مما فعل لابي سفيان، رضي الله عنهما ".[٧٥]

أما الرواية الثانية فهي كما يلي:

"... ان ابا سفيان نازع عمر في ارض فنادى ابو سفيان يا لقصي، فخفقه عمر بالدرة وقال: اتدعو بدعوى الجاهلية!! فقالت هند: يا عمر اتضرب ابن حرب؟! اما لربما رمت ذلك منه فاقشعرت بطون البطحاء، فقال عمر: الحمد الله الذي ابدلنا بذلك اليوم خيرا منه ".[٧٦]

بالإضافة لما سبق يذكر الازرقي رواية مماثلة:

"... أصعد عمر بن الخطاب رضه المعلاة في بعض حاجته فمر بابي سفيان بن حرب يهني جملا له فنظر الى احجار قد بناها ابو سفيان شبه الدكان في وجه داره يجلس عليه في فيء الغداة فقال له عمر يا ابا سفيان ما هذا البناء الذي احدثته في طريق الحج فقال ابو سفيان دكان نجلس عليه في فيء الغداة فقال له عمر لا ارجع من وجهي هذا حتى تقلعه وترفعه فبلغ عمر حاجته فجاء والدكان على حاله فقال له عمر الم اقل لك لا ارجع حتى تقلعه قال ابو سفيان انتظرت يا امير المؤمنين ان ياتينا بعض اهل مهنتنا فيقلعه ويرفعه فقال عمر رضه عزمت عليك لتقلعنه بيدك ولتنقلنه على عنقك. فلم يراجعه ابو سفيان حتى قلعه بيده ونقل الحجارة على عنقه وجعل يطرحها في الدار فخرجت اليه هند ابنة عتبة فقالت يا عمر امثل ابي سفيان تكلفه وتعجله عن ان ياتيه بعض اهل مهنته فطعن بمخصرة كانت في يده في خمارها فقالت هند ونفحتها بيدها اليك عني يا ابن الخطاب فلو في غير هذا اليوم تفعل هذا لاضطمت عليك الاخاشب، قال فلما قلع ابو سفيان الحجارة ونقلها استقبل عمر القبلة وقال الحمد لله الذي اعز الاسلام واهله عمر بن الخطاب رجل من بني عدي بن كعب يامر ابا سفيان بن حرب سيد عبد مناف بمكة فيطيعه ثم ولى عمر ابن الخطاب رضه ..."(٧٧)

وبالعودةالىابن عساكر، فانه يذكر روايتين تندرجان في هذا الاطار:

"... ان ابا سفيان ابتنى دارا بمكة فاتى اهل مكة عمر فقالوا له: انه قد ضيق علينا الوادي وسيل علينا الماء، فاتاه عمر فقال له: خذ هذا الحجر فضعه ثمة، وخذ هذا الحجر فضعه ثمة، ثم قال عمر: الحمد لله الذي اذل ابا سفيان بأبطح مكة ".(٧٨)

اما الرواية الثانية فتذكر ان اناسا جاؤوا الى عمر فقالوا:

" ان ابا سفيان سد علينا مجرى السيل باحجار وضعها هناك، فقال: علي بأبي سفيان، فجاء، فقال:لا أبرح حتى تنقل هذه الحجارة حجرا حجرا بنفسك، فجعل ينقلها، فلما رأى ذلك عمر قال: الحمد لله الذي جعل عمر يأمر ابا سفيان ببطن مكة فيطيعه".(٧٩)

ثم يضيف ابن عساكر رواية من نوع آخر تذكر ان ابا سفيان اختلس بعضا من مال المسلمين:

" لما ولى عمر بن الخطاب معاوية الشام خرج معه بابي سفيان بن حرب، قال: فوجه معاوية مع ابي سفيان الى عمر بكتاب ومال وكبل، قال: فدفع الىعمر الكتاب والكبل وحبس المال، قال عمر: ما أرى يصنع هذا الكبل في رجل احد قبلك، قال: فجاء بالمال فدفعه الى عمر ".(٨٠)

اما البلاذري، فيذكر ان عمر لم يهدده فقط بل كبله بالفعل ليعيد المال:

" ... فقال عمر ضعوا رجل ابي سفيان في الادهم [القيد]، فوضع فيه حتى اتى بالدنانير ...".(٨١)

من ناحية ثانية هناك بعض الروايات التي لا تندرج في الاطار الذي ذكرت وقد تناقض التي سبقتها.وفي هذا السياق يذكر البلاذري ان عمر عندما وضع الدواوين وفرض العطاء سنة ٢٠ للهجرة، اعطى العباس حصة ثم اعطى ابا سفيان حصة كسائر زعماء قريش (وهي تتراوح بين ثلاثة وخمسة آلاف درهم على الأرجح) (٨٢). وقد اعترض ابو سفيان على توزيع الغنائم واموال الجزية فقال لعمر:" اديوان مثل ديوان بني الاصفر، انك ان فرضت للناس اتكلوا على الديوان وتركوا التجارة، فقال عمر: لابد من هذا فقد كثر فيء المسلمين ".(٨٣)

الى جانب ما سبق، يذكر البلاذري رواية تتحدث عن قدوم معاوية من الشام على عمر بعد ان ولى الاخير يزيدا على الشام، فاوصى عمر معاوية بزيارة والديه والاحسان اليهم. فقال ابو سفيان يوصي ابنه معاوية:" ان هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقوا وتأخرنا، فرفعهم سبقهم وقصر بنا تخلفُنا، و صاروا قادة وصرنا اتباعا، وقد ولوكم جسيما من امرهم فلا تخالفوهم، وانك تجري الى امد لم تبلغه وستبلغه ".(٨٤)

وعندما عين عمر معاوية مكان يزيد، يذكر البلاذري ان ابا سفيان كتب اليه يشكره:

" لما توفي يزيد بن ابي سفيان كتب عمر الى معاوية بتوليته ما كان يتولاه فشكر ابو سفيان ذلك له، وقال: و صلتك يا أمير المؤمنين رحم ".(٨٥)

من ناحية ثانية يذكر المبرد رواية تناقض كل ما عداها عن معاملة عمر لابي سفيان:

"... وكان عمر بن الخطاب يفرش فراشا في بيته في وقت خلافته فلا يجلس عليه الا العباس بن عبد المطلب وابو سفيان بن حرب، ويقول هذا عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا شيخ قريش ".[٨٦]

بعد خلافة ابي بكر، لا تذكر المصادر كيف تعامل ابو سفيان مع خلافة عمر له. ولعل تولي عمر الخلافة لم يكن مفاجئا كما كانت خلافة ابي بكر التي كانت تحدث لاول مرة في تاريخ الأمة. ونلاحظ من خلال الروايات في هذه المرحلة اتباع نمط كان موجودا في مرحلة صراع ابي سفيان مع النبي، وهو نمط المقابلة بين رمز الخير ورمز الشر- ان صح التعبير. وفي غياب النبي اعتمد الرواة عمر قطبا للخير والاستقامة- على ما يبدو. ونعتقد ان اساس هذا النمط ربما كان اقوال النبي التالية:

أ- " لو كان نبي بعدي لكان عمر بن الخطاب ".[٨٧]

ب- " والذي نفسي بيده!ما لقيك الشيطان قط سالكا فجاالا سلك فجا غير فجك".[٨٨]

ج- " ان الله وضع الحق على لسان عمر يقول به ".[٨٩]

فضلا عن احاديث اخرى تعطيه دور الملهم بعد النبي محمد.[٩٠] لذلك قد نقول ان الرواة المعادون للأمويين وجدوا في مواجهة عمر بابي سفيان خير اسلوب لتصوير الاخير رمزا للنفاق والردة. فنرى ان عمر يعامله بخشونة على الرغم من ان عمره كان يقارب الثمانين، وهو أعمى .

من ناحية ثانية، يبدو ان النزاع بين عمر وابي سفيان يكون دائما بسبب ارض او املاك من نوع آخر (أي شيئ من " متاع الدنيا " يريده ابو سفيان لنفسه بالباطل)، وينتهي الامر باذلال ابي سفيان واعتراض هند، ثم يليه موقف يشيد بفضائل الاسلام وفضله على هذا او ذاك. وهذا النمط قد يدخل في نطاق " اسلمة التاريخ " الذي تحدثنا عنه سابقا. وهو يستعمل ابا سفيان وهند من ناحية، وعمر من ناحية اخرى كرموز لايصال رسالة دينية محددة { ولله العزة و لرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون }[٩١]

وتجدر الاشارة الى ان ابا سفيان كان قد طلق هند في عهد عمر وفقا لاحدى الروايات، هذا ان صح يجعل ظهورها في الروايات التي سبقت مجرد نمط لاستكمال

الصورة التي يتوخاها المؤرخ الاسلامي من وجود هند التي تقتصر مهمتها على التذكير بمقام ابي سفيان قبل الاسلام للوصول الى النتيجة المطلوبة من الرواية – كمت ذكرت سابقا. حتى في الروايات التي تتناول العلاقة بين عمر وابي سفيان بايجابية، نجد هذا النمط الذي يدل على " اسلمة التاريخ " واستعمال الشخصيات التاريخية أبواقا لتمجيد الدعوة الاسلامية. واذكر مثالا علىذلك الرواية التي يعترف فيها ابوسفيان بأسبقية المهاجرين عليه شخصيا وعلى اهل بيته.

ويظهر من مختلف الروايات ان أية علاقة طيبة بين عمر وابي سفيان كانت تحصل فقط عبر ابنائه يزيد ومعاوية او نديمه العباس، واذكر مثالا على ذلك رواية المبرد التي تقرن النديمين سويا عند عمر. وعلى الرغم من ان هذه الرواية تناقض موقف عمر القاسي من ابي سفيان في معظم الروايات التي ذكرت، الا اننا يمكن ان نصدق الشطر المتعلق بالعباس منها. ا ذ ان عمرا استمطر به في يوم جدب.(٩٢) اما القسم الذي يتعلق بابي سفيان فهو على الارجح من الانماط التي صاغها المؤرخون وهي تدخل تحت باب الندماء من قريش.

واخلص الى القول مما سبق ان عمر لابد كان يعامل ابا سفيان كغيره من زعماء قريش الفاعلين ويقتطع له نصيبه من أية غنيمة او فيء كغيره من سادة القوم. كما ان وجود ولديه يزيد ومعاوية في قيادة الجيوش ثم في الحكم في الشام لا بد كان يجعل عمر يحسن معاملة ابي سفيان الذي لا بد انه كان قد بلغ من الكبر عتيا وفقد عزيزتيه (في يوم حنين ويوم اليرموك كما ذكرت سابقا) في خدمة جيوش المسلمين. لذلك لا اتوقع من عمر ان يعامله كما يعامل غيره من سادة القوم.

٦- خلافة عثمان

تذكر المصادر الاسلامية انه عندما بويع عثمان بالخلافة دخل داره " ومعه بنو امية فقال ابو سفيان: " افيكم احد من غيركم ؟ " وقد كان عمي ؛ قالوا: " لا " – قال:" يا بني امية تلقفوا تلقف الكرة: والذي يحلف به ابو سفيان ما زلت ارجوها لكم ولتصيرن الى صبيانكم وراثة !" فانتهره عثمان وساءه ما قال ".(٩٣)

وفي رواية اخرى لابن عساكر:

" عن انس ان ابا سفيان بن حرب دخل على عثمان بعدما عمي فقال ها هنا احد ؟ قالوا لا، قال: اللهم اجعل الامر امر جاهلية، والملك ملك غاصبية واجعل اوتاد الارض لبني امية ".[٩٤]

ثم يضيف ابن عساكر رواية اخرى:

" لما هلك عمر بن الخطاب وجد عثمان بن عفان في بيت مال المسلمين الف دينار مكتوبا عليها عزل ليزيد بن ابي سفيان، و كان عاملا لعمر، فارسل عثمان الى ابي سفيان: انا وجدنا لك في بيت مال المسلمين الف دينار، فارسل ما قبضها، فارسل اليه ابو سفيان فقال: لو علم ابن الخطاب لي فيها حقا لاعطانيها وما حبسها عني وابى ان يأخذها ". [٩٥]

اما اليعقوبي فيذكر تأثير ابي سفيان على عثمان في الرواية التالية:

" وكان عثمان جوادا وصولا بالاموال وقدم اقاربه وذوي ارحامه، فسوى بين الناس في الاعطية وكان الغالب عليه مروان بن الحكم بن ابي العاص، وابو سفيان بن حرب ".[٩٦]

ويختلف الرواة في تاريخ وفاة ابي سفيان فيذكر ابن عساكر ان ابا سفيان مات " لتسع سنين مضت من امارة عثمان ".[٩٧] ويذكر اليعقوبي انه توفي عام ٣١هـ . وصلى عليه عثمان،[٩٨] والمدائني يقول عام ٣٤ هـ .[٩٩] و يضيف ابن عساكر فيذكر انه توفي عام ٣١ هـ عن عمر يناهز ثمان وثمانين سنة في المدينة .[١٠٠]

لا استطيع ان انكر في هذا السياق ان الاجواء القبلية والعشائرية ربما كانت تصبح مشحونة عندما كانت تطرح مسألة الخلافة التي لا بد من انها كانت راس الامر والطموح الاعلى لاية عشيرة – خاصة بنو امية الذين كانوا فقدوا بعضا من مكانتهم البارزة ردحا من الزمن. لذلك لا استبعد ان يدلي رجل كأبي سفيان بتصريح يتضمن ما ذكر في الرواية الاولى. لكن العبارة التي وردت: " ولتصيرن الى صبيانكم وراثة " تبدو وكانها وضعت في زمن متقدم لتتنبأ بخلافة يزيد وغيره، ويقتصر وجودها على رواية المسعودي هذه.

من ناحية ثانية، لا اعتقد ان ابا سفيان كان له دور كبير في سياسة عثمان، ولوحصل ذلك لافاد الرواة المعادون للامويين من هذا الامر، ولحاكوا حوله قصصا

كثيرة تسيئ للرجلين ولبني امية. لذلك اعتقد ان انقطاع اخباره في هذه الفترة لتصبح شبه معدومة يدل على انه قد بلغ من الكبر عتيا ولم يعد يشارك في الحياة العامة.
وارى ان معظم الروايات تذكر انه توفي عام ٣١ هـ. عن ثمان و ثمانين سنة .

الفصل السادس

ابو سفيان في بعض الانماط والروايات الضعيفة

ذكرت سابقا عددا من الانماط التي اصطنعها المؤرخون المبكرون في صياغة الروايات التاريخية او اعادة كتابتها او وضعها. وسأتناول في هذا القسم بعض الانماط التي لا يسمح بها سياق البحث لانها تاتي في بعض الاحيان ضمن روايات طويلة جدا، ويؤدي ذكرها الىاستطرادات كبيرة قد تسبب خللا في السياق العام. وفي احيان اخرى قد يبدو فيها التلفيق واضحا جدا ولا يحتاج لأي تعليق. لذلك اعتقد ان سردها في هذا القسم المنفصل سيلقي الضوء على بعض الروايات المتعلقة بأبي سفيان دون ان يسيئ الىسياق البحث.

١ - ابو سفيان و العباس

وابدأ بنمط ذكرته سابقا وهو علاقة ابي سفيان بالعباس بن عبد المطلب- عم ابي النبي. اللذين تذكر المصادر الاسلامية انهما كانا نديمين.[١] لذلك يكثر ذكرهما معا في مختلف الروايات التي تعالج مختلف الاحداث.ويبدو ان هذا النمط جعل بعض المؤرخين يقحمون اسم هذا اوذاك في رواياتهم لاستكمال الصورة المحببة اليهم. وقد أدى هذا في بعض الاحيان الى اخطاء تاريخية واضحة كما حصل في رواية لابن حبيب يصف فيها حربا وقعت في الجاهلية ولا ذكر فيها لأبي سفيان بن حرب، موضوع هذا البحث.

" ... أتتكم قريش بأجمعها و تهيأ الناس و صفوا صفوفهم، وقام حرب بن أمية [والد ابي سفيان] يسوي صفوف كنانة ومعه اخوته سفيان وابو سفيان وهو عنبسة بن امية وابو العاصي بن امية ويومئذ سموا العنابس وقد لبس حرب بن امية درعين وقيد نفسه ولبس سفيان درعين وقيد نفسه ولبس ابو العاصي درعين وقيد نفسه، وكان معهم العباس بن عبد المطلب في العنابس يومئذ قيد نفسه معهم ايضا، وقالوا لن نبرح حتى نموت او نظهر عليهم ...".[٢]

ويبدو من سياق الرواية ان المؤرخ استلحق العباس لوجود ابي سفيان في العنابس، وربما قد التبس عليه الامر و لم يدرك انه عم ابي سفيان بن حرب موضوع بحثنا وقد توفي ولم يترك عقبا، وفقا لرواية البلاذري .[٣] كما ان هذه الرواية تتناول احداثا شارك فيها اجيال سبقت جيل محمد وابي سفيان والعباس. لذلك ارجح خطأ ابن حبيب في استلحاق العباس، ويكون هذا النمط (" الندماء ") قد ادى الى هذا الالتباس.

لا انكر ان يكون الرجلان حقا نديمين، فالعباس كان مرابيا وابوسفيان كان تاجرا، والاثنان من الجيل نفسه على ما يبدو. وقد جلبت مهنة العباس عليه عداوات كثيرة ضمرها له فقراء القوم ومستضعفوهم. وتذكر كتب الصحاح احاديث تصف مواقف متشابهة من صحابة النبي تجاه الرجلين:

" عن العباس بن عبد المطلب؛ قال: كنا نلقى النفر من قريش، و هم يتحدثون. فيقطعون حديثهم فذكرنا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال " مابال اقوام يتحدثون. فاذا رأوا الرجل من اهل بيتي قطعوا حديثهم. والله لا يدخل قلب رجل الايمان حتى يحبهم لله ولقرابتهم مني ". [٤]

اما ابو سفيان فلا شفاعة له من كره الصحابة، فهو ليس من اهل البيت:

" حدثني ابن عباس قال: كان المسلمون لا ينظرون الى ابي سفيان ولا يقاعدونه. فقال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا نبي الله! ثلاث اعطنيهنَ قال" نعم" قال: عندي احسن العرب واجمله، ام حبيبة بنت ابي سفيان، ازوجكها. قال " نعم " قال: معاوية، تجعله كاتبا بين يديك قال " نعم " قال: وتؤمرني حتى اقاتل الكفار، كما كنت اقاتل المسلمين. قال " نعم ".

قال ابو زميل. ولولا انه طلب ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم، ما اعطاه ذلك. لانه لم يكن يسأل شيئا الا قال " نعم ".[٥]

ويبدو ان فقراء المسلمين وعامتهم لم يكونوا فقط يكرهون ابا سفيان لانه كان فقط من اشراف القوم، مما يخلق عداء سببه التفاوت في الطبقة الاجتماعية، بل كانوا ايضا يذكرون له المرحلة التي قضاها في قتالهم، يروي الامام مسلم ما يلي:

" عن عائذ بن عمرو، ان ابا سفيان اتى على سلمان وصهيب وبلال في نفر. فقالوا: والله! ما اخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها. قال فقال ابوبكر: اتقولون

هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال " يا ابا بكر! لعلك أغضبتهم. لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك ".

فأتاهم ابو بكر فقال: يا اخوتاه! أغضبتكم ؟ قالوا:لا. يغفر الله لك. يا اخي ".(٦)

ولا أستبعد ان تكون صيغة هذا الحديث نمطا يصب في المغزى الذي ذكرته سابقا والمستوحى من الآية{ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون} لكن هذا الحديث والاحاديث الاخرى التي ذكرتها سابقا لا بد انها كانت تعكس الفتور في علاقة الصحابة تجاه ابي سفيان و العباس معا واللذين ربما كانا يتصفان بالصفات نفسها تقريبا. ويبدو انهما دخلا في حظيرة النبي في نفس الوقت معا، قبل فتح مكة، وانهما كانا على تنسيق تام في كثير من الامور، كما رأينا في سياق هذا البحث. وقد استلهم المؤرخون المبكرون من هذه العلاقة المميزة بين الرجلين روايات عديدة تدخل بعضها ضمن نمط دلائل النبوة ، وهذه روايات تنتزع للنبي محمدا شهادات بنبوته وفضله على لسان الاعاجم الذين لم يروه قط، بل عرفوه من كتبهم المقدسة او القصص التي سمعوها من احبارهم. يذكر الاصفهاني القصة التالية:

" أخبرني الحسن بن علي قال حدثني محمد بن زكريا الغلابي قال حدثني ابو بكر الهذلي عن عكرمة عن ابن العباس قال قال لي العباس:

خرجت في تجارةالى اليمن في ركب منهم ابو سفيان بن حرب، فقدمت اليمن. فكنت اصنع يوما طعاما وانصرف بابي سفيان وبالنفر، و يصنع ابو سفيان يوما فيفعل مثل ذلك. فقال لي في يومي الذي كنت اصنع فيه: هل لك يا ابا الفضل ان تنصرف الى بيتي وتُرسل الى غداءك؟ فقلت: نعم. فانصرفت انا والنفر الى بيته وارسلت الى الغداء. فلما تغدى القوم قاموا واحتبسني فقال لي: هل علمت يا ابا الفضل ان ابن اخيك يزعم انه رسول الله؟ قلت: وأي بني اخي! قال ابوسفيان: اياي تكتم! وأي بني اخيك ينبغي له ان يقول هذا الا رجل واحد! قلت: وايهم هو على ذلك؟ قال: محمد بن عبد الله. قلت: ما فعل؟ قال: بلى قد فعل. ثم اخرج الي كتابا من ابنه حنظلة بن ابي سفيان: اني اخبرك ان محمدا قام بالأبطح غُدوة فقال: انا رسول الله ادعوكم الى الله. قال: قلت: يا ابا حنظلة، لعله صادق. قال مهلا ابا الفضل، فوالله ما احب ان تقول مثل هذا واني لأخشى ان تكون على بصر من هذا الامر– و قال الحسن بن علي في روايته: على

بصيرة من هذا الحديث – ثم قال: يا بني عبد المطلب، انه والله ما برحت قريش تزعم ان لكم يمنة وشؤمة كل واحدة منهما عامة، فنشدتك الله يا ابا الفضل هل سمعت ذلك؟ قلت نعم: قال: فهذه والله اذا شؤمتكم. قلت: فلعلها يمنتنا. فما كان بعد ذلك الا ليال حتى قدم عبد الله بن حذافة التهمي بالخبر وهو مؤمن، ففشا ذلك في مجالس اهل اليمن يتحدث به فيها. وكان ابو سفيان يجلس الى حبر من احبار اليمن؛ فقال له اليهودي: ما هذا الخبر الذي بلغني؟ قال: هو ما سمعت. قال: اين فيكم عم هذا الرجل الذي قال ما قال؟ قال ابو سفيان: صدقوا وانا عمه. قال اليهودي: أأخو ابيه؟ قال نعم. قال: حدثني عنه. قال: لا تسألني، فما كنت احسب ان يدعي هذا الامر ابدا، وما احب ان اعيبه، وغيره خير منه. قال اليهودي: فليس به أذى ولا بأس على يهود وتوراة موسى منه. قال العباس: فتأدى الي الخبر فحميت، وخرجت حتىاجلس الى ذلك المجلس من غد وفيه ابو سفيان والحبر. فقلت للحبر: بلغني انك سالت ابن عمي هذا عن رجل منا يزعم انه رسول الله، فاخبرك انه عمه، وليس بعمه ولكن ابن عمه، وانا عمه اخو ابيه. فقال: الخو ابيه؟ قلت اخو ابيه. فاقبل على ابي سفيان فقال: أصدق؟ قال: نعم صدق. قال فقلت: سلني عنه، فان كذبت فليردد علي. فاقبل علي فقال: انشدك الله، هل فشت لابن اخيك صبوة او سفهة؟ قال قلت: لا واله عبد المطلب ولا كذب ولا خان وان كان اسمه عند قريش الامين. قال: فهل كتب بيده؟ قال عباس: فظننت انه خير له ان يكتب بيده فاردت ان اقولها، ثم ذكرت مكان ابي سفيان وانه مكذبي وراد علي، فقلت: لا يكتب. فذهب الحبر و ترك رداءه و جعل يصيح: ذبحت يهود. قتلت يهود.

قال العباس: فلما رجعنا الى منزلنا قال ابوسفيان: يا ابا الفضل، ان اليهودي لفزع من ابن اخيك. قال قلت: قد رأيت ما رأيت، فهل لك يا ابا سفيان ان تؤمن به، فان كان حقا كنت سبقت، وان كان باطلا فمعك غيرك من اكفأك؟ قال: لا والله ما أومن به حتى ارى الخيل تطلع من كداء (وهو جبل بمكة). قال قلت: ما تقول؟! قال: كلمة والله جاءت على فمي ما القيت لها بالا،الا اني اعلم ان الله لا يترك خيلا تطلع من كداء، قال العباس: فلما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ونظرنا الى الخيل قد طلعت من كداء، قلت: يا ابا سفيان، اتذكر الكلمة؟ قال لي: والله اني لذاكرها، فالحمد لله الذي هداني للاسلام".(٧)

٢ - ابو سفيان و روايات دلائل النبوة

وبعد ان اشهد الراوي احد احبار اليهود علىنبوة محمد، نجد رواية اخرى عند الطبري تستعمل ابا سفيان- رأس الكفر- لانتزاع شهادة بنبوة محمد من رأس العالم المسيحي وقتئذ -هرقل، وكبير أساقفة النصارى في رواية طويلة تنقل المشهد الى الشام:

"عن عبد الله بن عباس قال حدثني ابوسفيان بن حرب قال كنا قوما تجارا وكانت الحرب بيننا و بين رسول الله قد حصرتنا حتى نهكت اموالنا فلما كانت الهدنة بيننا وبين رسول الله لم نأمن ان لا نجد امنا فخرجت في نفر من قريش تجار الى الشام وكان وجه متجرنا منها غزة فقدمناها حين ظهر هرقل على من كان بأرضه من فارس واخرجهم منها وانتزع له منهم صليبه الاعظم وكانوا قد استلبوه أياه فلما بلغ ذلك منهم وبلغه ان صليبه قد استنقذ له وكانت حمص منزله خرج منها يمشي على قدميه متشكرا لله حين رد عليه ما رد ليصلي في بيت المقدس تبسط له البسط وتلقى عليها الرياحين فلما انتهى الى ايلياء وقضى فيها صلاته ومعه بطارقته واشراف الروم اصبح ذات غداة مهموما يقلب طرفه الى السماء فقال له بطارقته والله لقد اصبحت ايها الملك الغداة مهموما قال اجل أُريت في هذه الليلة ان ملك الختان ظاهر قالوا له ايها الملك ما نعلم امة تختتن الا يهود وهم في سلطانك وتحت يدك فابعث الى كل من لك عليه سلطان في بلادك فمره فليضرب اعناق كل من تحت يديه من يهود واسترح من هذا الهم فوالله انهم لفي ذلك من رايهم يدبرونه اذ اتاه رسول صاحب بصرى برجل من العرب يقوده وكانت الملوك تهادى الاخبار بينها فقال. ايها الملك ان هذاالرجل من العرب من اهل الشاء والابل يحدث عن امر حدث ببلاده عجب فسله عنه فلما انتهى به الىهرقل رسول صاحب بصرى قال هرقل لترجمانه سله ما كان هذا الحدث الذي كان ببلاده فسأله فقال خرج بين اظهرنا رجل يزعم انه نبي قد اتبعه ناس وصدقوه وخالفه ناس وقد كانت بينهم ملاحم في مواطن كثيرة فتركتهم على ذلك قال فلما اخبره الخبر قال جردوه فجردوه فاذا هومختون فقال هرقل هذا والله الذي رأيت لا ما تقولون اعطوه ثوبه انطلق عنك ثم دعا صاحب شرطته فقال له قلب لي الشام ظهرا وبطنا حتى تأتيني برجل من قوم هذا الرجل يعني النبي صلعم قال ابو سفيان فوالله انا لبغزة اذ هجم علينا

صاحب شرطته فقال انتم من قوم هذا الرجل الذي بالحجاز؟ قلنا نعم قال انطلقوا بنا الى الملك فانطلقنا معه فلما انتهينا اليه قال انتم من رهط هذا الرجل؟ قلنا نعم قال فأيكم امس به رحما؟ قلت: انا قال ابو سفيان وايم الله ما رايت من رجل ارى انه كان انكر من ذلك الأغلف يعني هرقل فقال ادنه فاقعدني بين يديه واقعد اصحابي خلفي ثم قال اني سأسأله فان كذب فردوا عليه فوالله لو كذبت ما ردوا علي ولكني كنت امرءا سيد اتكرم عن الكذب وعرفت ان ايسر ما في ذلك ان انا كذبته ان يحفظوا ذلك علي ثم يحدثوا به عني، فلم اكذبه فقال اخبرني عن هذا الرجل الذي خرج بين اظهركم يدعى ما يدعى قال فجعلت أزهد له شانه وأصغر له امره واقول له ايها الملك ما يهمك من امره ان شأنه دون ما يبلغك. فجعل لا يلتفت الى ذلك ثم قال انبئني عما اسألك عنه من شأنه. قلت سل عما بدا لك قال كيف نسبه فيكم؟ قلت محض اوسطنا نسبا. قال فاخبرني هل كان احد من اهل بيته يقول مثل ما يقول فهو يتشبه به؟ قلت: لا قال فهل كان له فيكم ملك فاستلبتموه اياه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه؟ قلت: لا. قال: فاخبرني عن اتباعه منكم من هم قال: قلت الضعفاء والمساكين والاحداث من الغلمان والنساء واما ذوو الاسنان والشرف من قومه فلم يتبعه منهم احد قال: فاخبرني عن من تبعه ايحبه ويلزمه ام يقليه ويفارقه. قال: قلت ما تبعه رجل ففارقه. قال: فاخبرني كيف الحرب بينكم وبينه؟ قال: قلت سجال يدال علينا وندال عليه قال فاخبرني هل يغدر فلم اجد شيئا مما سألني عنه اغمزه فيه غيرها قلت: لا ونحن منه في هدنة ولا نأمن غدره قال: فوالله ما التفت اليها منى ثم كر على الحديث قال سالتك كيف نسبه فزعمت انه محض من اوسطكم نسبا وكذلك يأخد الله النبي اذا اخذه لا ياخذه الا من اوسط قومه نسبا. وسألتك هل كان احد من اهل بيته يقول بقوله فهو يتشبه به فزعمت ان لا وسألتك هل كان له فيكم ملك فاستلبتموه اياه فجاء بهذا الحديث يطلب به ملكه فزعمت ان لا. وسألتك عن اتباعه فزعمت انهم الضعفاء والمساكين والاحداث والنساء، وكذلك اتباع الانبياء في كل زمان. وسألتك عن من يتبعه ايحبه ويلزمه ام يقليه ويفارقه فزعمت ان لا يتبعه احد فيفارقه، وكذلك حلاوة الايمان لا تدخل قلبا فتخرج منه. وسألتك هل يغدر فزعمت ان لا فلئن كنت صدقتني عنه ليغلبني على ما تحت قدمي هاتين ولوددت اني عنده فأغسل قدميه، انطلق لشأنك قال فقمت من عنده وانا اضرب احدى يدي بالأخرى

واقول أي عباد الله لقد امر امرُ ابن ابي كبشة اصبح ملوك بني الاصفر يهابونه في سلطانهم بشأم. قال وقدم عليه كتاب رسول الله صلعم مع دحية بن خليفة الكلبي بسم الله الرحمان الرحيم من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم السلام على من اتبع الهدى اما بعد أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله اجرك مرتين وان تتولى فان اثم الأكارين عليك يعنى تحماله، نا سفيان بن وكيع قال نا يحيى بن آدم قال نا عبد الله بن ادريس قال نا محمد بن اسحاق عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة عن ابن عباس قال: اخبرني ابو سفيان بن حرب قال لما كانت الهدنة بيننا وبين رسول الله صلعم عام الحديبية خرجت تاجرا الى الشام ثم ذكر نحو حديث ابن حميد عن سلمة الا انه زاد في آخره، قال: فأخذ الكتاب فجعله بين فخذيه وخاصرته، نا ابن حميد قال نا سلمة قال حدثني ابن اسحاق قال قال ابن شهاب الزهري حدثني اسقف للنصارى ادركته في زمان عبد الملك بن مروان انه ادرك ذلك من امر رسول الله صلعم وامر هرقل وعقله قال: فلما قدم عليه كتاب رسول الله صلعم مع دحية بن خليفة اخذه هرقل فجعله بين فخذيه وخاصرته ثم كتب الىرجل برومية كان يقرأ من العبرانية ما يقرءُونه يذكر له امره ويصف له شأنه ويخبره بما جاء منه فكتب اليه صاحب رومية انه للنبي الذي كنا ننتظره لا شك فيه فاتبعه وصدقه فأمر هرقل ببطارقة الروم فجمعوا له في دسكرة وامر بها فأشرجت ابوابها عليهم ثم اطّلع عليهم من علية له وخافهم على نفسه وقال: يا معشر الروم انى قد جمعتكم لخير انه قد اتاني كتاب هذا الرجل يدعوني الى دينه وانه والله النبي الذي كنا ننتظره ونجده في كتبنا فهلموا فلنتبعه ونصدقه فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا. قال: فنخروا نخرة رجل واحد ثم ابتدروا ابواب الدسكرة ليخرجوا منها فوجدوها قد اغلقت فقال: كروهم علي وخافهم على نفسه فقال يا معشر الروم انى قد قلت لكم المقالة التي قلت لأنظر كيف صلابتكم على دينكم لهذا الأمر الذي قد حدث، وقد رأيت منكم الذي أسر به فوقعوا له سجدا وامر بأبواب الدسكرة ففتحت لهم فانطلقوا، نا ابن حميد قال نا سلمة قال نا محمد بن اسحاق عن بعض اهل العلم ان هرقل قال لدحية بن خليفة حين قدم عليه بكتاب رسول الله صلعم ويحك والله انى لأعلم ان صاحبك نبي مرسل وانه الذي كنا ننتظره ونجده في كتابنا. ولكنىاخاف الروم على نفسي ولولا ذلك لاتبعته، فاذهب الى ضغاطر الاسقف فاذكر له امر صاحبكم فهو والله اعظم في الروم

مني واجوز قولا عندهم مني فانظر ما يقول لك قال: فجاءه دحية فأخبره بما جاء به من رسول الله صلعم الى هرقل وبما يدعوه اليه فقال ضغاطر صاحبك والله نبي مرسل نعرفه بصفته ونجده في كتبنا باسمه ثم دخل فألقى ثيابا كانت عليه سوداء ولبس ثيابا بيضا ثم اخذ عصاه فخرج على الروم وهم في الكنيسة فقال: يا معشر الروم انه قد جاءنا كتاب من احمد يدعونا فيه الى الله عز وجل واني اشهد ان لا اله الا الله وان احمد عبده ورسوله. فوثبوا عليه وثبة رجل واحد فضربوه حتى قتلوه فلما رجع دحية الى هرقل فأخبره الخبر قال قد قلت لك انا نخافهم على انفسنا فضغاطر والله كان اعظم عندهم واجوز قولا مني، نا ابن حميد قال نا سلمة قال نا محمد بن اسحاق عن خالد بن يسار عن رجل من قدماء اهل الشأم قال لما اراد هرقل الخروج من ارض الشأم الى القسطنطينية لما بلغه من امر رسول الله صلعم جمع الروم فقال: يا معشر الروم انى عارض عليكم امورا فانظروا فيما قد اردتها قالوا ما هي تعلمون والله ان هذا الرجل لنبي مرسل انا نجده في كتابنا نعرفه بصفته التي وصف لنا فهلم فلنتبعه فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا فقالوا: نحن نكون تحت يدى العرب ونحن اعظم الناس ملكا واكثرهم رجالا وافضلهم بلدا قال فهلم فأعطيه الجزية في كل سنة اكسر عنى شوكته واستريح من حربه بمال اعطيه اياه قالوا: نحن نعطى العرب الذل والصغار بخرج يأخذونه منا ونحن اكثر الناس عددا واعظمهم ملكا وامنعهم بلدا لا والله لا نفعل هذا ابدا. قال: فهلم فلأصالحه على ان أُعطيه ارض سورية ويدعني وارض الشام. قال: وكانت ارض سورية ارض فلسطين والاردن ودمشق وحمص وما دون الدرب من ارض سورية. وكان ما وراء الدرب عندهم الشأم، فقالوا له نحن نعطيه ارض سورية وقد عرفت انها سرة الشأم والله لا نفعل هذا ابدا. فلما ابوا عليه قال: اما والله لترون انكم قد ظفرتم اذا امتنعتم منه في مدينتكم. ثم جلس على بغل له فانطلق حتى اذا اشرف على الدرب استقبل ارض اشأم ثم قال السلام عليكم ارض سورية تسليم الوداع ثم ركض حتى دخل القسطنطينية.[٨]

بالإضافة لما سبق، يذكر ابن عساكر رواية يمكن ان تندرج تحت هذا النمط:

"... عن عروة بن الزبير، عن معاوية بن ابي سفيان، عن ابي سفيان بن حرب، ان امية بن ابي الصلت كان معه بغزة، او قال بايلياء، فلما قفلنا قال لي امية: يا ابا

سفيان، هل لك ان تتقدم على الرفقة فنتحدث؟ قلت: نعم، قال: ففعلنا، فقال له: يا ابا سفيان ايهن عن عتبة بن ربيعة، قال: ايهن عن عتبة بن ربيعة،وقال: السن والشرف، قال: كريم الطرفين، ويجتنب المظالم والمحارم، قلت: نعم، قال: وشريف مسن، قلت: [شريف مسن. قال:] السن والشرف ازريا به فقلت له: كذبت، ما ازداد سنا الا ازداد [شرفا]، قال: يا ابا سفيان انها لكلمة ما سمعت احدا يقولها لي منذ تنصرت، لا تعجل علي حتى اخبرك، قال، قال: اني كنت اجد في كتبي نبيا يبعث من حرتنا هذه، فكنت اظن بل كنت لا اشك اني هو، فلما دارست اهل العراق اذا هو من بني عبد مناف، فنظرت في بني عبد مناف فلم اجد احدا يصلح لهذا الامر غير عُتبة بن ربيعة، فلما اخبرتني بسنه عرفت انه ليس به حين جاوز الاربعين ولم يوح اليه، قال ابو سفيان: فضرب الدهر ضربة واوحي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخرجت في ركب من قريش اريد اليمن في تجارة، فمررت بامية بن ابي الصلت، فقلت له كالمستهزئ به: يا امية، قد خرج النبي [الذي] كنت تنتظر، قال: اما انه حق فاتبعه، قلت: ما يمنعك من اتباعه؟ قال: ما يمنعني الاالاستحياء من نسيات ثقيف اني كنت احدثهم اني هو، ثم يروني تابعا لغلام من بني عبد مناف.

ثم قال امية: وكأن بك يا ابا سفيان ان خالفته قد ربطت كما يربط الجدي حتى يؤتى بك اليه، فيحكم فيك ما يريد ".[٩]

من ناحية ثانية، يذكر ابن كثير رواية قد تندرج تحت انماط " دلائل النبوة "، وهي تذكر شهادة ذئب بنبوة محمد على مرأى من ابي سفيان:

" قد تكلم القاضي عياض على حديث الذئب فذكر عن ابي هريرة، وابي سعيد، وعن اهبان بن اوس رضي الله عنهم، وانه كان يقال له مكلم الذئب؛ قال وقد روى ابن وهب انه جرى مثل هذا لابي سفيان بن حرب، وصفوان بن امية، مع ذئب وجداه اخذ ظبيا، فدخل الظبي الحرم، فانصرف الذئب، فعجبا من ذلك، فقال الذئب: اعجب من ذلك محمد بن عبد الله بالمدينة يدعوكم الى الجنة وتدعونه الى النار. فقال ابو سفيان: واللات والعزى لئن ذكرت هذا في مكة ليتركنها اهلوها".[١٠]

اما الازرقي، فيذكر رواية تتحدث عن علم النبي بالاسرار على لسان ابي سفيان يوم فتح مكة:

"... وقال الحارث بن هشام واثكلاه ليتني مت قبل ان اسمع بلالا ينهق فوق الكعبة، قال الحكم بن ابي العاصي هذا والله الحدث الجليل ان يصيح عبد بني جمح ينهق على بنية ابي طلحة، وقال سهيل بن عمرو ان كان هذا سخطا لله فسيغيره الله، وقال ابو سفيان بن حرب اما انا فلا اقول شيئا لو قلت شيئا لاخبرته هذه الحصاة، فأتى جبريل عم رسول الله صلعم فاخبره خبرهم فاقبل حتى وقف عليهم فقال اما انت يا فلان فقلت كذا واما انت فقلت كذا واما انت فقلت كذا فقال ابو سفيان انا يارسول الله فما قلت شيئا فضحك رسول الله صلعم ".[١١]

كما ينقل ابن عساكر روايات عدة موازية لرواية الازرقي التي سبقت:

أ- " رأى ابو سفيان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي في الناس، والناس يطؤون عقبه، فقال بينه وبين نفسه: لو عاودت هذا الرجل القتال، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ضرب بيده صدره، فقال: " اذا يخزيك الله " فقال: اتوب الىالله، واستغفر الله ما تفوهت به ".[١٢]

ب- " ان ابا سفيان بن حرب بعد فتح مكة كان جالسا فقال في نفسه: لوجمعت لمحمد جمعا قال: انه ليحدث نفسه بذلك اذ ضرب النبي صلى الله عليه وسلم بين كتفيه، وقال: " اذا خزاك الله " قال فرفع رأسه، فاذا النبي صلى الله عليه وسلم قائم على رأسه، فقال: ما ايقنت انك نبي حتى الساعة، ان كنت لاحدث نفسي بذلك ".[١٣]

ج- " لما رأى ابو سفيان الناس يطؤون عقبى رسول الله صلى الله عليه وسلم جسده، فقال بينه بين نفسه: لو عاودت هذاالرجل، فجاء رسول الله صلىالله عليه وسلم حتى ضرب بيده في صدره ثم قال :" اذا يخزيك الله، اذا يخزيك الله " فقال: اتوب الى الله واستغفره، والله ماتفوهت به، ما هو الا شيئ حدثت به نفسي ".[١٤]

د- " خرج النبي صلىالله عليه وسلم ملتحفا بثوب من بعض بيوت نسائه، وابو سفيان جالس في المسجد، فقال ابو سفيان: ما ادري بما يغلبنا محمد، فاتى النبي صلى الله عليه وسلم حتى ضرب في ظهره وقال:" بالله نغلبك "، فقال ابو سفيان اشهد انك رسول الله صلى الله عليه وسلم ".[١٥]

هـ- " لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ابا سفيان بن حرب في الطواف، فقال يا ابا سفيان كان بينك وبين هند كذا وكذا، فقال ابو سفيان : افشت علي هند سري،

لافعلن بها، ولافعلن ، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من طوافه لحق ابا سفيان

فقال:" يا ابا سفيان لا تكلم هندا، فانها لم تفش من سرك شيئا "، فقال ابو سفيان: اشهد انك رسول الله، هذه هند ظننتها ان تكون افشت سري من اياك بما في نفسي ".[١٦]

٣ – ابو سفيان في روايات ضعيفة متأخرة

فضلا عما سبق ابن عساكر حديثين يرميان الى ان ابا سفيان معه في الجنة:

أ– " ... عن علي قال: قال رسول الله صلىاله عليه وسلم: " لا يدخل النار من تزوج اليَ او تزوجت اليه "[١٧]

ب– " قال النبي صلىالله عليه وسلم:

ان احب اصهاري الي واعظمهم عندي منزلة واقربهم من الله وسيلة، وانجح اهل الجنة من ابي بكر والثاني عمر يعطيه قصرا من لؤلؤة الف فرسخ في الف فرسخ: قصورها ودورها و .... و جهاتها سررها واكوابها وطيرها من اللؤلؤة الواحدة، وله الرضا بعد الرضا، والثالث عثمان بن عفان وله في الجنة ما لا اقدر على وصفه، يعطيه الله تعالى ثواب عبادة الملائكة اولهم واخرهم، الرابع علي بن ابي طالب بخ بخ من مثل علي وزيري ... وانيسي عند كربتي ... في امتي، وهو مني على دعائي، ومن مثل ابي سفيان لم يزل الدين به مؤيدا قبل ان يسلم وبعدما اسلم، ومن مثل ابي سفيان، اذا اقبلت من عند ذي العرش اريد الحساب ... فاذا انا بأبي سفيان معه كاس من ياقوتة حمراء يقول: اشرب يا خليلي .. بأبي سفيان وله الرضا بعد الرضا رحمه الله".[١٨]

ويعلق ابن عساكر على هذا الحديث الاخير بقوله "هذا حديث منكر".[١٩]

بالإضافة الى ما سبق هناك شذرات كثيرة في روايات متعددة تستعمل ابا سفيان لصياغة انماط مختلفة لا مجال لسردها لانها تفتقر الى الترابط الادنى. وسأذكر بعض الروايات المعادية لابي سفيان المتعلقة بالخلافة لاهمية هذا الموضوع في التاريخ الاسلامي، خاصة ان بعض المؤرخين يدرجونها على لسان النبي، كما يفعل ابن أعثم الكوفي نقلا عن الحسين بن علي:

" سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: الخلافة محرمة على آل ابي سفيان وعلى الطلقاء ابناء الطلقاء، فاذا رايتم معاوية علىمنبري، فابقروا بطنه، فوالله لقد رآه اهل المدينة علىمنبر جدي، فلم يفعلوا ما امروا به فابتلاهم الله بابنه يزيد، زاده الله في النار عذابا ".(٢٠)

كذلك يذكر البلاذري حديثا موازيا للذي سبق:

"... عن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اذا رأيتم معاوية بن ابي سفيان يخطب على المنبر فاضربوا عنقه ".(٢١)

ويبدو ان لعن الامويين وشتمهم الذي استمر خلال العصور الاسلامية اخذ يتطور مع تطور التراث الاسلامي وعلومه المختلفة. فبعد وضع الاحاديث التي تلعن الامويين اخذ الرواة يقحمون الآيات القرآنية في ذلك. وهذا ما نلاحظه في رواية للطبري تتحدث عن جدل سياسي- عقائدي ايام الخليفة العباسي المعتضد بالله:

" وكان ممن عانده ونابذه وكذبه وحاربه من عشيرته العدد الاكثر والسواد الاعظم يتلقونه بالتكذيب والتثريب، ويقصدونه بالأذية والتخويف، ويبادونه بالعداوة، وينصبون له المحاربة، ويصدون عنه من قصده، وينالون بالتعذيب من اتبعه. واشدهم في ذلك عداوة واعظمهم له مخالفة واولهم في كل حرب ومناصبة لا يرفع على الاسلام راية الا كان صاحبها وقائدها ورئيسها في كل مواطن الحرب، من بدر وأُحُد والخندق والفتح ابوسفيان بن حرب واشياعه من بني امية الملعونين في كتاب الله ثم الملعونين علىلسان رسول الله، في عدة مواطن وعدة مواضع لماضى علم الله فيهم وفي امرهم ونفاقهم وكفر احلامهم، فحارب مجاهدا ودافع مكابدا واقام منابذا حتى قهره السيف وعلا امر الله وهم كارهون فتقول بالاسلام غير منطو عليه واسر الكفر غير مقلع عنه فعرفه بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون وميز له المؤلفة قلوبهم فقبله وولده على علم منه فما لعنهم الله به على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم وانزل به كتابا قوله {والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم الا طغيانا كبيرا}. ولا اختلاف بين احد انه اراد بها بني امية. ومنه قول الرسول عليه السلام وقد رآه مقبلا على حمار ومعاوية يقود به و يزيد ابنه يسوق به:" لعن الله القائد والراكب والسائق." ومنه ما يرويه الرواة من قوله: يا بني عبد مناف تلقفوها تلقف الكرة فما هناك جنة ولا

نار وهذا كفر صراح يلحقه به اللعنة من الله كما لحقت الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم {ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون} منه ما يروون من وقوفه على ثنية أُحُد بعد ذهاب بصره وقوله لقائده ههنا ذببنا محمدا واصحابه ".[٢٢]

ولست بحاجةالىالقول بان هذه الروايات لا يمكن ان تؤخذ على محمل الجد، وهي تناقض سلوك محمد وسياسته تجاه اصحابه وحلفائه، وهناك احاديث كثيرة في كتب الحديث تنكر اللعن و تشجبه ، نأخذ منها حديثا واحدا مثالا علىذلك ورد في صحيح مسلم:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اني لم ابعث لعانا وإنما بُعثت رحمة ".[٢٣]

فلا شك ان كل هذا اللعن والسباب وضع للاسباب السياسية التي ذكرتها. واود ان اذكر قولا معبرا للامام ابن الحنفية في هذا السياق قال:

" نحن أهل بيتين من قريش نُتخذ من دون الله اندادا، نحن وبنو امية ".[٢٤]

خاتمة

١ - ملاحظات على المصادر الأولية:

ألمس من خلال الاخبار المتعلقة بابي سفيان و التي استقيتها من المصادر الاولية في هذا البحث ان نسبة الروايات الضعيفة و المتحيزة التي تنال من ابي سفيان في مختلف مراحل حياته كانت تزيد على مر العصور. فاذا تناولت ابن اسحق كمثال على مؤرخي عصره المبكرين اجد ان الاخبار السلبية عن موضوع هذا البحث قليلة اذا ما قورنت نسبتها بتلك في المصادر المتأخرة. وهي عادة تكون مقتضبة و بسيطة في حبكتها، و اكثرها يصب في نمط دلائل النبوة واثبات صفة النبي كالرواية التي تقص خبر استراق ابي سفيان للسمع ليلا عند قراءة النبي محمد للقرآن.

فضلا عن ذلك ، يبرز الواقدي في هذه الفترة المبكرة كمؤرخ معاد لابي سفيان. اذ تتميز رواياته بتحقير ابي سفيان، كما تكثر في اخباره الانماط التي تعالج الردة والنفاق والجبن، واجده في بعض الاحيان ينساق وراء هذه الانماط دون حسبان لنتائج الاحداث التي قد تكون مخالفة للمعطيات التي يرويها. مثال على ذلك روايته التي تقص خبر ردة أبو سفيان في حنين، على الرغم من ان المعركة انتهت بمكافأة النبي له وتأميره على القوة العسكرية التي حاصرت الطائف بعدها.

من ناحية ثانية، الاحظ في فترات لاحقة - قد يكون البلاذري والطبري ابرز الممثلين لها - الجمع بين الغث و السمين من الاخبار المتعلقة بأبي سفيان. اذ ينقل البلاذري روايات متناقضة و يذكرها دون تعليق. اما الطبري فتتميز اخباره بالاطناب وتتضمن افكارا ظهرت في عصور اسلامية متأخرة، كروايته التي تقص لقاء ابي سفيان بهرقل في الشام وتذكر رسائل بعثها النبي الى الملوك يدعوهم الى الاسلام.

اما المؤرخين المتاخرين الذين عاشوا في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) فتحفل مؤلفاتهم بالاخبار الضعيفة وتزداد فيها الانماط بشكل ملحوظ، واصدق مثال على هؤلاء ابن عساكر؛ اذ يظهر في مؤلفه (تاريخ دمشق) انماط تشهد على

تطور الفكر الاسلامي في ذلك العصر على ما اعتقد، كمقابلة ابي سفيان براس الامة الخليفة عمر بن الخطاب على غرار مقابلته بالنبي سابقا. هذا بالاضافة الى انماط عديدة لدلائل النبوة تجعل ابا سفيان يثبت نبوة محمد على لسان الحيوان(راجع الفصل السادس) كما ضمن مؤلفه اخبارا تصف امورا اخرى يقحم فيها ابا سفيان ويبدو فيها التزوير المتأخر واضحا.

وتجدر الاشارة الى ان الكثير من الروايات المعادية لأبي سفيان والتي نقلها هؤلاء المؤرخون الذين ذكرت جاء بها رواة مبكرون عرفوا بعدائهم للأمويين، اذكر منهم الزهري الذي وصلت اخباره عبر مؤلفات غيره من المؤرخين، وهو اول من صنف ابا سقيان مع المؤلفة قلوبهم كما يعتقد مونتغمري واط (راجع الفصل الخامس).

٢ – صورة ابي سفيان في المصادر الاولية

لذلك استنتج مما سبق ان هذه المصادر نقلت الينا صور ابي سفيان مشوهة الى حد كبير. واذا اردت مراجعة اسباب هذا التشويه والتحيز ضده من قبل المؤرخين اجد ان اول سبب لذلك كونه والد معاوية الخليفة الاموي الاول وخصم علي بن ابي طالب. وقد دفع هذا الامر المؤرخين برأيي الى امرين: اولا، تصويره بالرجل الداهية الماكر ليتطابق مع ولده معاوية. ثانيا، اضفاء مختلف الصفات الذميمة على شخصه، سواء بالمقاييس الاسلامية او العربية، مثل "كهف المنافقين" و"الخمار" و"المرتد" و"الجبان" و"البخيل" و"الزاني".

وعندما تتطور الفكر الاسلامي على مر العصور و تبلورت فكرة الامة، دأب بعض هؤلاء المؤرخين على تصويره برأس الكفر وزعيم امة الشرك ليقابلوا به شخص النبي محمد ومن بعده شخص الخليفة عمر الذي كان يعتبر الملهم بعد النبي وميزان المنافقين. وقد انبثق من هذه المقابلة انماط جديدة في دلائل النبوة التي تثبت صفة النبي وتشهد ابا سفيان على صدقه وامانته.

٣ – منزلة ابي سفيان في مكة

يمكنني ان اخلص الى القول ان ابا سفيان كان تاجرا من اشراف مكة عندما ظهر الاسلام، وكان معظم تجارته من المنتوجات المحلية في الحجاز من جلود وزبيب. وتبدو الصورة التي رسمها بعض المؤرخين التقليديين عن هذه التجارة مليئة بالمبالغات.

واعتقد انه كان هناك تجار اخرون يوازون ابا سفيان في الاهمية او يفوقونه، مثال على ذلك صفوان بن امية الذي كان عظم قافلته من الفضة.

اما موقع ابي سفيان السياسي في مكة فقد كان يتحسن او ينحسر وفقا لانجازاته المرحلية. ويبدو ان هناك ثلاث عوامل ادت الى بروزه في بداية الصراع مع النبي: اولا، زواجه من هند بنت عتبة زعيم بني عبد شمس وقتئذ. ثانيا، انقاذه لقافلة قريش يوم بدر ووقفه لاموالها من اجل محاربة النبي. ثالثا، هلاك معظم قادة قريش الذين كانوا في الصف الاول يوم بدر، خاصة عمه وحموه عتبة وخوه شيبة، مما جعله يتزعم بني عبد شمس في هذه المرحلة.

لكن من الواضح ان ابا سفيان لم يستطع بسط زعامته على سائر العشائر بعد بروز زعماء كصفوان بن امية و سهيل بن عمرو. و يبدو ان النصر الجزئي يوم أُحُد لم يزد في زعامة ابي سفيان، خاصة ان السبب المباشر للنصر في ذلك اليوم كان تدخل فيلق الخيالة الذي كان تحت امرة صفوان. كما ان فشل الحملة العسكرية يوم الخندق التي جمعت فيها قريش بعض قبائل البدو وانتهت بحصار المدينة وانسحاب الأحلاف انعكست سلبا على زعامة ابي سفيان، واعتقد ان نفوذه ببدأ يضعف كثيرا في هذه المرحلة ليس فقط بسبب فشل الاعمال العسكرية، التي قامت بها قريش بل لأسباب تكمن في شخصية ابي سفيان الذي كان لينا في تصديه للنبي ولم يكن يستعمل العنف الا في موضعه ويحاول الوصول الى مبتغاه بأقل عدد ممكن من الخسائر البشرية والمادية. فيبدو في بعض الاحيان غير راغب في القتال. لذلك بدأ الثلاثي صفوان وعكرمة وسهيل يبرز في هذه المرحلة، لان تصرفات هؤلاء الثلاثة كانت تستهوي المتطرفين في قريش، مما ادى الى انحسار زعامته. لذلك عندما خرج النبي الى مكة معتمرا يوم الحديبية ثم بدأ بالتفاوض مع قريش كانت الكلمةالاولى للثلاثي (صفوان وسهيل وعكرمة)، فأخطاوا بقبول الصلح الذي كان ابو سفيان يرفضه على ما اعتقد، ليس لانه يريد القتال وسفك الدماء بل معاهدة صلح مع النبي كانت اخطر من محاربته بسبب التحالفات التي كان النبي قادرا علىاقامتها ليتعاظم نفوذه دون ان يتكبد الكثير من الخسائر البشرية.

٤ – مرحلة التحالف بين ابي سفيان والنبي

وفي هذه المرحلة تهتز صورة ابي سفيان التي حاول بعض المؤرخين المتحيزين طيلة الفترة السابقة اضفاءها عليه، الا وهي راس الكفر في مقابل النبي محمد. فقد تزوج النبي ابنته ام حبيبة واخذا يتبادلان الهدايا والمراسلات. واعتقد ان ابا سفيان راى في هذه الفترة ما بين صلح الحديبية وفتح مكة ان الكفة تميل لصالح النبي، فتحالف معه واخذ يحضر له الاوساط المكية ليسهل عملية الدخول اليها. لذلك كان يتردد على المدينة ومعسكر المسلمين قبل يوم الفتح. وكان يعاونه – ان لم اقل يماشيه بخطين متوازيين – بديل بن ورقاء وحكيم بن حزم. ولا انسى في هذا السياق نديمه العباس الذي يبدوانه كان له دور مماثل لما يسمونه بالمصطلحات الحديثة " ضابط ارتباط ".

اما في مرحلة فتح مكة وما بعدها، كحنين والطائف، فقد بدا جليا ان ابا سفيان كان قد اصبح مهما للنبي، فقد اعطاه النبي حصة كبيرة من الغنائم تثبت مكانته في صفوف المسلمين. لذلك لم يعد بعض المؤرخين المتحيزين قادرين على تصويره برأس الكفر فعمدوا الى تحقيره، تارة بقولهم انه كان من المؤلفة قلوبهم وتارة بقولهم انه كان يتمنى انهزام المسلمين. واعتقد ان ابا سفيان قد سبب للنبي ارباكا في هذه المرحلة. فقد كان الحليف القوي الذي لا يفوت فرصة للمشاركة في مشورة اوقتال، وعند توزيع الغنائم يحصل على ما لا يصل اليه الصحابة المجاهدون والمهاجرون. لذلك اعتقد ان النبي اسند اليه ولاية نجران ليبعده فيرضي بعض فقراء الصحابة ويكف السنتهم، خاصة الذين كانوا في مكة من المستضعفين او العبيد كعمار بن ياسر وبلال الحبشي وصهيب الرومي. كما اسند اليه في هذه المرحلة عدة مهمات عسكرية وادارية ومالية.

واستبعد ان يكون ابا سفيان قد تخلف عن مبايعة ابي بكر، والا لما ثبته الخليفة الاول على نجران. واعتقد ان مهمته في نجران كانت تنحصر بجباية الاموال التي كانت لا بد تتم بطريقة موسمية، لذلك لا استبعد ان يكون قد شارك في عدة ايام – كالردة واليرموك – بما يتناسب مع سنه ووضعه الجسدي بعد ان فقد عينا في حنين. اما بعد ان فقد عينه الاخرى – ان صحت الروايات الكثيرة – فأظن ان دوره اقتصر على المشورة والرأي. و يبدو ان عمر بن الخطاب كان يعطيه من الفيء كغيره من

اشراف قريش، واستبعد ان تكون العلاقة بينه وبين ابي سفيان سيئة للحد الذي تصوره بعض الروايات. ويبدو ان ابا سفيان في هذه الفترة قد توقف عن العمل في التجارة وانه بدأ يعتمد على نصيبه من الفيء وما كان ابنه معاوية يغدق عليه .

وعندما تولى عثمان الخلافة، لا بد ان ابا سفيان قد تحمس لهذا كثيرا، واسدى اليه بعض المشورة والنصح .لكنني استبعد ان يكون قد قام بدور فاعل في هذه الخلافة لكبر سنه وعماه. وهذا برايي هو سبب قلة الاخبار عنه في هذه الفترة التي لا بد انه تقاعد فيها حتى يوم وفاته.

٥ - خلاصة

لذلك يمكنني ان اخلص الى القول ان صورة ابي سفيان من خلال هذه الدراسة لم تعد تبدو كما صوره بعض المؤرخين المبكرين كرأس للكفر وكهف للمنافقين، وانه كان عدو النبي اللدود خلال مراحل الدعوة المحمدية، ثم بعد ذلك المنافق الذي يتحين الفرص للردة والعودة الى الجاهلية. بل يبدو رجلا عاديا من اشراف قريش، وعندما تقلد زمام المسؤولية في عشيرته لم يكن ذلك القائد الفذ الذي يمكن مقارنته او مقابلته بالنبي محمد. بل اذا اردت الحكم على الامور من نتائجها يمكنني القول انه لم ينجح في كل مراحل قيادته الا في انقاذ العير والنصر المبتور في يوم أُحُد. وما عدا ذلك فقد كان واحدا من زعماء قريش العاديين، ونفوذه لم يكن يفوق نفوذ أي واحد من زعماء العشائر في قريش كصفوان بن امية او سهيل بن عمرو. بل يمكن ان أذكر انه لم يعد له وزن سياسي كبير في قريش عشية صلح الحديبية، لذلك آثر الانتقال الى المعسكر الآخر حينئذ. و حتى هذه الخطوة لم يكن رائدا فيها، فقد قام بها ربما في نفس الوقت غيره من الاشراف كحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء والعباس بن عبد المطلب.

وأود ان اقول في نهاية هذا البحث ان عدم الوضوح في صورة ابي سفيان من خلال الروايات التاريخية التي عالجتها في هذا البحث يعود الى عدم ثقتي بها بعدما لمسته من تحيز كبير و مبالغات كثيرة، بالاضافة الى عدم وجود مقاييس محددة للحكم على هذه الروايات. لذلك ليس بامكاني الحكم عليها الا من خلال خبرتي الشخصية التي اكتسبتها خلال مراحل دراستي للتراث الاسلامي الواسع، الذي مهما غصت فيه يبقى كالمحيط الذي لا تسبر أغواره.

ملحق

زياد بن ابيه

لا شك ان قصص الجنس وفضائح العائلات المالكة تلقى رواجا في معظم المجتمعات. لذلك من الطبيعي ان تكون المبالغات والاضافات قد دخلت الى اية رواية تتصل بهذه المواضيع، وخاصة بوجود العداء المستأصل بين قوى وعشائر تتصارع على السلطة كالأمويين والعباسيين. وسأذكر فيما يلي بعض الروايات التي تلقي بعض الضوء- بطريقة مباشرة او غير مباشرة- على سلوك ابي سفيان وعائلته.

يذكر اليعقوبي رواية تقص ادعاء ابي سفيان لزياد وتذكر اسماء الحاضرين وقتئذ :

"... فوجه معاوية اليه [الىزياد] المغيرة بن شعبة، فأقدمه ثم ادعاه، والحقه بابي سفيان، وولاه البصرة ، واحضر زياد شهودا اربعة، فشهد احدهم ان علي بن ابي طالب اعلمه انهم كانوا جلوسا عند عمر بن الخطاب حين اتاه زياد برسالة ابي موسى الاشعري، فتكلم زياد بكلام اعجبه، فقال: أكنت قائلا للناس هذا على المنبر، قال: هم اهون علي منك يا اميرالمؤمنين فقال ابوسفيان والله لهو ابني وأنا وضعته في رحم امه. قلت: فما يمنعك من إدعائه ؟ قال: مخافة هذا العير الناهق." (١)

وتجدر الاشارة الى ان قصة زياد بن ابيه شائعة في جميع المصادر العربية تقريبا. وربما نستطيع عزو انتشار هذه الروايات خلال العصور العباسية الى الاساءة التي تسببها للأمويين عامة ووالد مؤسس الدولة الاموية خاصة، لما ورد في الحديثين التاليين عن النبي اللذين يندرجان في سياق قصة زياد بن ابيه في كثير من المصادر:

أ- " الولد للفراش وللعاهر الحجر ".(٢)

ب- " من ألحق بقوم نسبا ليس لهم فهو ملعون ".(٣)

من جهة ثانية، يبدو من الروايات التالية ان ادعاء معاوية زيادا لأبي سفيان ربما كان لغايات سياسية تبدو واضحة في مجتمع قبلي يقوم الولاء فيه على القربى وصلة الدم اولا. لذلك فان انتقال زياد من الحظيرة العلوية الى الطبقة الحاكمة الاموية وتكليفه بحكم قطاع كبير ومهم كالعراق بعد تنازل الحسن بن علي عن الخلافة، كان يسهله الحاقه بالعائلة المالكة، خاصة وان شبهة نسبه كانت تساعد على ذلك على عكس الفترة

الماضية التي قضاها في حكم فارس تحت راية علي بن ابي طالب وقت كان نسبه المشبوه يتناغم اجتماعيا مع رعاياه الذين كانوا يتألفون في سوادهم الاعظم من فلول جيوش الفتح العربي والموالي والخوارج الذين لا تجمع بينهم اي صلة دم ولا يلتقون الا على دين الاسلام الذي لا يفضل عربيا على اعجمي الا بالتقوى. وفي الرواية التالية يتحدث ابن اعثم الكوفي عن هذه المرحلة الانتقالية :

"... كان زياد بن ابيه بديا من اصحاب علي بن ابي طالب، وقد كان علي ولاه ارض فارس، فأخذ قلاعها وتمكن منها، وبلغ ذلك معاوية، فثقل عليه امر زياد، ومكانه من علي، فكتب اليه. اما بعد، فانك رجل سفيه غرتك مني قلاع في يدك تأوي اليها، وانما مأوى الطير الى اوكارها، وايم الله لولا انتظاري فيك امرا لست منه بآيس، لكنت انا وانت كما قال العبد الصالح سليمان بن داود: وارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها اذلة صاغرين ". ثم اثبت في اسفل كتابه شعرا:

لله در زياد ايما رجـــــل	وكان يعلم ما يأتي ومـــا يـــذر
انى يكون له راي يعاش به	وقد قضى خبر من بعـــــده خـبر
ينهى اباك عبيدا في سخافته	ان تخطب الناس والوالي بها عمر
فافخر بوالدك الأدنى ووالده	ان ابن حرب له في قومه خطـــر
وابعد ثقيفا فان الله ابعدهـا	وليس يجمعها الايراد والصـــدر

قال: فلما انتهى الكتاب الى زياد بن ابيه، قام في الناس خطيبا، فحمد الله واثنى عليه، ثم قال: ايها الناس، ان من اعجب العجب ان ابن آكلة الأكباد، وكهف النفاق، ورئيس الاحزاب، كتب الي يتهددني، وبيني وبينه ابن عم سول الله (ص) والمهاجرون والانصار واضعوا سيوفهم على عواتقهم لا يريدون الا الله تبارك وتعالى، اما والله لو كتب الى امير المؤمنين يأذن لي فيه لوجدني ابن آكلة الاكباد بحيث يسؤه.

قال: وبلغ عليا ما كتب به معاوية الى زياد، فكتب اليه علي رضي الله عنه: اما بعد فاني وليتك ما انت فيه، وانا اراك له اهلا، وانك لن تضبط ما انت فيه الا بالصبر فاستعن بالله، وتوكل عليه، وكن من خديعة معاوية على حذر، والسلام .

قال: وكان هذا في حياة علي، فلما كان بعد ذلك، وصار الامر الى معاوية وبايعه الحسن، واستوى له الامر، كان احب ان يدعي زيادا لما قد علم بما عنده من

الحزم والعزم، وجعل يكاتبه. فلما ادعاه اتصل ذلك بالحارث بن الحكم، وهو اخو مروان بن الحكم، فقال: والله ما ادعى معاوية زيادا الا ليتكثر به على بني العاص بن أمية، لانه انما خاف من شغب مروان في الخلافة، واما انا فانه يخاف مني .

قال: وبلغ ذلك معاوية، فكتب الى مروان بن الحكم، وهو عامله في المدينة: اما بعد بلغني قول اخيك الحارث بن الحكم، اني خفت من شغبك علي في الخلافة، وايم الله لقد وددت انك احق بهذا الامر مني فسلمته اليك، وايم الله ليكفن الحارث بن الحكم عن بعض كلامه او ليأتينه مني شيئ لا قبل له به، والسلام، ثم كتب في اسفل كتابه شعرا:

ان مروان ابت لي رحمـــة   قطعه الدهر و في المرء زلل
يأكل الخبز وفيه نخـــوة   واعتراض عن هواي و مــلل
منع المرء اخاه حارثـــا   بالتي يسحب اذيال الخطـــل
غره حلمي و حلمي شيمة   فارتقى فيما يســوى و نــزل
ابلغ الحارث عني مالكـا   كل شيئ ما خلا صخرا اجل
فاطلب اليوم جفاي جاهدا   و ارحل الناقة حلة كالعســل
ان من سب زيادا مـــرة   شرب الدهر عليه واكـــل
عرضه عرضي و شيخه شيخي   و لهذا الدهر في النــاس دول

قال: فكانت هذه قصة زياد مع معاوية لما ادعاه اخا، فلما كان من امر البصرة ما كان، دعاه معاوية فولاه اياه، وامره بالعدل والانصاف، وحذره الشكوى، فقال زياد: " افعل ذلك يا امير المؤمنين ".[٤]

وتجدر الاشارة في هذا السياق الى ان معاوية عاد فانكر زيادا في ساعة غضب – في احد مجالسه– عندما ادرك خطره على تولي ابنه يزيد العرش من بعده، يقول اليعقوبي:

" وكتب معاوية الى زياد، وهو بالبصرة، ان المغيرة قد دعا اهل الكوفة الى البيعة ليزيد بولاية العهد بعدي، وليس المغيرة باحق بابن اخيك منك، فاذا وصل اليك كتابي فادع الناس قبلك الىمثل ما دعاهم اليه المغيرة، وخذ البيعة ليزيد. فلما بلغ زيادا وقرأ الكتاب دعا برجل من اصحابه يثق بفضله وفهمه، فقال: اني اريد ان آتمنك على ما أئتمن عليه بطون الصحائف، ايت معاوية فقل له: يا امير المؤمنين ان كتابك ورد

علي بكذا، فما يقول الناس اذا دعوا هم الى بيعة يزيد، وهو يلعب بالكلاب والقرود، ويلبس المصبغ، ويدمن الشراب، ويمشي على الدفوف، وبحضرتهم الحسين بن علي، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، ولكن تأمره، ويتخلق باخلاق هؤلاء حولا وحولين، فعسينا ان نموه على الناس. فلما صار الرسول الى معاوية وادى اليه الرسالة قال: ويلي على ابن عبيد ! لقد بلغني ان الحادي حدا له ان الأمير بعدي زياد، والله لأردنه الى امه سمية، والى ابيه عبيد ".(٥)

بالإضافة الى ما سبق فقد ذكر البلاذري رواية تنكر نسبة زياد لأبي سفيان على لسان ابي بكرة (وهو نفيع بن مسروح، اخو زياد من امه):(٦)

" قالوا: واراد زياد الحج، فاتاه ابو بكرة - وهو لا يكلمه منذ ترك زياد الشهادة على المغيرة بن شعبة وعرضه لأن حُد - فدخل عليه، واخذ ابنه فاجلسه في حجره ليخاطبه ويسمع اباه زيادا فقال: ان اباك هذا احمق قد فجر في الاسلام ثلاث فجرات: اولاهن كتمانه الشهادة على المغيرة، والله يعلم انه قد رأى ما رأينا، والثانية في انتفائه عبيد وادعائه الى ابي سفيان، واقسم ان ابا سفيان لم يرسمية قط، والثالثة انه يريد الحج وام حبيبة زوج رسول الله (ص) هناك، ان اذنت الأخت لأخيها فاعظم بها مصيبة وخيانة لرسول الله (ص)، وان هي حجبته فاعظم بها عليه حجة، فقال زياد: ما تدع النصح لاخيك على حال، وترك الحج في تلك السنة، وماتت ام حبيبة في سنة اربع واربعين ".(٧)

والجدير بالذكر ان زياد بن ابيه ولد له خمسة عشر صبيا وعشرون بنتا كان يسميهم جميعا باسماء سفيانية كابي سفيان ومعاوية ويزيد وحرب وعنبسة وام معاوية وعتبة وام حبيبة ... الخ. بما يوحي بانه كان يعتبر نفسه واحدا من آل ابي سفيان ويتصرف على اساس ذلك. وهذا ما دفع معاوية الى الشك في انه يطمع في الخلافة من بعده عندما لم يوافق بالحال على المناداة لمبايعة يزيد خليفة كما ذكرت سابقا .

شعر ابي سفيان

سأذكر في هذا الملحق بعض ما نسب الى ابي سفيان من الشعر دون تعليق.

قال ابو سفيان في غزوة السويق يمدح سلام بن شكم الذي استضافه في مغامرته الليلية:

سقاني فرواني كميتا مدامـــة ... على ظمأ مني سلام بن مشكم

تخيرته اهل المدينة واحـــــدا ... سواهم فلم اغبن ولـم اتنـــــدم

فلما تقضى الليل قلت ولم اكن ... لأفرحه ابشر بعرف ومغنـــم

وان ابا غنــــم يجود وداره ... بيثرب ماوى كل ابيض خضرم [٩]

كما ينشد شعرا في ذكر يوم احد ونجاته من حنظلة بن ابي عامر الغسيل:

ولو شئت نجتني كميت طمـــرة ... ولم احمل النعماء لابن شعــوب

فما زال مهري مزجر الكلب منهم ... لدن غدوة حتى دنت لـــغروب

اقاتلهم، وادعي يـــــال غالب ... وادفعهم عني بــــركن صليـب

فبكي، ولا ترعي مقالة عـــاذل ... ولا تسأمي من عبرة ونحيــــب

اباك واخوانا له قـــد تتابعـــوا ... وحـق لهم من عبرة بنصيـــــب

وسلى الذي قدكان في النفس انني ... قتلت من النجار كل نجيـــــــب

ومن هاشم قرما نجيبا، ومصعبا ... وكان لدى الهيجاء غير هيـــوب

ولو انني لم اشف منهم قرونتي ... لكانت شجى في القلب ذات ندوب

فآبوا وقد اودى الجلابيب منهم ... بهم خدب من معبط وكبيــــــب

اصابهم من لم يكن لدمائهـــم ... كفاء، ولا في خطة بـضريب[١٠]

وقد اجاب حسان بن ثابت ابا سفيان في الابيات التالية، اذكرها لعلها تقوي نسبة بعض ما اذكر من هذا الشعر لأبي سفيان:

الا ابلغ ابا سفيان عنـــــي ... فانت مجوف نخب هـــواء

بان سيوفنا تركتك عبــــدا ... وعبد الدار سادتها الامـــاء

هجوت محمدا، فاجبت عنـه ... وعند الله في ذاك الجـــزاء

اتهجوه، ولست له بكــــفء ... فشركما لخيركما الفـــــداء

هجوت مباركا، براء، حنيفا　　　امين الله، شيمته الوفـــــاء

فمن يهجورسول الله منكم　　　ويمدحه، وينصره ســــواء

فان ابي ووالده وعرضــــي　　　لعرض محمد منكم وقـــاء (١١)

وعند تولي ابي بكر الخلافة ينسب اليه الشعر التالي :

واضحت قريش بعد عز ومنعة　　　خضوعا لتيم لا بضرب القواضب

فيا لهف نفسي للذي ظفرت به　　　وما زال منها فائزا بالرغائــــب (١٢)

بني هاشم لا تطمعوا الناس فيكم　　　ولا سيما تيم بن مرة اوعــــدي

فما الامر الا فيكم واليكـــــم،　　　وليس لها الا ابو حسن علــــي

أبا حسن، فاشـــدد بها كف حازم　　　فانك بالأمر الذي يرتجى ملـــي

وان امرأ يرمي قصــــي وراءه　　　عزيز الحمى؛ والناس من غالب قصي(١٣)

كما يذكر المسعودي شعرا لأبي سفيان :

اما والله لولا خوف شخص　　　يراني يا علي من الاعادي

لبين امره صخر بن حرب　　　ولم يكن المجمجم عن زياد

ولكني اخاف صروف كف　　　لها نقم ونفيي عن بــلادي

فقد طالت محاولتي ثقيفـــا　　　وتركي فيهم ثمــــر الفؤاد (١٤)

الهوامش

الفصل الاول

١. Hugh Kennedy, The Prophet and the Age of the Caliphates.................... (london, Longman, 1986) pp.351-352

٢. بعد الاطلاع على المجلة الاثرية السعودية أطلال نجد ان هذا الكلام يبدو دقيقا الى حد بعيد. (أطلال حولية الآثار العربية السعودية. الادارة العامة للآثار والمتاحف في المملكة العربية السعودية، ١٩٧٤-١٩٩٠).

٣. Kennedy, Prophet, pp. 351 - 352 ....

٤. Kennedy, Prophet, p. 352 ....

٥. A.A. Duri, The Rise of Historical Writing Among the Arabs(Princeton, ... Princeton University Press, 1983) p. 23

٦. للمزيد عن هذا الموضوع انظر كتاب ابي بكراحمد بن علي ثابت الخطيب البغدادي، تقييد العلم ، تحقيق يوسف العش (دار احياء السنة النبوية، ١٩٧٤).

٧. Suleman Essop Dangor, " Abu Sufyan: Study of Sources" Al'Ilm: .... Journal of theCentre of Research : in Islamic Studies (Vol., 9, Jan 89,55.)

٨. Duri, Historical Writing, p. 23 ....

٩. للمزيد عن العلاقة بين علم التاريخ و الحديث انظر:
Tarif Khalidi, Arabic Historical Thought in the Clasical Period .... (Cambridge, 1994) pp.17-58

١٠. Nabia Abbot, Studies in Arabic Literary Papyri (9 Chicago, Chicago .... University Press, 1942) pp. 7-9

١١. Abbot, Papyri, p.10 ....

١٢. للمزيد عن عروة والزهري انظر كتاب عبد العزيز الدوري بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب،(بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٨٢).

١٣. Kennedy , Prophet, p. 353 ....

١٤. Kennedy , Prophet, p. 354 ....

١٥. Kennedy , Prophet, pp. 355 - 357 ....

١٦. Kennedy , Prophet, p. 357 ....

.١٧ القرآن ٨: ٤٢

.١٨ John Wansbrough, The Sectarian Milieu, Content and Composition of ... Islamic Salvation History (Oxford, 1978)

.١٩ Patricia Crone, Hagarism, the Making of the Muslim World (London .... Cambridge University Press, 1977)

.٢٠ Patricia Crone, Slaves on Horses: The Evolution of the Islamic Polity..... (London,Cambridge University, Press, 1980), pp. 4 -11

.٢١ Crone, Slaves, p. 12 ...

.٢٢ Crone, Slaves, pp. 12 - 13 ...

.٢٣ Crone, Slaves, p. 13 - 15 ...

.٢٤ Kenndy, Prophet, pp. 357-360 ...

.٢٥ Albrecht Noth, The Early Arabic Historical Tradition, a Source Critical .... Study, trans. M. Donner (Princeton, Darwin Press, 1993)

.٢٦ Noth, Historical Tradition, pp. 1 - 17 ...

.٢٧ Noth, Historical Tradition, p. 109 ...

.٢٨ Noth, Historical Tradition, pp. 110 - 114 ...

.٢٩ Hilde Gauthier - Pilters, The Camel, its Evolution, Ecology, Behavior, ... and Relationship tp Man (Chicago, Chicago University Press 1981) p. 23

.٣٠ Noth, Historical Tradition, p. 207 ...

.٣١ Joseph Schacht, The Origins of Muhammadan Jurisprudence .... (Oxford,1950) p. 283

.٣٢ Noth, Historical Tradition, p. 161 ...

.٣٣ Noth, Historical Tradition, p. 143 ...

.٣٤ Crone, Slaves, p. 13 ...

.٣٥ James Tully, Meaning and Context, Quentin Skinner and his Critics...... (Cambridge U.K. Polity Press, 1988) pp. 32-33

.٣٦ Tully, Meaning, p. 65 ...

.٣٧ Tully, Meaning, pp. 77-78 ...

.٣٨ Erich Auerbach, Mimesis: The Representation of Reality in Western ...... Literature, trans. Willard R. Trask (New York Bouble day Anchor books,1957) pp. 11-12

.٣٩ Auerbach, Mimesis, pp. 12-14 ...

.٤٠ Auerbach, Mimesis, pp. 15 -16 ...

٤١. Auerbach, Mimesis, pp. 18 -19

الفصل الثاني

١. ابو محمد عبد الملك ابن هشام، السيرة النبوية (بيروت، دار الفكر، ١٩٩٢) ١: ص ١٢٠

٢. القران ١٠٢

٣. Patricia Crone, Meccan Trade and the Rise of Islam (Oxford,1987) p.162

٤. W. Montogomery Watt, Mohammad at Mecca (Oxford,1953) p. 8

٥. ابو المنذر هشام بن محمد السائب بن الكلبي، كتاب الاصنام تحقيق احمد زكي (القاهرة، المكتبة العربية، ١٩٢٤) ص ٣٠

٦. M. J. Kister, Society & Religion From Jahiliya to Islam (London, Variorum,1990) p. 51

٧. Watt, Mecca, p. 3

٨. Crone, Meccan Trade, p. 139

٩. ابن هشام، السيرة ١: ص ١٢٣-١٣٢

١٠. ابو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك (القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٤١) ٢: ص ٥٠٢ - ٥٠٣

١١. المنافرة هي استعراض الحسب والنسب للفريقين. وعادة يحكم الخصمان في ذلك كاهنا او كبيرا في السن و يدفع الخاسر غرامة (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم إبن منظور، لسان العرب [بيروت، دار صادر، د. ت.]). ٥: ص ٢٢٦

١٢. ابو العباس احمد بن علي المقريزي، النزاع و التخاصم فيما بين بني امية و بني هاشم (القاهرة، مكتبة الاهرام، ١٩٣٧) ص ١٨-٢٢

١٣. ابن هشام، السيرة، ١: ص ١٣٤

١٤. ابو الحسن عز الدين علي بن محمد بن الاثير، الكامل في التاريخ (بيروت، دار صادر، ١٩٦٥) ٢: ص ٨

١٥. ابن هشام، السيرة، ١: ص١٣٤

١٦. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (بيروت دار العلم للملايين، ١٩٧٦) ٤: ص ٨٢

١٧. ابن هشام، السيرة، ١: ص ١٣٤

١٨. Ignaz Goldzieher, Islamic Studies (London, George Allen and Unwind .. LTD., 1967) p. 120

١٩. Watt, Mecca, p. 3 ....

٢٠. Henri Lammens, La Mecque a la Veille de l'Hegire (Beirut, Impremerie, Catholique, 1924) pp. 272-273

٢١. علي، المفصل، ٤: ص ١١٥

٢٢. Henri Lammens, Les Ahabis (Paris, Impremerie, Nationale, 1926) .... p. 46

٢٣. Henri Lammens, Les Competitions Puissances an Arabie a la Veille ...... de L'Hegire (Le Caire, Impremerie, de L'Institut Francais D'Archeologie Orientale, 1916) p. 30

٢٤. Henri Lammens, L'Ancienne Frontiere entre La Syrie et La Hidjaz, ... (Extrait du Bulletin de L'Institut Francais D'Archeologie Orientale) TXIV p. 31

٢٥. Watt, Mecca, pp.3 - 4 ....

٢٦. Lammens, L'Ancienne Frontiere, pp.30-32 ....

٢٧. Crone, Meccan Trade, p. 22 ....

٢٨. Crone, Meccan Trade, pp. 5-11 ....

٢٩. فكتور سحاب، ايلاف قريش رحلة الشتاء و الصيف (بيروت، كمبيونشر والمركز الثقافي العربي) ص ٤٢١-٤٣٢

٣٠. سحاب، ايلاف، ص ٤٢١ – ٤٣٢

٣١. سحاب، ايلاف، ص ٤٢١ – ٤٣٢

٣٢. سحاب، ايلاف، ص ٤٢١ – ٤٣٢

٣٣. أطلال، ١٩٨٣، ٧: ص ٥٩

٣٤. ابو جعفر محمد بن حبيب البغدادي، المحبر تحقيق ايلزه ليغتين شتيتر (حيدر آباد، دائرة المعرف، ١٩٤٢) ص ٣١٥

٣٥. أطلال، ١٩٧٨، ٢ : ص ٥٩ – ٧٣

٣٦. احمد بن ابي يعقوب اليعقوبي، تاريخ اليعققوبي (بيروت، دار صادر،١٩٦٠) ص ٦٢-٦٣

٣٧. ابن هشام، السيرة، ٢ : ص ٩٦٨

٣٨. Robert Simon, Meccan Trade (Budapest, Akadimia, 1989) ....

٣٩. القرآن ٢٢ : ٢٨

٤٠. Simon, Meccan Trade, pp. 61 - 62 ....

٤١. M. J. Kister, Studies in Jahilyya and Early Islam (London, Variorum ...... Reprints, 1980) pp. 66-67

٤٢. Irfan Shahid, " Two Quranic Suras: al-Fil and Qurays" ,Byzantium and ... the Semitic Orient before the Rise of Islam (london, Variorum Reprints,1988) XII pp. 431 - 435

٤٣. Simon, Meccan Trade, p. 30 ....

٤٤. Simon, Meccan Trade, p. 29 ....

٤٥. Simon, Meccan Trade, pp. 22 - 25 ....

٤٦. Simon, Meccan Trade, p. 69 ....

٤٧. Watt, Mecca, p. 31 ....

٤٨. Simon, Meccan Trade, p. 64 ....

٤٩. Simon, Meccan Trade, p. 67 ....

الفصل الثالث

١. يقول الواقدي ان حنظلة بن ابي سفيان قتله علي بن ابي طالب يوم بدر (ابو عبد الله محمد بن عمر الواقدي، كتاب المغازي، تحقيق مارسدن جونز [لندن، مطبعة اوكسفورد،١٩٦٦] ١: ص ١٤٧، ٢٠٠، ٢٩٧)

٢. احمد بن يحيى بن جابر البلاذري، انساب الاشراف، تحقيق إحسان عباس (بيروت، المطبعة الكاثوليكية ١٩٧٩) ١: ص ٤-٥

٣. ابو الحسن علي بن محمد عز الدين ابن الاثير، اسد الغابة في معرفة الصحابة (القاهرة، المطبعة الوهابية ١٢٨٠ هـ) ص ٢١٦

٤. شهاب الدين ابو الفضل احمد بن علي بن حجر العسقلاني، كتاب الاصابة في تمييز الصحابة (كلكتا، ١٩٠٧) ٣ : ص ٣١٢

٥. ابن منظور، لسان ١: ص ٤٢٧

٦. وهي عمة عثمان بن عفان (ابو عبد الله محمد بن سعد، الطبقات الكبير في النساء [ليدن، ١٢٣١هـ] ٣: ص ٦٨).

٧. يذكر ابن حبيب زوجة لأبي سفيان اسمها امينة لم يذكرها اي مصدر آخر. ولعله اختلط عليه الامر بين اميمة وامينة (ابن حبيب، المحبر، ص ٤١٧)

٨. هكذا في (البلاذري، أنساب، ١: ٥) ويستدل بها الزبيري لبابة بنت ابي العاص بن امية، و هي جدة ليلى بنت ابي مرة بنت ميمونة بنت ابي سفيان زوجة الحسين بن علي ابن ابي طالب (ابو عبد الله المصعب بن عبد الله الزبيري، نسب قريش، تحقيق ليفي بروفنسال [القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٣] ص ١٢٦)

٩. ابن سعد، الطبقات الكبير، ٧: ص ٤٠٦

١٠. ابن هشام، السيرة، ١ : ص ٤٥٥

١١. البلاذري، انساب، ١ : ص ٨٩

١٢. ابو عبد الله محمد ابن سعد، الطبقات الكبرى (بيروت، دار صادر، د. ت.) ٨: ص ٩

١٣. البلاذري، انساب، ١: ص ٦٠١

١٤. البلاذري، انساب، ١: ص ٧

١٥. ابو جعفر محمد ابن حبيب البغدادي، كتاب المنمق في اخبار قريش، تحقيق خورشيد احمد فاروق (حيدر آباد، دائرة المعارف العثمانية، ١٩٦٤) ص ١١٠

١٦. البلاذري، انساب، ١: ص ١٥٠

١٧. عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير، مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد علي الصابوني(بيروت، دار القرآن الكريم، ١٩٨٠) ١: ص ٣٢٥

١٨. محمد يوسف الكاندهلوي، حياة الصحابة (دمشق، دار القلم، ١٩٨٥)
١: ص ١٦٦

١٩. الطبري ، تاريخ، ٧: ص ٢٧٦٧

٢٠. ابو محمد احمد بن اعثم الكوفي، الفتوح، تحقيق سهيل زكار (بيروت، دار الفكر، ١٩٩٢) ٢ : ص ١٩

٢١. ١٨ البلاذري ، انساب، ١ : ص ١٩٢

٢٢. Noth, Historical Tradition, p. 40

٢٣. الطبري ، تاريخ، ٣ : ص ١٢٢٩-١٢٣٠

٢٤. ابن هشام ، السيرة، ١ : ص ٤٥٥

٢٥. البلاذري ، انساب، ١ : ص ١٠

٢٦. البلاذري، انساب، ١ : ص ٦٦٦

٢٧. الطبري، تاريخ، ٣: ص ١٥٣٩

٢٨. صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي، نكت الهيمان في نكت العميان (القاهرة، مطبعة الجمالية، ١٩١١) : ص ١٧٤

٢٩. ابن عساكر ابو القاسم علي بن الحسين، تاريخ مدينة دمشق (بيروت، دار الفكر، ١٩٩٥) ٢٣: ص ٤٣٧

٣٠. الكاندهلوي، حياة، ١ : ص ٣٢٩

٣١. ابن منظور، لسان، ٨ : ص ١٠٧

٣٢. ابن منظور، لسان، ٢ : ص ٣٤٣

٣٣. ابن منظور، لسان، ١٢: ص ٦٢٤

٣٤. ابن منظور، لسان، ٢ : ص ٢٠٩

٣٥. البلاذري، انساب، ١ : ص ٤٥٦

٣٦. الكاندهلوي، حياة، ١ : ص ١٦٦

٣٧. الكاندهلوي، حياة، ١ : ص ١٦٦

٣٨. البلاذري، انساب، ١ : ص ٢٦٥

.٣٩ ابن اعثم، فتوح، ٣ : ص ٢٤

.٤٠ ابو الحسن علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر (بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٧٣) ٤ : ص ١١٢ - ١١٣

.٤١ ابن عساكر، تاريخ، ٢٣ : ص ٤٧١

.٤٢ ابن حبيب، المنمق، ص ١٩٩ و ٣٦٨

.٤٣ ابو الحسن علي بن محمد الماوردي، الاحكام السلطانية (مصر، مطبعة الوطن، ١٢٩٨ هـ) ص ٧٨

.٤٤ ابن حبيب، المحبر، ص ٣٣٨

.٤٥ البلاذري، انساب، ١ : ص ٧

.٤٦ البلاذري، انساب، ١ : ص ١٣٢

.٤٧ البلاذري، انساب، ١ : ص ٢٣٧

.٤٨ البلاذري، انساب، ١ : ص ١٠

.٤٩ ابن اعثم، فتوح، ٣ : ص ٢٢٤

.٥٠ البلاذري، انساب، ١: ص ١٣٩

.٥١ البلاذري، فتوح، ٥ : ص ٥١٦-٥١٧

.٥٢ ابو الفرج علي بن الحسين الاصفهاني، الاغاني (بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٦) ٦ : ص ٣٣٥

.٥٣ ابن حبيب، منمق، : ص ٣٨٨

.٥٤ محمد بن عمر فخرالدين الرازي، كتاب الفراسة (باريس، المكتبة الشرقية، ١٩٣٩) ص ٦٢

.٥٥ الرازي، الفراسة، : ص ٧٣

.٥٦ الرازي، الفراسة، : ص ٤٠

.٥٧ ابن منظو، لسان، ١٢ : ص ٢٠٩

.٥٨ ابن الأثير، اسد الغابة، ٤: ص٣٩

٥٩. ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد أ. مهنا (بيروت، دار الحداثة، ١٩٨٧) ص ١٤١

٦٠. ابن حبيب، منمق، ص ٤٠٠-٤٠١

٦١. ابن حبيب، منمق، ص ١٩٩-٢١١

٦٢. ابن منظور، لسان، ١٢ : ص ١٤٦

٦٣. القرآن، ٩ : ص ٩٧

٦٤. ابو ذكريا يحيى بن شرف النووي ، رياض الصالحين (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩١) ص ٣٠٢-٣٠٦

٦٥. Henri Lammens, Etudes sur le Regne du Calife Omaiyade Moawie (Paris,Geuthner, 1908) pp.88-89

٦٦. Henri Lammens, Le Bureau de l'Islam (Roma Sumptibus Pontificci Instituti Biblici, 1914) p. 219

٦٧. Noth, Historical Tradition, p. 188 \ Lammens, Ahabis, p. 49 ....

٦٨. علي، المفصل، ٥ : ص ٥٠٦

٦٩. ابن كثير، تفسير، ١ : ص ٥٤٦

٧٠. ابو الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق فؤاد عبد الباقي (بيروت، دار احياء التراث،١٩٧٢) ٤ : ص ١٩٤٥

٧١. البلاذري، انساب، ١ : ص ٣٦٢

٧٢. Lammens, Mecque, pp. 234-235 ....

٧٣. الواقدي، المغازي، ١ : ص ٣٢

٧٤. الاصفهاني، اغاني، ٢٤ : ص ٢٢٣

٧٥. Crone, Meecan Trade, pp. 87-88 ....

٧٦. البلاذري، فتوح، ٥ : ص ٢٦٦٢

٧٧. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١ : ص ٢٣

٧٨. البلاذري، انساب، ١ : ص ١١

٧٩. علي، المفصل، ٤ : ص ١٢٤

٨٠. البلاذري، فتوح، ٥ : ص ٥٠٠-٥٠١

٨١. Crone, Meccan Trade, pp. 87-88 ....

٨٢. ابن كثير، تفسير، ٢ : ص ٣٦١

٨٣. Crone, Meccan Trade, p. 189 ....

٨٤. القرآن ٦٢ : ١١

٨٥. ابن حبيب، المنمق، : ص ٣٨

٨٦. النووي، رياض، ص ٢٣٧-٢٣٨

٨٧. Crone, Meccan Trade, p.92 ....

٨٨. Crone, Meccan Trade, pp. 78,121 ....

الفصل الرابع

١. ابو بكر محمد ابن اسحاق، سيرة ابن اسحاق، تحقيق محمد حميد الله (الرباط، معهد الدراسات والابحاث والتعريب، ١٩٧٦) ص ١٦٩ -١٧٠

٢. البلاذري ، انساب، ١ : ص ٨

٣. ابن اسحاق، السيرة، ص ٢١٧

٤. البلاذري، انساب، ١ : ص ١٠

٥. البلاذري، انساب،١ : ص ١٣

٦. الطبري، تاريخ، ٣ : ص ١٢٢٩ - ١٢٣٠

٧. ابن حبيب، المحبر، ص ٢٧١

٨. ابن حبيب، المحبر، ص ٢٧٢

٩. ابن حبيب، المنمق، ص ٣

١٠. الطبري، تاريخ، ٣: ص ١٢٦٥

١١. الواقدي، المغازي، ١ : ص ٧٣ - ٧٤

١٢. ابو الوليد محمد بن عبد الله احمد الازرقي، اخبار مكة المشرفة، تحقيق فرديناند فيستنفلد (بيروت، خياط، ١٩٦٤) ١ : ص ١٧

١٣. ابن هشام، السيرة، ١: ص ١٩٤

١٤. ابن الاثير ،أسد الغابة، ص ٢١٩

١٥. عبيد الله بن قيس الرقيات، ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، تحقيق محمد يوسف نجم (بيروت، دار بيروت، ١٩٨٠) ص ٤
١٦. ابن اسحاق، السيرة، ص ١٢٥
١٧. Watt, Mecca, p. 15
١٨. Watt, Mecca, pp. 15-16
١٩. ابن هشام، السيرة، ١ : ص ١٩٤
٢٠. ابن كثير، تفسير، ٣ : ص ٥٠٥
٢١. يعتقد واط ان اقتران عم النبي حمزة بامرأة من كثعم هو دليل على ضعف مكانته في قريش، وقد كان حمزة يحترم كمحارب وليس كصاحب رأي ومشورة في دار الندوة (Watt, Mecca, p 88)
٢٢. البلاذري، أنساب، ١ : ص ٥
٢٣. Maxime Rodinson, Mohammed (Suffolk, Penguin, 1977) p.3
٢٤. الطبري ، تاريخ، ٣: ص ١٢٢٩ - ١٢٣١
٢٥. Richard Burton, Personal Narrative of a Pilgrimage to al-Medina and Mecca (New York, 1964) 2 : pp. 86-87
٢٦. مسلم، صحيح، ٤ : ص ١٩٤٥
٢٧. المقريزي، النزاع والتخاصم، ص ٢٣
٢٨. البلاذري، أنساب، ١: ص ٥١٤
٢٩. اليعقوبي، تاريخ، ص ٤٥
٣٠. الطبري، تاريخ، ٣ : ص ١٢٨٥ - ١٢٩١
٣١. الواقدي، المغازي، ١ : ص ٣٤
٣٢. الطبري، تاريخ، ٣ : ص ١٢٩٥
٣٣. الواقدي، المغازي، ١ : ص ٤٠ - ٤١
٣٤. الواقدي، المغازي، ١ : ص ٤٣
٣٥. الواقدي، المغازي، ١ : ص ١٢١
٣٦. الواقدي، المغازي، ١ : ص ١٢٥
٣٧. الواقدي، المغازي، ١ : ص ١٢٤

٣٨. الطبري، تاريخ، ٣ : ص ١٣٤٦

٣٩. الطبري، تاريخ، ٣ : ص ١٣٤٦

٤٠. الطبري، تاريخ، ٣ : ص ١٣٥٠

٤١. اليعقوبي، تاريخ، ص ٤٧

٤٢. القرآن ٨ : ١٣

٤٣. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢ : ص ٣٠

٤٤. ابن سعد، الطبقات الكبرى،٢ : ص ٣٠

٤٥. الطبري، تاريخ، ٣ : ص ١٣٦٦

٤٦. الطبري، تاريخ، ٣ : ص ١٣٦٦

٤٧. ابن حبيب، المنمق، ص ١٩٩ - ٢٠٣

٤٨. الطبري، تاريخ، ٣ : ص ١٣٧١

٤٩. الواقدي، المغازي، ١: ص ٢٢

٥٠. الواقدي، المغازي، ١ : ص ٢٠٣

٥١. الواقدي، المغازي، ١ : ص ٢٠٧

٥٢. الواقدي، المغازي، ١ : ص ٢٠٦

٥٣. الواقدي، المغازي، ١ : ص ٢٢٠

٥٤. الواقدي، المغازي، ١ : ص ٢٢١

٥٥. الواقدي، المغازي، ١ : ص ٢٣٠

٥٦. الواقدي، المغازي، ١ : ص ٢٧٣ - ٢٧٤

٥٧. الواقدي، المغازي، ١ : ص ٢٩٦ - ٢٩٧

٥٨. القرآن ٣ : ١٤٠

٥٩. ابن كثير، تفسير، ١ : ص ٣٢٢

٦٠. القرآن ٣ : ١٤٤

٦١. الواقدي، المغازي، ١ : ص ٢٩٧

٦٢. W. Montgomery Watt, Mohammad at Medina (oxford, 1956) p. 57..........

٦٣. Watt, Medina, pp. 24-25 ....

٦٤. الواقدي، المغازي، ١: ص ٣٢٦ – ٣٢٧
٦٥. الواقدي، المغازي، ١ : ص ٣٣٨ – ٣٣٩
٦٦. الواقدي، المغازي، ١ : ص ٣٣٩ – ٣٤٠
٦٧. ابن كثير، تفسير، ١ : ص ٣٢٤ – ٣٢٥

٦٨. الطبري، تاريخ، ٣ : ص ١٣٩٥
٦٩. الواقدي، المغازي، ١ : ص ٢٢٩
٧٠. الواقدي، المغازي، ١ : ص ٣٥٨ – ٣٥٩
٧١. القرآن ٦٠ : ٢٥
٧٢. Lammens, Mecque, pp.125-131
٧٣. Lammens, Mecque, pp.125-131
٧٤. Lammens, Mecque, pp. 103-104
٧٥. الواقدي، المغازي، ١: ص ٣٨٤ – ٣٨٦
٧٦. الواقدي، المغازي، ١ : ص ٣٨٧
٧٧. الواقدي، المغازي، ١ : ص ٣٨٧
٧٨. الواقدي، المغازي، ١ : ص ٣٨٧
٧٩. الواقدي، المغازي، ١ : ص ٣٨٦
٨٠. الواقدي، المغازي، ١ : ص ٣٨٩
٨١. الواقدي، المغازي، ١ : ص ٣٨٩ – ٣٩٠
٨٢. ابن حبيب، محبر، ص ١١٩
٨٣. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢: ص ٧١
٨٤. اليعقوبي، تاريخ، ص ٥٠
٨٥. الطبري، تاريخ، ٣ : ص ١٣٧٨ – ١٣٧٩
٨٦. القرآن ٣٣ : ١٠
٨٧. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢ : ص ٧٢
٨٨. الطبري، تاريخ، ٣: ص ١٣٨١

٨٩. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢ : ص ٦٩

٩٠. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢ : ص ٦٩

٩١. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢ : ص ٦٩

٩٢. Lammens, Guerre de Tranchee, pp. 618-619 ....

٩٣. ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، العثمانية، تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة، دار الكتاب العربي، ١٩٥٥) ص٧٢

٩٤. الجاحظ، العثمانية، ص ٧٢

٩٥. الجاحظ، العثمانية، ص ٧٢

٩٦. الطبري، تاريخ، ٣ : ص ١٥٤٣

٩٧. الطبري، تاريخ، ٣ : ص ١٥٣٩ – ١٥٤٠

٩٨. الجاحظ، العثمانية، ص ٧٢

٩٩. علي، المفصل، ٥ : ص ٥٨٢

١٠٠. ابن عساكر، تاريخ، ٢٣ : ص ٤٤١ – ٤٤٢

١٠١. البلاذري، أنساب، ١: ص ٤٢٩

١٠٢. ابن اعثم، فتوح، ٣ : ص ١٢٣

١٠٣. اليعقوبي، تاريخ، ٥٦

الفصل الخامس

١. الطبري، تاريخ، ٣ : ص ١٦٢٠

٢. الطبري، تاريخ، ٣ : ص ١٦٢٢ – ١٦٢٤

٣. الطبري، تاريخ، ٣ : ص ١٦٢٦

٤. ابو عبد الله محمد الذهبي، سير اعلام النبلاء، تحقيق شعيب الارناؤوط (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨١) ٣ : ص ٤٨

٥. اليعقوبي، تاريخ، ص ٥٩

٦. الطبري، تاريخ، ٣: ص ١٦٣٧

٧. اليعقوبي، تاريخ، ص ٥٩
٨. الطبري، تاريخ، ٣: ص ١٦٤٣
٩. عباس بن مرداس، ديوان عباس بن مرداس السلمي، تحقيق يحيى الجبوري (بغداد، وزارة الثقافة والاعلام، ١٩٦٨) ص ٨١
١٠. البلاذري ، فتوح، ٥ : ص ٢٥٥٨
١١. ابن عساكر، تاريخ، ٢٣ : ص ٤٥٦
١٢. ابن كثير، تفسير، ٢: ص ١٣٥
١٣. ابو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي (بيروت، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٩٨٨) ٣ : ص ٢٢٤
١٤. الجاحظ، العثمانية، ص ٧٢
١٥. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٤ : ص ٣١
١٦. الطبري، تاريخ، ٣ : ص ١٦٢٦
١٧. الطبري، تاريخ، ٣: ص ١٦٣٠
١٨. الطبري، تاريخ، ٣ : ص ١٦٣٠
١٩. الطبري، تاريخ، ٣ : ص ١٦٣٤-١٦٣٥
٢٠. ابن سعد،الطبقات الكبرى، ٣: ص ٦٩-٧٠
٢١. Watt, Medina, p. 64 ....
٢٢. Crone , Meccan Trade, pp.165 - 166 ....
٢٣. Crone , Meccan Trade, p.166 ....
٢٤. Watt , Medina, p.64 ....
٢٥. Watt, Medina, p. 63 ....
٢٦. Watt, Medina, p. 65 ....
٢٧. اليعقوبي، تاريخ، ص ٦٢
٢٨. اليعقوبي، تاريخ، ص ٦٢
٢٩. اليعقوبي، تاريخ، ص ٦٢-٦٣
٣٠. الواقدي، المغازي، ٣ : ص ٨٩٥

٣١. الواقدي، المغازي، ٣ : ص ٩٤٤-٩٤٥

٣٢. الواقدي، المغازي، ٣ : ص ٩٤٤-٩٤٥

٣٣. الطبري، تاريخ، ٤ : ص ١٦٧٩

٣٤. الطبري، تاريخ ٤ : ص ١٦٥٩

٣٥. ابن كثير، تاريخ، ٢: ص ١٥٠

٣٦. الطبري، تاريخ، ٤ : ص ١٦٥٩

٣٧. Watt, Medina, pp. 74-75 ....

٣٨. Watt, Medina, p. 351 ....

٣٩. Watt, Medina, p. 352 ....

٤٠. البلاذري، فتوح، ٥ : ص ٢٥٧٦

٤١. الواقدي، المغازي، ٣ : ص ٩٢٨-٩٤٣

٤٢. ابن عساكر، تاريخ، ٢٣ : ص ٤٦٥

٤٣. الواقدي، المغازي، ٣ : ص ٩٦٢-٩٦٣

٤٤. ابن هشام، سيرة، ٢ : ص ٩٦٨

٤٥. ابن الكلبي، الأصنام، ص ٢٧

٤٦. الواقدي، المغازي، ٣ : ص ٩٧١-٩٧٢

٤٧. الواقدي، المغازي، ٣ : ص ٩٧٢

٤٨. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٤ : ص ٢٩٦

٤٩. البلاذري، انساب، ١ : ص ٦١

٥٠. ابن هشام، سيرة، ١ : ص ٦١

٥١. الطبري، تاريخ، ٤ : ص ١٩٨٣

٥٢. ابن سعد، طبقات، ١ : ص ٢٧٠، ٢٨٧، ٣٥٨

٥٣. البلاذري، فتوح، ٥ : ص ٢٦٣٣

٥٤. الاصفهاني، اغاني، ٦ : ص ٣٢٤

٥٥. الاصفهاني، اغاني، ٦ : ص ٣٢٣

٥٦. البلاذري، انساب، ١ : ص ١٤٦

٥٧. البلاذري، انساب، ١ : ص ١٣
٥٨. الطبري، تاريخ، ٤ : ص ١٦٩٢
٥٩. اليعقوبي، تاريخ، ١٢٦
٦٠. البلاذري، انساب، ١ : ص ١٣
٦١. ابن كثير، تفسير، ٣ : ص ٤٨٤
٦٢. الطبري، تاريخ، ٧ : ص ٢٠٩٥
٦٣. الصفدي، نكت الهميان، ص ١٧٢
٦٤. البلاذري، انساب، ١ : ص ١١
٦٥. ابو عبد الله محمد بن عثمان الذهبي، تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والاعلام، تحقيق عمر التدمري (بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٨٧) ٣: ص ١٤١
٦٦. الاصفهاني، اغاني، ٦ : ص ٣٣٣
٦٧. مسلم، صحيح، ٤ : ص ١٩٤٥
٦٨. ابن أعثم، فتوح، ٣ : ص ١٠١٨
٦٩. اليعقوبي، تاريخ، ص ١٢٦
٧٠. علي، المفصل، ٥ : ص ٨٩ / Lammens, Moawia, pp.157-158 / Lammens, Triumvirat, pp.134-135
٧١. البلاذري، انساب، ١ : ص ١١
٧٢. الطبري، تاريخ، ٧ : ص ٢١٠١
٧٣. ابن عساكر، تاريخ، ٢٣ : ص ٤٧١
٧٤. البلاذري، انساب، ١ : ص ٩
٧٥. البلاذري، انساب، ١ : ص ٩
٧٦. الازرقي، مكة، ١ : ص ٤٤٧-٤٤٨
٧٧. ابن عساكر، تاريخ، ٢٣ : ص ٤٦٩
٧٨. ابن عساكر، تاريخ، ٢٣ : ص ٤٧٠
٧٩. ابن عساكر، تاريخ، ٢٣ : ص٤٧٠
٨٠. البلاذري، انساب، ١ : ص ٩
٨١. اليعقوبي، تاريخ، ص ١٥٣

٨٢. البلاذري، فتوح، ٥ : ص ٣٠١٣
٨٣. البلاذري، انساب، ١ : ص ١١
٨٤. البلاذري، فتوح، ٥ : ص ٢٦٧٧
٨٥. المبرد، الكامل، ص ٤١٤
٨٦. الترمذي، سنن، ٣ : ص ٢٠٤
٨٧. مسلم، صحيح، ٤ : ص ١٨٦٤
٨٨ ابن ماجة، سنن، ١ : ص ٤٠
٨٩. البخاري، صحيح، ٢ : ص ٢٩٥
٩٠. مسلم ، صحيح، ٤ : ص ١٨٦٤-١٨٦٥
٩١. القرآن ٦٣ : ٨
٩٢. الكاندهلوي، حياة، ٣ : ص ٣٣٠
٩٣. ابن عساكر، تاريخ، ٢٣ : ص ٤٧١
٩٤. المسعودي، مروج، ٣ : ص ٨٦
٩٥. ابن عساكر، تاريخ، ٢٣ : ص٤٧٠-٤٧١
٩٦. اليعقوبي، تاريخ، ص ١٧٣
٩٧. ابن عساكر، تاريخ، ٢٣ : ص٤٧٢
٩٨. اليعقوبي، تاريخ، ص ١٦٩
٩٩. ابن حجر، الاصابة، ص ٢٣٨
١٠٠. ابن عساكر، ٣ : ص ٤٧٣

الفصل السادس

١. ابن حبيب، المنمق، ص ٣٦٥
٢. ابن حبيب، المنمق، ص ١٧٧
٣. البلاذري، انساب، ١: ص ٢
٤. ابن ماجة، سنن، ١: ص ٥
٥. مسلم، صحيح، ٤ : ص ١٩٤٥

٦. مسلم، صحيح، ٤ : ص ١٩٤٧
٧. الاصفهاني، اغاني، ٦ : ص ٣٢٩-٣٣٠
٨. الطبري، تاريخ، ص ١٥٦١-١٥٦٨
٩. ابن عساكر، تاريخ، ٢٣ : ص ٤٣٩
١٠. الكاندهلوي، حياة، ٣ : ص ٦٠١-٦٠٢
١١. الازرقي، مكة، ١ : ص ١٩٣-١٩٣
١٢. ابن عساكر، تاريخ، ٢٣ : ص ٤٥٨
١٣. ابن عساكر، تاريخ، ٢٣ : ص ٤٥٨
١٤. ابن عساكر، تاريخ، ٢٣ : ص ٤٥٨
١٥. ابن عساكر، تاريخ، ٢٣ : ص ٤٥٨-٤٥٩
١٦. ابن عساكر، تاريخ، ٢٣ : ص ٤٥٩
١٧. ابن عساكر، تاريخ، ٢٣ : ص ٤٦٤
١٨. ابن عساكر، تاريخ، ٢٣ : ص ٤٦٤
١٩. ابن عساكر، تاريخ، ٢٣ : ص ٤٦٤
٢٠. ابن أعثم، فتوح، ٢ : ص ١٣٩١
٢١. البلاذري، انساب، ١ : ص ١٣٠
٢٢. الطبري، تاريخ، ١٣ : ص ٢١٦٩-٢١٧٠
٢٣. مسلم ، صحيح، ٤ : ص ٢٠٠٧
٢٤. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٥ : ص ٩٤

الملحـــــق

١. اليعقوبي، تاريخ، ص ٢٨
٢. البلاذري، انساب، ١ : ص ١٢١
٣. البلاذري، انساب، ١ : ص ١٢١
٤. ابن اعثم، فتوح، ٢: ص ١٦-١٩
٥. اليعقوبي، تاريخ، ص ٢٢٠

٦. البلاذري، انساب، ١ : ص ١٨٧

٧. البلاذري، انساب، ١ : ص ٢٠٠

٨. Henri Lammens, Ziad Ibn Abihi, Vice-Roi de l'Iraq (Roma, Casa Editrice Italiana, 1912) p.129

٩. الاصفهاني، اغاني، ٦ : ص ٣٣٥

١٠. حسان بن ثابت، ديوان حسان بن ثابت (بيروت، دار صادر، ١٩٦١) ص ٣٨-٣٩

١١. ابن ثابت، ديوان، ص ٩

١٢. الاصفهاني، اغاني، ٦ : ص ٣٣٤

١٣. اليعقوبي، تاريخ، ص ١٢٦

١٤. المسعودي، مروج، ٣ : ص ١٩٢

ببليوغرافيا

اولاً : المراجع العربية الاولية

ابن الاثير، ابو الحسن عز الدين، علي بن محمد، اسد الغابة في معرفة الصحابة، القاهرة، المطبعة الوهابية ١٢٨٠ هـ.

---- ، الكامل في التاريخ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٥.

الازرقي، ابو الوليد محمد، بن عبد الله بن احمد، اخبار مكة، تحقيق فرديناند فيستنفيلد، بيروت ، خياط ،١٩٦٤.

ابن اسحق، ابو بكر محمد، سيرة ابن اسحاق، تحقيق محمد حميد الله، الرباط، معهد الدراسات والابحاث للتعريب، ١٩٧٦.

الاصفهاني، ابو الفرج علي بن الحسين، الاغاني، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٨.

ابن اعثم الكوفي، ابو محمد احمد، الفتوح، تحقيق سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٢.

البخاري، ابو عبد الله محمد بن اسماعيل، صحيح البخاري، بيروت، دار صعب، د. ت.

البلاذري، احمد ابن يحيى بن جابر، انساب الاشراف، تحقيق احسان عباس، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٧٩.

---- ، البلدان وفتوحها واحكامها، تحقيق سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٢.

الترمذي، ابو عيسى محمد بن عيسى، سنن الترمذي، بيروت، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٩٨٨.

ابن ثابت، حسان، ديوان حسان ابن ثابت، بيروت، دار صادر، ١٩٦١.

ابن دريد، ابو بكر محمد بن الحسن، كتاب الاشتقاق، تحقيق عبد السلام هارون،القاهرة، الخانجي، ١٩٥٨ .

الجاحظ، ابو عثمان عمرو بن بحر، البرصان والعرجان و العميان والحولان، تحقيق محمد مرسي الخولي، القاهرة، دار الاعتصام،١٩٧٢.

--- ، رسائل الجاحظ، تحقيق عبد أ. مهنا، بيروت، دار الحداثة، ١٩٨٧.

--- ،العثمانية، تحقيق عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٥٥ .

ابن حبيب، البغدادي، ابو جعفر محمد، المحبر، تحقيق ايلزه ليختن شتيتر، حيدرآباد، مطبعة دائرة المعارف ١٩٤٢ .

--- ، كتاب المنمق في أخبار قريش، تحقيق خورشيد احمد فارق، حيدر آباد، دائرة المعارف العثمانية، ١٩٦٤.

ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين ابو الفضل احمد بن علي، كتاب الاصابة في تمييز الصحابة، كلكتا، ١٩٠٧.

ابن حنبل، ابو عبد الله احمد بن محمد، مسند احمد بن حنبل، تحقيق احمد محمد شاكر، القاهرة،، دائرة المعارف، ١٩٤٧.

الخطيب البغدادي، احمد بن علي، تقييد العلم، تحقيق يوسف العش، دار احياء السنة النبوية ١٩٧٤.

الذهبي، ابو عبد الله محمد بن عثمان، تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والاعلام، تحقيق عمر التدمري، بيروت، دار الكتاب العربي،١٩٨٧ .

---- ، سير اعلام النبلاء، تحقيق شعيب الارناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة١٩٨١.

الرازي، محمد بن عمر فخر الدين، كتاب الفراسة، باريس، المكتبة الشرقية،١٩٣٩.

الزبير بن بكار، ابو عبد الله محمد، جمهرة نسب قريش واخبارها، تحقيق مروان شاكر، القاهرة، مكتبة العروبة، ١٩٦٢.

الزبيري، ابو عبد الله المصعب بن عبد الله، نسب قريش، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٣.

ابو زرعة، عبد الرحمن بن عمرو الدمشقي، تاريخ ابي زرعة الدمشقي، دمشق مطبوعات مجمع اللغة العربية، ١٩٨٠.

ابن سعد، ابو عبد الله محمد، الطبقات الكبير في النساء، ليدن، ١٢٣١ هـ.

----، الطبقات الكبرى، بيروت، دار صادر د. ت.

السيوطي، جلال الدين ابو الفضل عبد الرحمن بن ابي بكر، فهرست تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين القائمين بامر الأمة، ادارة الطباعة المنيرية، ١٩٣٣.

--- ، الوسائل الى معرفة الاوائل، القاهرة، مطبعة الخانجي، ١٩٨٠.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك، نكت الهميان في نكت العميان، القاهرة، مطبعة الجمالية، ١٩١١.

الطبري، ابو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٤١.

ابن عساكر، ابو القاسم علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٥.

العصفري، ابو عمرو خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق سهيل زكار، دمشق، وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي، ١٩٦٧.

ابن قتيبة، ابو محمد عبد الله بن مسلم، عيون الاخبار، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٢٥.

ابن قيس الرقيات، عبيد الله ، ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، تحقيق محمد يوسف نجم ، بيروت، دار بيروت، ١٩٥٨ .

ابن كثير، عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن عمر، مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد علي الصابوني، بيروت دار القرآن الكريم ١٩٨٠.

الكاندهلوي، محمد يوسف، حياة الصحابة، دمشق، دار القلم، ١٩٨٥.

ابن الكلبي، ابو المنذر هشام بن محمد ببن السائب، كتاب الاصنام، تحقيق احمد زكي، القاهرة، المكتبة العربية، ١٩٢٤.

الماوردي، ابو الحسن علي بن محمد، الاحكام السلطانية، مصر، مطبعة الوطن، ١٢٩٨ هـ.

ابن ماجه، ابو عبد الله محمد بن يزيد، سنن ابن ماجه، بيروت، دار الفكر، ١٩٥٤.

المبرد، ابوالعباس محمد بن يزيد، الكامل، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦.

--- ، نسب عدنان و قحطان، الهند مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،١٩٣٦.

ابن مرداس، عباس، ديوان عباس بن مرداس السلمي، تحقيق يحيى الجبوري، بغداد، وزارة الثقافة والاعلام، ١٩٦٨.

المسعودي، ابو الحسن علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٧٣.

مسلم، ابو الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت دار احياء التراث، ١٩٧٢.

المعجم المفهرس لألفاظ الحديث، ليدن، بريل ١٩٦٧.

المقدسي، مطهر بن طاهر، كتاب البدء والتاريخ، باريز، ارنست لرو، ١٩١٦.

المقريزي، ابو العباس احمد بن علي، النزاع والتخاصم فيما بين امية وهاشم، القاهرة، مكتبة الاهرام، ١٩٣٧.

ابن منظور، ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب ، بيروت، دار صادر، د.ت.

النووي، ابوزكريا يحيى بن شرف، رياض الصالحين، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩١.

ابن هشام، ابو محمد عبد الملك، السيرة النبوية، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٢.

الواقدي، ابو عبد الله محمد بن عمر، كتاب المغازي، تحقيق مارسدن جونز، لندن مطبعة اوكسفورد، ١٩٦٦.

ياقوت، ابو عبد الله يعقوب بن عبد الله الحموي، المقتضب من كتاب جمهرة النسب، بيروت، الدار العربية للموسوعات، ١٩٨٧ .

اليعقوبي، احمد بن ابي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، بيروت، دار صادر، ١٩٦٠.

ثانيا: المراجع العربية الثانوية

اطلال، حولية الاثار العربية السعودية ، الادارة العامة للآثار والمتاحف بوزارة المعارف في المملكة العربية السعودية. ١٩٧٤- ١٩٩٠

دائرة المعارف الاسلامية، القاهرة ، ١٩٣٣

الدوري ، عبد العزيز، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٨٢.

سحاب ، فكتور، ايلاف قريش رحلة الشتاء والصيف، بيروت، كومبيونشر والمركز الثقافي العربي،١٩٩٢.

علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، بيروت، دار العم للملايين، ١٩٧٦.

فلهاوزن، يوليوس، تاريخ الدولةالعربية من ظهورالاسلام الىنهاية الدولة الاموية، ترجمة محمد عبد الهادي ابوريدة، القاهرة، لجنة التاليف والترجمة والنشر، ١٩٥٨.

ثالثاً : المراجع الانجليزية

Abbot , Nabia , Studies in Arabic Literary Papyri , Chicago, Chicago University Press,1942

Auerbach , Erich ,Literary Language and its Public in Late Latin Antiquity and in the Midlle Ages, New York , Random House , 1965

----- , Mimesis: The Representation of Reality in Western Literature, trans. Wallard R. Trask , New York Doubleday Anchor Books, 1957

Burton , Richard ,Personal Narrative of a Pligrimage to al-Medina and Mecca, New York , 1964

Crone , Patricia,God's Caliph, London , Cambridge University. Press 1986.

------- , Hagarism, the Making of the Muslim World, London ,Cambridge University Press, 1977

------ , Meccan Trade and the Rise of Islam, Oxford , 1987

----- , Roman Provincial and Islamic Law, London , Cambridge Univ.press,1987

----- , Slaves on Horses: The Evolution of the Islamic Polity ,London , Cambridge University Press, 1980

Gauthier - Pilter, Hilde, The Camel: Its Evolution, Ecology, Behavior and Relationship to Man ,Chigago, Chicago University Press,1981

Dangor , Suleman Essop, "Abu Sufyan : Study of the Sources", al'Ilm Journal of the Centre of Research in Islamic Studies ,Vol. 9, Jan. 1989. 54 - 65

Duri: , A.A.,The Rise of Historical Writing Among the Arabs, Princeton, Princrton University Press, 1983.

Goldzieher, Ignaz, Muslim Studies, London, George Allen and Unwind LTD., 1967.

Groom, Nigel, Frankincense and Myrrh: A Story of the Arabian Incense Trade, London, Longman ,1981.

Humphreys , R. Stephan ,Islamic History : A Framework for Inquiry, Princeton, Princeton University Press, 1991.

Kennedy, Hugh, The Prophet and the Age of the Caliphates, London, Longman,1986.

Khalidi, Tarif, Arabic Historical Thought in the Classical Period, Cambridge, 1994.

Kister, M.J., Society and Religion from Jahiliyya to Islam, London, Variorum, 1990.

--------- , Studies in Jahiliyya and Early Islam ,London , 1980.

Leder ,Stefen , "The Literary Use of Khabar. A Basic Form of Historical Writing", The Byzantine and Early Islamic Near East, ed. A. Cameron and L.I. Conrad , Princeton ,1992.

Noth, Albrecht, The Early Arabic Historical Tradition, a Source Critical Study, trasn. M. Donner. Princeton ,1994.

Rodinson, Maxime, Mohammed, Suffolk, Penguin, 1977.

Rosenthal, Franz, A History of Muslim Historiography, Leiden, 1989.

Schact, Joseph, The Origins of Muhammaden Jurisprudence, Oxford, 1950.

Shahid, Irfan, Byzantium and the Semitic Orient before the Rise of Islam, London, Variorum Reprints, 1988.

Simon, Robert, Meccan Trade and Islam, Budapest, Akademiai, 1989.

Tully, James, Meaning and Context, Quetin Skinner and his Critics, Cambridge U.K. Polity press, 1988.

Wansbrough, J., The Sectarian Milieu: Content and Composition of Islamic Salvation History, Oxford, 1978.

Watt, Montgomery W., Muhammad at Mecca, Oxford,1953..

-------------- ,Muhammed at Medina,Oxford University Press 1956

رابعا: المراجع الفرنسية

Lammens , Henri , Les Ahabis ,Paris , Impremerie Nationale , 1926.

---- , L'Ancienne Frontiere entre La Syrie et le Hidjaz, Extrait du Bulletin de l'Institut Francais d'Archeologie Orientale . T. XIV, pp. 69-96

---- ,L'Arabie Occidentale avant l'Hegire ,Beyrouth , Impremerie Catholique , 1928.

---- , Le Berceau de l'Islam ,Romae Sumptibus Pontificii Instituti Biblici,1914.

---- , La Cite Arabe de Taif a la Veille del'Hegire , Beyrouth , Impremerie Catholique , 1922.

---- , Les Competitions de Puissances en Arabie a la Veille de l'Hegrie , Le Caire , Impremerie de l'Institut Francais d'Archeologie Orientale 1916.

---- , Etude sur la Regne du Clife Omaiyyade Moawia, Paris, Geuthner, 1908.

---- , Etude sur le Siecle des Omayyades ,Beyrouth , Impremerie Catholique , 1930.

---- , Les Juifs de la Mecque a la Veille de l'Hegire , Paris , Dumolin.

---- , Mahomet et le Guerre de Tranchees.

---- , La Mecque a la Veille De l'Hegrie , Beyrouth , Impremerie Catholique, 1924.

---- , Le Triumvirat : Abou Baker , Omar , et Abou 'Obaida, 1908.

---- , Ziad Ibn Abihi,Vice-Roi de l'Iraq , Roma, Casa Editirce Italiana,1912.